أبحاث المؤتمر الدولي العلمي الخامس للمركز الأوروبي للبحوث والاستشارات

في العلوم الإنسانية والاجتماعية تحت شعار " المستقبل بعين الحاضر والماضي"

اسطنبول – تركيا – جامعة مرمرة – كلية الإلهيات

2018 / 5 / 4 - 3

Proceedings of 6th ECRC International Scientific Conference

in Social Sciences and Humanities "Future through recent and past sights"

Istanbul – Turkey - Marmara University – Ilahiyat Faculty

3-4 /May/ 2018

ISBN 978-1-9996437-3-7

المركز الأوروبي للبحوث والاستشارات

www.ecrc.org.uk

European Centre for Research & Consultancy

LONDON

فهرس الأبحاث

الباحث	الصفحة
د/ مجيدة الزياني	1
د/ مدان نعيمة – د/ سليمي ساسية	15
أ.م.د/ عبدالقادر جبار طه – أ.م.د/ احلام احمد جمعة	29
أ/ أهيف عبد العزيز محمّد بوربني	43
أ/ يحيى باسم عياش	54
د/ سماح صلاح الدين شلبي	67
أ/ مروى الورشفاني	81
د/ بلمهدي فتيحة – د/ الجوزي وهيبة د/ بوكايس امال – أ.د/ بشير متيجة	94
أ/ محرز حمايمي	107
د / راشدي وردية – د/ بووزة باية	125
أ/ إيمان سكور	144
أ/ حبيبة معنصر	163
د/ ساوس خيرة	177

ECRC
European Centre for Research & Consultancy
LONDON

European Centre for Research & Consultancy

LONDON

European Centre for Research & Consultancy

LONDON

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه ومن اتبع هداهم،،،

المشاركون الكرام... الحضور الكريم

تحية طيبة وبعد،،،

هذا هو المؤتمر الدولي العلمي السادس للمركز الأوروبي للبحوث والاستشارات في العلوم الإنسانية والاجتماعية تحت شعار "المستقبل بعين الحاضر والماضي" في اسطنبول. وكما جرت العادة، فقد حرصنا على تنوع الأوراق المقدمة في هذا المؤتمر؛ فأتت البحوث لتعزز النزعة البينية بين فروع المعرفة ضمن محاور المؤتمر: المحور الأول الشريعة والدراسات الإسلامية والقانون؛ والمحور الثاني العلوم الاجتماعية؛ والمحور الثالث العلوم الانسانية والمحور الرابع العلوم الطبية والصحية والمحور الخامس الهندسة والعلوم. وقد روعي أن تكون الأوراق المقدمة تتماشى مع أهداف المؤتمر، وخضعت للتحكيم العلمي السري. كما أن الأبحاث قد توزعت ما بين أبحاث دراسات ميدانية وأبحاث نظرية.

والله ولي التوفيق والسداد

European Centre for Research & Consultancy
LONDON

رئيس المؤتمر **نائب رئيس المؤتمر**

د. عبد المحسن عايض القحطاني **د/ جراح الفضلي**

المؤتمر الدولي العلمي السادس للمركز الأوروبي للبحوث والاستشارات

في العلوم الإنسانية والاجتماعية تحت شعار " المستقبل بعين الحاضر والماضي"

تركيا – اسطنبول

جامعة مرمرة – كلية الإلهيات

3 - 4 / 5 / 2018

القانون الدولي الإنساني والإرهاب
إشكالية المفهوم والأثر

إعداد:

د/ مجيدة الزياني

جامعة القرويين- المغرب

Email: m.ziani09@gmail.com

Ref: 6/2018/106

ISBN 978-1-9996437-3-7

ملخص:

أصبحت العمليات العدائية الإرهابية تتجاوز المساس بالأرواح والممتلكات إلى درجة تهديد السلم والأمن الدوليين، وهو ما يفرض في محطات كثيرة تكثيف جهود الدول المختلفة من أجل التصدي لهذه الظاهرة والحد من آثارها. غير أن صعوبة التحديد الدقيق لمفهوم الإرهاب في القانون الدولي الإنساني والصكوك الدولية وكذا القوانين الداخلية،يثير إشكالات قانونية تتعلق أساسا بتكييف النزاع الناتج عن مكافحة الإرهاب بحسب ما إذا كان يخضع لأحكام القانون الدولي الإنساني أو غيره، بالإضافة إلى الآثار الناتجة عن هذا التكييف بالنسبة للأجهزة التي تسهر على توفير ضمانات قانونية للمعتقلين المحتجزين في إطار مكافحة الإرهاب.

مقدمة:

عرفت العمليات الإرهابية المرتكبة عبر العالم ارتفاعا مطردا في الحقبة الأخيرة ، ولم تسلم من آثارها الوخيمة الأرواح والممتلكات كما لم تبق محدودة في منطقة دون أخرى أو مرتبطة بجنس دون آخر. وإذا كان الإجماع حاصلا حول ضرورة التصدي لهذه الظاهرة المخلة بالسلم المحلي و الدولي، فإن طبيعة النزاع الناتج عن مكافحة الإرهاب يثير سؤال العلاقة بين القانون الدولي الإنساني والإطار القانوني الذي يحكم الإرهاب. وغني عن البيان أن مكمن الإشكال يتعلق على وجه الخصوص بمفهوم الإرهاب نفسه في القانون الدولي والقوانين الوطنية من جهة، بالإضافة إلى استخداماته في العديد من أحكام القانون الدولي الإنساني صراحة أو ضمنا من جهة ثانية. فما هو التكييف القانوني لطبيعة النزاع في مجال مكافحة الإرهاب؟ هل يعتبر نزاعا مسلحا دوليا أو غير دولي يدخل ضمن مجال تطبيق القانون الدولي الإنساني أم يظل خاضعا لقانون حقوق الإنسان والقوانين المحلية؟ ثم ما هي الآثار القانونية المترتبة عن هذا التكييف ،خاصة في الجانب الذي يهم القانون المطبق على المعتقلين في إطار عمليات التصدي ومكافحة الإرهاب؟ وتبعا لذلك هل يكون للجنة الدولية للصليب الأحمر دور في ضمان احترام القوانين المطبقة على المحتجزين في إطار مكافحة الإرهاب؟

إن طرح هذه الأسئلة للنقاش يجعلنا نقف عند التحديات القانونية التي تواجه القانون الدولي الإنساني والذي سعى منذ بداياته الأولى إلى تطوير قواعده لتوفير الضمانات القانونية اللازمة لمواكبة الأحداث والوقائع المستجدة في مجال الحروب. وغير خاف أن واقع الحروب اليوم يفرض أكثر من أي وقت مضى مواصلة تطوير هذه القواعد أو على الأقل توضيح الأسس القانونية الواجب اعتمادها في تكييف النزاعات الناتجة عن مكافحة الإرهاب. ولملامسة أهم جوانب هذا الموضوع، سنتطرق إلى تحديد مفهوم الإرهاب في القانون الدولي الإنساني والصكوك الدولية، بهدف تكييف تحديد الوصف القانوني النزاع المتعلق بمكافحة الإرهاب، لنجيب في الأخير عن دور اللجنة الدولية للصليب الأحمر في هذا المجال باعتبارها متدخلا أساسيا في النزاعات السلحة والآثار الناجمة عنها.

الفقرة الأولى: إشكاليات تحديد مفهوم الإرهاب

أولا: مفهوم الإرهاب بين القانون الدولي الإنساني والصكوك الدولية

1- مفهوم الإرهاب في القانون الدولي الإنساني:

يعتبر القانون الدولي الإنساني فرعا من فروع القانون الدولي العام، ويتكون من مجموع القواعد التي تسعى في أوقات النزاع المسلح الدولي إلى حماية الأشخاص الذين لا يشاركون أو الذين كفوا عن المشاركة في الأعمال العدائية، بالإضافة إلى تقييد أساليب الحرب.[1] فالقانون الدولي الإنساني إذن هو قانون لا يهدف إلى إيقاف الحرب أو النزاع المسلح، لكنه يتضمن مجموعة القواعد الدولية الاتفاقية أو العرفية التي تروم تسوية المشكلات الإنسانية الناجمة مباشرة عن هذه النزاعات المسلحة، وذلك من خلال حماية الأشخاص الغير مشاركين فيها والأعيان التي لا تشكل أهدافا عسكرية.

ومن المتعارف عليه أن من المبادئ الأساسية التي يقوم عليها القانون الدولي الإنساني مبدأ التمييز ومبدأ الضرورة العسكرية. ويقتضي المبدأ الأول التمييز بين المدنيين والمحاربين وبين الأعيان المدنية والأهداف العسكرية،[2] كما يعني الثاني التقيد بتحقيق الغرض المشروع من النزاع أو الحرب بالشكل الذي يضعف الطرف الآخر ويجبره على الاستسلام وهو ما يسمح بالقول بتقييد

---

[1] – القانون الدولي الإنساني إجابات على أسئلتك. منشورات اللجنة الدولية للصليب الأحمر. دجنبر 2014. ص 4.

راجع كذلك شريف عتلم. مدلول القانون الدولي الإنساني وتطوره التاريخي ونطاق تطبيقه. محاضرات في القانون الدولي الإنساني. بعثة اللجنة الدولية للصليب الأحمر بالقاهرة. 2001. ص 10.

[2] يتمع المدنيون بالحماية من الهجمات إلا في حالة مشاركتهم المباشرة في الأعمال العدائية وفي حدود وقت تلك المشاركة. ولتوضيح ما يعنيه هذا من الناحية العملية، عقدت اللجنة الدولية للصليب الأحمر عدة اجتماعات للخبراء نوقِش فيها هذا المفهوم. وفي سنة 2009، نشرت اللجنة الدولية المذكورة وثيقة استنادا إلى هذه المناقشات: الدليل التفسيري لمفهوم الاشتراك المباشر في الأعمال العدائية حسب نصوص القانون الدولي الإنساني. وينصّ الدليل التفسيري على أن المدنيين يعتبرون مشاركين مباشرة في الأعمال العدائية عندما يقوم هؤلاء بأعمال محددة كجزء من سير الأعمال العدائية بين الأطراف في نزاع مسلح. ولتحقيق شرط المشاركة المباشرة في الأعمال العدائية، يجب أن يستوفي الفعل المحدد المعايير التالية مجتمعة:

1 . يجب أن يصل الفعل عتبة محددة للأضرار. ويمكن أن يكون هذا هو الحال على العمليات العسكرية أو على القدرة العسكرية لطرف محارب. ويمكن أن يكون هذا هو الحال عندما يُتحَمل أن يؤذي الفعل

أو يقتل مدنيين، أو يجعل المقاتلين عاجزين عن القتال أو سوف يدمر الأعيان المدنية.

2 . يجب أن تكون هناك علاقة سببية بين الفعل والضرر المحتمل أن ينجم إما عن ذلك الفعل أو من عملية عسكرية منسّقة يشكل جزءا لا يتجزأ

3 . يجب أن تكون هناك صلة بين المحاربين. وهذا يعني أن الفعل يجب أن يكون مصمما خصيصا ليحدث بشكل مباشر العتبة المطلوبة من الضرر دعما.لطرف محارب وعلى نحو يضر بالطرف الآخر.

ويعتبر المدنيون مشاركين بشكل مباشر في الأعمال العدائية، ويفقدون حمايتهم من

الهجوم، ما داموا يقومون بمثل هذه الأفعال. وعلاوة على ذلك، تدخل في مفهوم المشاركة المباشرة في الأعمال العدائية التدابير التحضيرية لتنفيذ فعل محدّد يشكل مشاركة مباشرة في الأعمال العدائية وكذلك وزع الجنود في موقع تنفيذها والعودة من هذا الموقع.

القانون الدولي الإنساني إجابات على أسئلتك.م.س. السؤال 11.ص 49

الهجوم في زاوية ضيقة يتم فيها الاقتصار على الحد الأدنى من إزهاق الأرواح وتبديد الممتلكات. فهل تسمح قواعد القانون الدولي الإنساني كما هي موجودة الآن باستيعاب النزاعات الناتجة عن مكافحة العمليات العدائية الموسومة بالإرهابية؟

بالرجوع إلى المادة 3 المشتركة بين اتفاقيات جنيف الأربع فإننا نجدها تنص على قواعد معاملة المدنيين ولهذا الغرض, تحظر الأفعال التالية فيما يتعلق بهؤلاء الأشخاص في جميع الأوقات والأماكن : (أ) الاعتداء على الحياة والسلامة البدنية, وبخاصة القتل بجميع أشكاله, والتشويه, والمعاملة القاسية, والتعذيب, (ب) أخذ الرهائن, (ج) الاعتداء على الكرامة الشخصية, وعلى الأخص المعاملة المهينة والحاطة بالكرامة, (د) إصدار الأحكام وتنفيذ العقوبات دون إجراء محاكمة سابقة أمام محكمة مشكلة تشكيلاً قانونياً, وتكفل جميع الضمانات القضائية اللازمة في نظر الشعوب المتمدنة.

كما أن المادة 33 من اتفاقية جنيف الرابعة بشأن حماية الأشخاص المدنيين في وقت الحرب تنص بشكل صريح على ما يلي:"تحظر العقوبات الجماعية وبالمثل جميع تدابير التهديد أو الإرهاب". بالإضافة إلى المادة 34 من نفس الاتفاقية التي تنص على أن "أخذ الرهائن محظور".

أما بالنسبة للبروتوكولين الإضافيين لسنة 1977 فإننا نجد ان البروتوكول الإضافي الأول المتعلق بالنزاعات المسلحة الدولية قد نص في المادة 51 منه المتعلقة بحماية المدنيين على ما يلي: "لا يجوز أن يكون السكان المدنيون بوصفهم هذا وكذا الأشخاص المدنيون محلاً للهجوم. وتحظر أعمال العنف أو التهديد به الرامية أساساً إلى بث الذعر بين السكان المدنيين". كما أن الفقرة الرابعة من نفس المادة "تحظر الهجمات العشوائية، وتعتبر هجمات عشوائية : أ) تلك التي لا توجه إلى هدف عسكري محدد،

ب) أو تلك التي تستخدم طريقة أو وسيلة للقتال لا يمكن أن توجه إلى هدف عسكري محدد، ج) أو تلك التي تستخدم طريقة أو وسيلة للقتال لا يمكن حصر آثارها على النحو الذي يتطلبه هذا اللحق "البروتوكول"، ومن ثم فإن من شأنها أن تصيب، في كل حالة كهذه، الأهداف العسكرية والأشخاص المدنيين أو الأعيان المدنية دون تمييز. "

وإذا انتقلنا إلى البروتوكول الإضافي الثاني، وجدناه بدوره يحظر ارتكاب مجموعة من الأفعال في مواجهة المدنيين منها ما نصت عليه الفقرة الثانية من المادة 4 وهي :" – الاعتداء على حياة الأشخاص وصحتهم وسلامتهم البدنية أو العقلية ولاسيما القتل والمعاملة القاسية كالتعذيب أو التشويه أو أية صورة من صور العقوبات البدنية/ الجزاءات الجنائية / أخذ الرهائن/ أعمال الإرهاب/ انتهاك الكرامة الشخصية وبوجه خاص المعاملة المهينة والمحطة من قدر الإنسان والاغتصاب والإكراه على الدعارة وكل ما من شأنه خدش الحياء / الرق وتجارة الرقيق بجميع صورها / السلب والنهب / التهديد بارتكاب أي من الأفعال المذكورة".

وكذلك ما نصت عليه الفقرة 2 من المادة 13 من نفس البروتوكول التي جاء فيها :"لا يجوز أن يكون السكان المدنيون بوصفهم هذا ولا الأشخاص المدنيون محلاً للهجوم وتحظر أعمال العنف أو التهديد به الرامية أساساً إلى بث الذعر بين السكان المدنيين". أما المادة 16 من البروتوكول الإضافي الثاني فقد حظرت "ارتكاب أية أعمال عدائية موجهة ضد الآثار التاريخية، أو الأعمال الفنية وأماكن العبادة التي تشكل التراث الثقافي أو الروحي للشعوب؛ واستخدامها في دعم المجهود الحربي, وذلك دون الإخلال بأحكام اتفاقية لاهاي بحماية الأعيان الثقافية في حالة النزاع المسلح والمعقودة في 14 مايو 1954.

ومن خلال استقراء هذه المواد، يلاحظ بأن القانون الدولي الإنساني قد استعمل في نصوص متفرقة مصطلح الإرهاب صراحة أو ضمنا من خلال التنصيص على الأفعال المكونة له أو الرامية إلى بث الرعب والذعر بين المدنيين. إلا أن هذا التنصيص لا يمكن أن يفهم منه أن مجال تطبيق القانون الدولي الإنساني يشمل الأعمال الإرهابية، طالما أنه لا يقدم تعريفا واضحا للإرهاب يتفق مع القوانين الدولية أو الإقليمية التي جرمت الأعمال الإرهابية بشكل صريح. أضف إلى ذلك أنه على فرض القول بشمول أحكام القانون الدولي الإنساني لحظر الأعمال الإرهابية، فإن حصر مجال تطبيقه ينحصر فقط في حالات الحرب أو النزاعات المسلحة الدولية أو غير الدولية وهو ما يستبعد الأعمال الإرهابية المرتكبة وقت السلم.

2- مفهوم الإرهاب في الصكوك الدولية :

يثير تحديد مفهوم الإرهاب في القانون الدولي الكثير من الإشكالات بالنظر إلى صعوبة تكييف العناصر المكونة له. وهكذا أصدر مجلس الأمن توصيته رقم 1373 بتاريخ 28 شتنبر 2001 التي تتضمن "التأكيد على أن أعمال الإرهاب الدولي تعد صورا من صور تهديد السلم و الأمن الدولي"، وهي توصية لا تحدد المفهوم القانوني للإرهاب بل تحظره وتؤكد آثاره على تهديد السلم والأمن الدولي.

أما بالنسبة **للاتفاقيات الدولية لمكافحة الإرهاب** وعددها 13 معاهدة، فإنها تتضمن مجموعة من القوانين الخاصة بالجرائم الإرهابية (كما هو شأن الاتفاقية الدولية لمناهضة أخذ الرهائن 1979، واتفاقية لاهاي لقمع الاستيلاء غير المشروع الطائرات 1970، والاتفاقية الدولية لقمع الهجمات الإرهابية بالقنابل 1997 ...) دون تكييف قانوني لطبيعة الإرهاب بالشكل الذي يسمح بتحديد الطبيعة القانونية للأعمال العدائية الإرهابية.

وقد عرفت لجنة القانون الدولي في المادة 19 من المشروع المقدم من قبلها إلى الدورة الأربعين للجمعية العامة للأمم المتحدة الإرهاب "هو كل نشاط إجرامي موجهٌ الى دولة معينة ويستهدف إنشاء حالة من الرعب في عقول الدولة أو أي سلطة من سلطاتها وجماعة معينة منها"[1].

أما إذا انتقلنا إلى **الاجتهاد القضائي الدولي**، فإننا نجد بأن محكمة يوغوسلافيا لجرائم الحرب لسنة 2006 قد أكدت وهي بصدد الفصل في نازلة الجينرال جاليتش قائد القوات الصربية في سراييفو ما بين 1992-1994، أن الترهيب وترويع المدنيين الغير معنيين بالعمليات العسكرية هجوم محظور غير مشروع.

ومع ذلك فإن تكييف الجرائم الإرهابية على أنها جرائم ضد الإنسانية لإخضاعها لاختصاص المحكمة الجنائية الدولية[2] يبقى محل نظر على اعتبار أن المادة 7 من النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية تشترط أن تكون هذه الجريمة قد ارتكبت "في إطار هجوم واسع النطاق أو منهجي، موجه ضد أية مجموعة من السكان المدنيين و عن علم بالهجوم". و المقصود بعبارة واسع النطاق هو تكرار العمل العدائي نطاق واسع،وبشكل جماعي وبخطورة كبيرة ضد عدد كبير من الضحايا ، وهو ما لا ينطبق إلا بشكل محدود في الأعمال الإرهابية.

وخلافا لما هو عليه الأمر بالنسبة للاتفاقيات الدولية، فإن **بعض الاتفاقيات الإقليمية** حاولت وضع تعريف للإرهاب كما هو الشأن بالنسبة للاتفاقية العربية الخاصة بقمع ومكافحة الإرهاب لسنة 1998 التي نصت في الفقرة الثانية من المادة الأولى على أن "الإرهاب: كل فعل من أفعال العنف والتهديد به أيا كانت بواعثه أو أغراضه يقع تنفيذا لمشروع إجرامي فردي أو جماعي ويهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس أو ترويعه..." إلا أن الإشكال يبقى مطروحا بالنسبة للتكييف القانوني لطبيعة النزاع المتعلق بمحاربة الإرهاب على النحو الذي يحسم في الخضوع لأحكام القانون الدولي الإنساني من عدمه.

[1] - كمال المصري، الإرهاب والدولة هل هما متضادان؟ هل من منتصر.-http://www.huffpostarabi.com/kamal-almasry/post_13662_b_13199754.html

[2] - للمزيد من التفاصيل حول المحكمة الجنائية الدولية، يراجع إبراهيم أحمد السامرائي، المحكمة الجنائية الدولية.مجلة العلوم القانونية. كلية القانون.بغداد.ع 1 و2 -2001.

ثانيا: مفهوم الإرهاب في القوانين الوطنية

أصبح موضوع الإرهاب يتصدر اهتمام الباحثين والممارسين في مجال القانون الجنائي والقانون الدولي على حد سواء، وذلك بالنظر إلى تنامي ظاهرة الإرهاب وتشعب أسبابها وتعدد أساليبها ناهيك عن آثارها الوخيمة المتمثلة على وجه الخصوص في إزهاق الأرواح وانتهاك الحرمات وتدمير الممتلكات دون تمييز بالإضافة إلى ما تخلفه من ترويع وترهيب يؤثر على الأمن والطمأنينة في مختلف الدول. وبالنظر إلى طبيعة الجريمة الإرهابية على النحو الذي خلصنا إليه في النقطة السابقة، فقد جرى تنظيمها في القوانين الجنائية للعديد من الدول، ويمكن تقسيم هذه التشريعات إلى فئتين اثنتين تأخذ الأولى بالاتجاه المادي في تعريف الإرهاب فيما تتبنى الثانية اتجاها معنويا في هذا التعريف.

الاتجاه المادي في تعريف الإرهاب: من خلال الوقوف عند العديد من التشريعات التي تناولت الجريمة الإرهابية يتضح بأن هناك غلبة لاعتماد العناصر المادية لهذه الجريمة كأساس للتعريف. ولم يكن ذلك وليد العصر الحالي الذي شهد انتشارا للجرائم الإرهابية في مختلف بقاع العالم، بل إن الرجوع إلى بعض القوانين التي صدرت في منتصف القرن الماضي تبين أن التركيز على العناصر المادية للجريمة كان سمة مميزة لهذه القوانين. وهكذا فقد نصت المادة 304 من قانون العقوبات السوري لعام 1949 على أنه "يقصد بالأعمال الإرهابية الأفعال التي ترمي الى إيجاد حالة ذعر، وترتكب بوسائل كالأدوات المتفجرة، والأسلحة الحربية والمواد الملتهبة، والمنتجات السامة أو المحرقة، والعوامل الوبائية أو الجرثومية التي من شأنها ان تحدث خطراً عاماً ".

وقد عاقب القانون بشدة على اقتراف هذا النوع من الجرائم أو التآمر لارتكابها كما عاقب بالإعدام فيما إذا نتج عنها تخريب أو أفضت الى موت إنسان، و نصت المادة 306 من ذات القانون على عقاب المنظمات الإرهابية ومؤسسيها والأعضاء المنتمين إليها وأمرت بحلها.

ومن خلال هذه المواد، يتبين جليا الاكتفاء بالتنصيص على النتيجة الإجرامية (الخطر العام)، بالإضافة إلى التنصيص على وسائل محدودة في تنفيذ العمل الإرهابي وهي في مجملها وسائل ذات طبيعة حربية. ولا شك أن السبب في ذلك هو أن المرحلة الزمنية التي وضع فيها هذا النص لم تشهد بعد تنوعا في هذه الوسائل على غرار ما هي عليه اليوم. وتبقى الملاحظة الأساس بخصوص هذا النص ،والتي انتبهت إليها التشريعات اللاحقة، هي عدم التنصيص على الهدف من ارتكاب جريمة الإرهاب والذي أصبح يعتبر أساسا في وضع مفهوم الجريمة الإرهابية وتحديد عناصرها. وبعبارة هل المقصود من ارتكاب عمل عدائي تجاه مدنيين عزل هو النيل من هؤلاء الأشخاص بذاتهم، أم ان هناك هدفا أو رسالة يريد الفاعل إيصالها إلى الرأي العام؟

وقد حاول المشرع المصري أن يكون أكثر دقة في تحديد مفهوم الإرهاب وتحديد عناصره المادية، حيث نص في المادة 86 المضافة بالقانون رقم97 لسنة 1992 المعدل لبعض نصوص قانون العقوبات والإجراءات الجنائية على أنه "يقصد بالإرهاب في تطبيق أحكام هذا القانون كل استخدام للقوة أو العنف أو التهديد أو الترويع يلجأ إليه الجاني لتنفيذ مشروع إجرامي فردي أو جماعي بهدف الإخلال بالنظام العام أو تعريض سلامة المجتمع وأمنه للخطر، إذا كان من شأن ذلك إيذاء الأشخاص أو إلقاء الرعب بينهم أو تعريض حياتهم أو حرياتهم أو أمنهم للخطر أو إلحاق الضرر بالبيئة أو بالاتصالات أو المواصلات أو الأموال أو بالمباني أو بالأملاك العامة أو الخاصة أو احتلالها أو الاستيلاء عليها أو منع عرقلة ممارسة السلطات العامة أو دور العبادة أو معاهد العلم لأعمالها أو تعطيل تطبيق الدستور أو القوانين أو اللوائح"

ويندرج هذا التعريف بدوره ضمن الاتجاه المادي في تحديد مفهوم الإرهاب، حيث يلاحظ الرغبة في الإحاطة بكل الصور الممكنة لهذه الجريمة، وهي لا تخرج على كل حال من التركيز على العناصر المادية لهذه الجريمة .

ولتفادي ما تثيره كثرة التفصيلات على غرار ما جاء في القانون المصري، عمد المشرع الفرنسي قي القانون رقم 1020/86 لعام 1986 إلى تعريف الإرهاب بأنه "خرق للقانون، يقدم عليه فرد من الأفراد، أو تنظيم جماعي بهدف إثارة اضطراب خطير في النظام العام عن طريق التهديد بالترهيب". ويثير هذا التعريف ملاحظة هامة وهي عدم التنصيص على الهدف السياسي كأساس معنوي للجريمة الإرهابية والاكتفاء بهدف إثارة الاضطراب الخطير.

وعقب الأحداث الدامية التي شهدتها مدينة الدار البيضاء بالمغرب بتاريخ 16 ماي 2003 صدر القانون رقم 03-03 بتاريخ 29 ماي 2003 والمتعلق بمكافحة الإرهاب وقد نص في الفصل 1 – 218 منه على أنه " تعتبر الجرائم الآتية أفعالا إرهابية، إذا كانت لها علاقة عمدا بمشروع فردي أو جماعي يهدف إلى المس الخطير بالنظام العام بواسطة التخويف أو الترهيب أو العنف .."

ويبدو واضحا أن القانون المغربي بدوره قد ركز على مادية الجريمة[1] من خلال تعداد الأفعال المكونة للنشاط الإجرامي، بالإضافة إلى حصر هدف العمل الإرهابي في المس الخطير بالنظام العام خلافا للمشرع المصري الذي اكتفى بالمس بالنظام العام، و اعتبار التخويف أو الترهيب أو العنف عنصرا مكونا للجريمة الإرهابية وهو ما لا تخلو منه جرائم أخرى، هذا مع عدم التنصيص على الهدف السياسي كأساس للجريمة الإرهابية.

---

[1]- قام المشرع المغربي بتعداد الأفعال التي يعتبرها إرهابية في الفصل 1 – 218 و هي:

1- الاعتداء عمدا على حياة الأشخاص أو على سلامتهم أو على حرياتهم أو اختطافهم أو احتجازهم؛
2- تزييف أو تزوير النقود أو سندات القرض العام ، أو تزييف أختام الدولة والدمغات والطوابع والعلامات، أو التزوير أو التزييف المنصوص عليه في الفصول 360 و361 و362 من هذا القانون؛
3- التخريب أو التعييب أو الإتلاف ؛
4- تحويل الطائرات أو السفن أو أي وسيلة أخرى من وسائل النقل أو إتلافها أو إتلاف منشآت الملاحة الجوية أو البحرية أو البرية أو تعييب أو تخريب أو إتلاف وسائل الاتصال؛
5- السرقة وانتزاع الأموال؛
6- صنع أو حيازة أو نقل أو ترويج أو استعمال الأسلحة أو المتفجرات أو الذخيرة خلافا لأحكام القانون؛
7- الجرائم المتعلقة بنظم المعالجة الآلية للمعطيات ؛
8- تزوير أو تزييف الشيكات أو أي وسيلة أداء أخرى المشار إليها على التوالي في المادتين 316 و331 من مدونة التجارة؛
9- تكوين عصابة أو اتفاق لأجل إعداد أو ارتكاب فعل من أفعال الإرهاب؛
10- إخفاء الأشياء المتحصل عليها من جريمة إرهابية مع علمه بذلك.

الاتجاه المعنوي في تعريف الإرهاب: حاول أصحاب الاتجاه المعنوي في تعريف الجريمة الإرهابية التلطيف من الانتقادات الموجهة للاتجاه المادي، وذلك من منطلق الجواب عن السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح في تحديد مفهوم الجريمة الإرهابية هو الغاية التي يتوخى الفاعل تحقيقها من العمل الإرهابي.و يمكن القول بأن الإرهاب هو استخدام غير شرعي للقوة أو العنف، أو التهديد باستخدامها من أجل تحقيق مآرب سياسية أياً كان نوعها، ومن الطبيعي أن تكون لهذا العنف آثار مادية هي التي تطرقت إليها مختلف التشريعات ومن بينها الأمثلة التي سقناها، بالإضافة إلى الترويع والهلع الذي تخلفه هذه الآثار والذي يكون أساسه هو رغبة الفاعل في لفت الانتباه أو التعريف بقضيته عبر الوسيلة الإرهابية. وبهذا فقد ركز هذا الاتجاه في تعريف الجريمة الإرهابية على توافر الشروط التالية:

- أن يكون العنف غير مشروع؛
- أن يتضمن هذا العنف إحداث الرعب أو التخويف بواسطة الأداة أو الوسيلة المستخدمة في العمل الإرهابي؛
- أن يكون هذا العنف منسقا أو منظما ومستمرا.

والملاحظ أن الفصل 22 من قانون الولايات المتحدة الأمريكية (الفقرة (د) 2656 قد سلك نفس المنحى حينما ركز في تعريفه للجريمة الإرهابية على الركن المعنوي حيث نص على ما يلي: "الإرهاب يعني العنف المتعمد، له دوافع سياسية، يمارس ضد أهداف غير مقاتلة (المدنيين والعسكريين الغير مسلحين وقت وقوع الحادث) من طرف جماعات متطرفة أو أشخاص مهمشين، بغية التأثير على الرأي العام.

الإرهاب الدولي يعني الإرهاب ضد مواطنين أو ضد التراب الإقليمي في أكثر من دولة.

الجماعات الإرهابية تعني كل جماعة يقوم أو ينفذ أغلب أفرادها الإرهاب الدولي ".

ويلاحظ من خلال هذا التعريف عدم الإشارة إلى الرعب الذي يخلفه العمل الإرهابي والتركيز على اعتبار الهدف السياسي للعمل الإرهابي أساسا للتعريف، بالإضافة إلى استعمال مصطلحات مستقاة من أحكام القانون الدولي الإنساني (أهداف غير مقاتلة / المدنيين والعسكريين الغير مسلحين وقت وقوع الحادث). كما يلاحظ تحديد الفاعل في الجريمة الإرهابية في جماعات متطرفة أو أشخاص مهمشين وهي العبارة التي لا يمكن الأخذ بها على إطلاقها إذ طفت على السطح عمليات إرهابية لا يعاني أصحابها من التهميش الاقتصادي أو الاجتماعي، كما أنه نفذت عمليات إرهابية كثيرة بصورة فردية من قبل أفراد يحملون فكرا إرهابيا دون أن التخطيط من قبل جماعات معينة.

وتأسيسا على ما سبق يمكن القول بأن الإرهاب ظاهرة لا يمكن إعلان الحرب عليها على اعتبار أن أحد أطرافها غير مرئي أو غير معرف في النزاع، بالإضافة إلى أن جل الإجراءات المتخذة من طرف الدول لمواجهة الأعمال الإرهابية لا يمكن اعتبارها أعمال حرب كما هو الشأن بالنسبة لتجريم الإشادة بالإرهاب بواسطة الخطب أو الصياح أو التهديدات المفوه بها في الأماكن أو الاجتماعات العمومية أو بواسطة المكتوبات والمطبوعات.

الفقرة الثانية: تحديات القانون الدولي الإنساني في مجال مكافحة الإرهاب

1- تكييف طبيعة النزاع في مجال مكافحة الإرهاب

من المعلوم أن مجال تطبيق القانون الدولي الإنساني هو النزاعات المسلحة الدولية وغير الدولية. ويعتبر النزاع المسلح دوليا عندما تلجأ دولة أو أكثر من دولة إلى استخدام القوة المسلحة ضد دولة أخرى. ويتخذ النزاع المسلح بين دولة ومنظمة دولية وصف النزاع المسلح الدولي. كما تعتبر المادة 1، الفقرة 4 والفقرة 3 من المادة 96 من البروتوكول الإضافي الأول حروب التحرر الوطني التي تقاتل فيها الشعوب ضد قوى الاستعمار أو في مواجهة النظم العنصرية نزاعات مسلحة أيضا.

أما النزاع المسلح غير الدولي فهو النزاع الذي يدور بين قوات مسلحة لدولة معينة وجماعات مسلحة منظمة غير تابعة للدولة، أو بين هذه الجماعات، كما يشترط في هذه الأعمال العدائية بلوغ مستوى معين من الشدة. وبهذا فإن الاضطرابات والتوترات الداخلية المتقطعة لا ترقى إلى مستوى النزاع المسلح لكون العنف فيها غير مرتفع بدرجة كافية تسمح باعتباره نزاعا مسلحا، أو لكون أطرافه لا يشكلون جماعة مسلحة منظمة. والنتيجة المتمخضة عن وصف النزاع المسلح بالدولي أو غير الدولي هو الاستفادة من حماية القانون الدولي الإنساني بما فيها حماية المدنيين والمحاربين الذين كفوا عن القتال بالإضافة إلى حماية الأعيان المدنية التي لا تشكل أهدافا عسكرية.

وتأسيسا على ذلك فإن تكييف العمليات التي تهدف إلى منع أو وقف الهجمات الإرهابية يثير جدلا كبيرا داخل المنتظم الدولي. ويزداد الأمر تعقيدا بتنامي ظاهرة الإرهاب وتعدد أساليبها من جهة وتواتر استعمال عبارة "الحرب ضد الإرهاب" من جهة ثانية وهي العبارة التي تفتقر إلى الدقة القانونية، على اعتبار أن الحرب تكون بين أطراف معلومة في حين أنه لا يمكن تحديد هؤلاء الأطراف في كثير من العمليات الإرهابية حيث يكونون حاملين لفكر أو إيديولوجية إرهابية معينة تؤطر أنشطتهم المتفرقة مما يجعلهم أطرافا لنزاع مسلح عابر للحدود. وبهذا فإن القانون المطبق على هذه الحالات هو القانون الدولي العام والقوانين الوطنية وقوانين حقوق الإنسان وتعتبر اللجنة الدولية للصليب الأحمر أنه "لا يمكن اعتبار أي شخص أسر في إطار مكافحة الإرهاب أنه خارج نطاق القانون،إذ لا يوجد شيء اسمه ثقب أسود بلغة الحماية القانونية" [1]

[1] القانون الدولي الإنساني, إجابات على أسئلتك. مرجع سابق. ص 83.

2- الوضعية القانونية لمعتقلي مكافحة الإرهاب ودور اللجنة الدولية للصليب الأحمر تجاههم

من خلال استعراض مواقف القانون الدولي والوطني بخصوص جريمة الإرهاب، يتضح جليا أن هناك صعوبة في تحديد المفهوم الدقيق لهذه الجريمة .ونظرا لعدم إمكانية إعطاء الإرهاب وصف النزاع المسلح لكونه طرف غير مرئي أو غير معرف في النزاع، فإن الرأي الأسلم هو الحديث عن **مكافحة الإرهاب** وليس الحرب على الإرهاب الذي لا يعدو أن يكون سوى ظاهرة لا يمكن إعلان الحرب عليها.ولأجل ذلك لا تشاطِر اللجنة الدولية للصليب الأحمر الرأي القائل بأنه يجري حاليا شن حرب عالمية على الإرهاب، بل تدعو إلى التعامل مع كل حالة على حدة. وبيان ذلك أنه كلما وصل النزاع إلى عتبة النزاع المسلح كما هو متعارف عليه في الصكوك الدولية، أمكن تطبيق مقتضيات القانون الدولي الإنساني.[1]

ونتيجة لذلك طرحت أمام اللجنة الدولية للصليب الأحمر إشكالية القانون الواجب التطبيق على الأشخاص المحتجزين في إطار عمليات مكافحة الإرهاب، هل يتم اعتبارهم أسرى حرب يستفيدون من كل الضمانات التي يوفرها القانون الدولي الإنساني، أم يخضعون لقوانين الوطنية والاتفاقيات الدولية المتعلقة بمكافحة الإرهاب؟

في الجواب عن هذا السؤال، قامت اللجنة الدولية للصليب الأحمر باعتبار طبيعة النزاع أساسا لتحديد وضعية هؤلاء المحتجزين، مما يجعلنا أمام ثلاث أصناف هي:

- المحتجزون في إطار نزاع مسلح نشب كجزء من مكافحة الإرهاب: حيث يأخذ النزاع وصف المسلح ويمنح للمقاتلين المحتجزين وضع "أسرى الحرب" حسب ما هو منصوص عليه في القانون الدولي الإنساني. أما المدنيون المحتجزون فإنهم يخضعون لاتفاقية جنيف الرابعة، ويحاكمون إذا حملوا السلاح بمقتضى قانون الدولة الحاجزة.

- المحتجزون في إطار نزاع مسلح غي دولي نشب كجزء من مكافحة الإرهاب: تطبق بشأن هؤلاء المادة المشتركة الثالثة والبروتوكول الإضافي الثاني والقواعد ذات الصلة في القانون الدولي الإنساني العرفي، بالإضافة إلى أحكام حقوق الإنسان والقانون المحلي.

- المحتجزون خارج نطاق نزاع مسلح في مكافحة الإرهاب: ويطبق عليهم والقانون المحلي للدولة الحاجزة وقانون حقوق الإنسان.

[1] - والمثال الواضح على ذلك هو الحرب التي شنتها قوات التحالف بقيادة الواليات المتحدة في أفغانستان في 2001.
أنظر كتاب اللجنة الدولية للصليب الأحمر: القانون الدولي الإنساني إجابات على أسئلتك,م.س.ص 82.

ولأجل ذلك فقد طالبت اللجنة الدولية للصليب الأحمر في مناسبات عديدة بتحديد وضعية المحتجزين جراء مكافحة الإرهاب خاصة بكل محتجز بمعتقل غوانتنامو وعدم إخضاعهم لمعيار واحد. كما يطرح أمام اللجنة إشكال السند القانوني لتدخلها من أجل تقديم خدمات إنسانية للمحتجزين في إطار مكافحة الإرهاب، الشيء الذي يجعلها تستند إلى اتفاقية إشبيلية 1997 بشأن تنظيم الأنشطة الدولية لعناصر الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر وخاصة في الجانب المتعلق" بمبدإ المبادرة الإنسانية". وقد كان هذا المبدأ دائما وراء توصيات اللجنة الدولية للصليب الأحمر بخصوص التعامل مع محتجزي مكافحة الإرهاب، حيث دعت في الفقرة 5 من المادة 7 من الاتفاقية الدولية لقمع الهجمات الإرهابية بالقنابل (الموقع عليها في 15-12- 1997/ والتي دخلت حيز التنفيذ في23-5-2001) إلى "التواصل مع مرتكبي الهجمات الإرهابية بالقنابل، وزيارتهم في أماكن معتقلاتهم".كما دعت في الفقرة 5 من المادة 9 من الاتفاقية الدولية لقمع تمويل الإرهاب (الموقع عليها في 9-9-1999/والتي دخلت حيز التنفيذ في 10-4-2002) إلى "التواصل مع مرتكبي جريمة تمويل الإرهاب، وزيارتهم في أماكن معتقلاتهم".

واستنادا إلى ما سبق يمكن القول بأن مكافحة الإرهاب يطرح أمام القانون الدولي الإنساني تحديات قانونية تفتح المجال لنقاش عميق حول مجال تدخل هذا القانون خاصة أمام ازدياد عدد المحتجزين من طرف بعض المتدخلين في مكافحة الإرهاب وعدم وضوح الإطار القانوني الذي يحكمهم، ولا أدل على ذلك الأثر الذي نجم عن احتجاز عدة أفغان في معتقل غوانتنامو بمن فيهم الأطفال والذي يثير بدوره نقاشا حقوقيا على المستوى الدولي.

المؤتمر الدولي العلمي السادس للمركز الأوروبي للبحوث والاستشارات

في العلوم الإنسانية والاجتماعية تحت شعار " المستقبل بعين الحاضر والماضي"

تركيا – اسطنبول

جامعة مرمرة – كلية الإلهيات

3 - 4 / 5 / 2018

أسباب و دوافع عمالة الأطفال في الجزائر

إعداد:

د/ مدان نعيمة

د/ سليمي ساسية

جامعة مولود معمري تيزي وزو- الجزائر

Email: ania.meddane@yahoo.com

Ref: 6/2018/107

ISBN 978-1-9996437-3-7

ملخص:

تعتبر ظاهرة عمالة الأطفال من المشكلات الاجتماعية الخطيرة التي تواجهها المجتمعات الإنسانية بصفة عامة والمجتمع الجزائري بصفة خاصة، فالأطفال يمثلون الفئة العمرية الأوسع في المجتمع، والأكثر حيوية وذات أهمية بالغة، فهم عماد الحياة ورجال المستقبل فالإهدار فيها يعكس خسارة كبيرة للمجتمع، وعليه فبروز هذه الظاهرة في مجتمعنا (الجزائري) ليست وليدة الحاضر، وإنما عرفت منذ مدة طويلة، حيث تمثلت في البداية في بعض الأعمال المنزلية التي تدخل ضمن وظائف الأسرة، كما كان مكان العمل الأوسع انتشارا في الماضي المزارع، واليوم انخرط أطفالنا في مجالات أخرى كالتجارة وكذا الصناعات الحرفية ومجال النقل، ومن خلال هذه الورقة البحثية سنحاول إبراز واقع عمالة الأطفال في مجتمعنا الجزائري و دوافعها وتأثيرها على الأسرة والمجتمع.

الكلمات الدالة: الأسرة، الطفل، العمل، عمالة الأطفال...

مقدمة:

تعد ظاهرة تشغيل الأطفال من الظواهر الاجتماعية التي تعاني منها معظم مجتمعات العالم، ومع تغير الأوضاع في العالم الإنساني واتساع دائرة الفقر لتشمل الأغلبية الساحقة من المجتمعات، أين أصبحت معظم الأسر أكثر حاجة إلى الموافقة على عمل أبنائها في مهن كثيرة، خارج نطاق الأسر وتحت ظروف مهنية غاية في الصعوبة.

ونظرا للوضع الراهن الذي يعيشه المجتمع الجزائري من بطالة وانخفاض في مستوى الدخل الذي يمكن الأسر وخاصة الأطفال منهم بالحصول على كل ما يحتاجونه من ملبس ومأكل وأدوات مدرسية، وغيرها فيسعى هؤلاء الصغار إلى تغيير وضعيتهم المزرية وتحسين ظروف المعيشة بامتهانهم مهن قد تكون في بعض الأحيان خطرا كبيرا عليهم نظرا لسنهم المبكر على العمل.

فهذه الظاهرة إذن تشير إلى ممارسة نشاطات تقع خارج نطاق قوانين العمل وشروطه الاجتماعية، كما أنها في الوقت ذاته تتعارض مع التزامات وشروط ضرورية ومهمة، تعليمية، صحية، واجتماعية،"أي أنها تحدث خارج دائرة القبول الاجتماعي وشروط العمل الوطنية والدولية بل وتتعارض مع المضمون الإنساني لعملية التنمية الاجتماعية"(1).

وعليه فبدافع مساعدة الأسرة يلجأ الطفل إلى الاهتمام بالبحث عن العمل أكثر من اهتمامه بالدراسة وهذا يؤثر سلبا على مساره الدراسي ويؤدي به إلى ترك المدرسة نهائيا ودخول سوق العمل، مما يؤدي إلى ارتفاع نسبة التسرب المدرسي التي دقت ناقوس الخطر هي الأخرى كظاهرة ليست بجديدة على المجتمع الجزائري، وكل هذا يجعل من الطفل يفقد طابعه الطفو لي وذلك بسبب عدم عيشه لمرحلة الطفولة كما يجب، وكذا تعرضه للعديد من الأخطار المهنية الجسمية والصحية، وانخراطه أيضا في العديد من الممارسات الغير لائقة به في الشارع وكذا في مكان العمل، وبهذا يصبح الطفل ضحية المجتمع.

1 – مفهوم عمالة الأطفال:

قبل أن نعطي مفهوم لعمالة الأطفال يجب أن نشير أولا إلى معنى مصطلح الطفل وعليه فهو يشمل الفرد الذي ينتمي إلى فئة سن الولادة حتى فئة سن النضج الجنسي، مرورا بكل فترات هذه المرحلة من مرحلة المهد ومرحلة الطفولة سواء المبكرة والمتأخرة ، من مرحلة المراهقة حتى سن الرشد وهذه الأخيرة التي تستدعي نضجا جنسيا ونفسيا واجتماعيا(2).

كما جاء في الموسوعة العربية و العالمية أن الطفل شخص يتراوح عمره بين 18شهر و13 سنة(3) ، وتعتبر الطفولة في نظر علم علماء الاجتماع أنها المدة التي يعتمد عليها الفرد، على والديه حتى النضج ،سواء كانت مدة الطفولة حتى النضج الفسيولوجي أو النضج الاقتصادي فواجب الأسرة و الدولة رعايته جسميا وعقليا ونفسيا واجتماعيا وخلقيا، وروحيا ليس في ذالك تفضيلا أو إحسانا من الأسرة أو الدولة (4).

كما نشير أيضا إلى مفهوم العمل والذي هو" النشاط الموجه لتحويل القوى الطبيعية والبسيطة من أجل تلبية حاجات الإنسان"(5)

كما يعرفه كارل ماركس على" أنه مجموعة من أفعال يقوم بها الإنسان قصد تحقيق هدف وذلك بمساعدة فكره ويديه وأدواته وآلاته التي تؤثر بدورها على الإنسان"(6).

وعليه من خلال هذه التعاريف فإن العمل هو كل الجهود التي يبذلها الفرد وناتجة عن إرادته يهدف من ورائها إلى تحقيق مطالب مادية ومعنوية.

من خلال كل هذا نأتي للقول أن عمالة الأطفال هم الأطفال الذين يعملون بموافقة أسرهم وبالاتفاق مع صاحب العمل سواء كان في ورشة أو محل أو مصنع أو دكان والسبب في عملهم هو تحسين دخل الأسرة"(7).

وهي "الأطفال الذين يبدؤون العمل في سن مبكرة وبأعمال لا تتناسب مع أعمارهم ولا قدراتهم الجسدية والعقلية، وانتهاك أبسط حقوقهم المتعلقة بالعلم والنماء والراحة، نتيجة ظروفهم الاقتصادية الصعبة التي أجبرتهم على العمل لقاء أجور يومية أو أسبوعية (8)".

و يمكن القول أن "عمالة الأطفال تشمل فئة من الأطفال الذين يعملون في الشوارع ولديهم القليل أو الكثير من الارتباط مع أسرهم ويعودون ليلا إلى منازلهم عند نهاية عملهم اليومي"(9).

و عليه فعاملة الأطفال هي ذلك العمل الذي يهدد سلامة الطفل وصحته ورفاهيته وذلك العمل الذي يستغل فيه الطفل ولا يساهم في تنميته ويعيق تعليمه ويغير حياته ومستقبله.

2 – الخلفية التاريخية لعمل الأطفال:

قد يكون من المفارقات اللافتة للنظر أن قضية عمل الأطفال التي احتلت موقع الصدارة في اهتمامات الفكر الإنساني، السياسي، الاقتصادي، الاجتماعي، والقانوني، منذ مطلع القرن التاسع عشر، ولا تزال تحتل المكانة ذاتها من اهتمامات هذا الفكر مع إطلالة القرن الحادي والعشرين.

وفي مراجعة تاريخية لعمل الأطفال كظاهرة وقضية، نجد أن التاريخ يؤكد لنا حقيقة ارتباطها بالثورة الصناعية، حيث كانت بريطانيا مهد هذه الثورة، "فقد شهدت عمل الأطفال بكثافة غير معهودة في قطاعي صناعة النسيج والمناجم، ليبدأ بعد ذلك معدل مشاركة الأطفال في المجموعة العمرية (10–14) عاما بالتناقص ليسجل 30% في العام 1851م، ثم ينخفض إلى نسبة 17% في العام 1901م، بعد أن تم توفير التعليم المجاني في البلاد في العام 1870م، وفي الولايات المتحدة الأمريكية بلغت نسبة مشاركة الأطفال 17% في العام1900م، حيث أشار أول تعداد في هذا الشأن أجري في فرنسا أن معدل مشاركة الأطفال في قوة العمل بلغ 20% في العام 1896م"(10).

ويرجع ارتباط عمل الأطفال بالثورة الصناعية إلى عامل موضوعي، ذلك لأن هذه الثورة أدت إلى حلول الآلة محل الأداة، مما نتج عنه تراجع الاعتماد على القوة العضلية للعامل، وهذا ما يسمح باستخدام فئات جديدة من قوة العمل متمثلة في فئتي النساء والأطفال اللتين لم تكن قوتها البدنية تسمح باستخدامها على نحو واسع في الأعمال التي تحتاج جهد بدني كبير لأدائها قبل اختراع الآلات، ويتحول العمال من هاتين الفئتين إلى سوق العمل، "فقد عرفت بريطانيا ظاهرة استخدام أسرة العمال بكامل أفرادها في خدمة صاحب العمل، وبرزت معها مساوئ هذا الاستخدام وصور شتى للاستغلال الذي مارسه أصحاب العمل على الأطفال، وكما كانت بريطانيا البيئة الأولى التي عرفت ظاهرة عمالة الأطفال، وهي السباقة إلى تدخل حكومتها للحد من الآثار السلبية لهذه الظاهرة، مستخدمة التشريع أداة لتحقيق هذا الغرض فأصدرت في عام 1802 قانونا لحماية العاملين يشار إليه تاريخيا على أنه يمثل أولى القواعد القانونية لتدخل الدولة لتنظيم علاقات العمل وإليه يرجع الباحثون تاريخ ميلاد قانون العمل، كفرع جديد من فروع القانون إلا أن هذا القانون لم ينل نجاحا يذكر في التطبيق، ثم أعقبت الحكومة البريطانية ذلك القانون بخطوة أكثر نجاحا تمثلت بإصدار لقانون في عام 1833 عرف باسم قانون المصنع the factory act وقد تضمن ذلك القانون الذي كان يطبق على مصانع النسيج، العديد من الأحكام التي أرادو من خلالها حماية الأطفال العاملين منها تحريم العمل الليلي على من يقل سنه عن 18سنة"(11).

كما تم منع تشغيل الأطفال الذين تقل أعمارهم عن 13 سنة أكثر من تسعة ساعات في اليوم، وتحديد عمل الأطفال بين الساعة الخامسة والنصف صباحا والثامنة والنصف ليلا، وتخصيص ساعتين من يوم العمل لتعليم الأطفال القراءة والكتابة وتلقي الدروس الدينية في مدارس تنشأ لهذا الغرض.

وتلت بريطانيا فرنسا في إصدار قانون لحماية الأطفال كان قد طبق على المصانع التي تستخدم أكثر من عشرون عاملا، وكانت أهم أحكامه هي تلك التي" قضت بخطر استخدام الأطفال الذين تقل أعمارهم ثماني سنوات، ومنعت تشغيل الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 8-12 سنة أكثر من ثماني ساعات وقضت أيضا على تشغيلهم في العمل الليلي أو في الأعياد والعطل"(12).

و عليه فقد أصبح مشكل عمالة الأطفال اهتمام دولي وخرج عن نطاق بريطانيا وفرنسا، فكان عمل الأطفال على رأس القضايا التي ناقشها أول مؤتمر دولي بحث عن إمكانية وضع مستويات دولية لتنظيم علاقات العمل وهو "مؤتمر برلين الذي انعقد في عام 1890م، حيث قرر فيه أن الأطفال الذين تقل أعمارهم عن 12 سنة يجب ألا يسمح لهم بالعمل، كما لا يجوز السماح للأطفال الذين تزيد أعمارهم على ذلك بالعمل ليلا، أو أكثر من 6 ساعات في اليوم، كما قرر المؤتمر حظر تشغيل الأطفال الذين تقل أعمارهم عن أربعة سنوات في المناجم"(13).

أما على المستوى العربي فقد أصدرت منظمة العمل العربية مجموعة من المواد بشأن استخدام وتشغيل الأطفال وهي كما يلي:

- مادة رقم 02: يحدد تشريع كل دولة الأعمال التي يجوز تشغيل الأطفال فيها من الجنسين قبل بلوغهم سن 12 سنة، ولا يجوز تشغيل الأطفال في الأعمال الصناعية قبل سن الخامسة عشرة.

- مادة رقم 09: لا يجوز أن تزيد ساعات العمل اليومي للأطفال الذين تقل أعمارهم عن 10 سنوات 6 ساعات، تتخللها فترة للراحة لا تقل مدتها عن ساعة بحيث لا يعمل الطفل أكثر من أربعة ساعات متوالية.

- مادة رقم 58: لا يجوز تشغيل الأطفال قبل السابعة عشرة سنة في الصناعات الخطيرة أو الضارة بالصحة التي تحددها التشريعات أو القرارات أو اللوائح الخاصة بكل دولة.(14)

إلى ذلك من المواد والاتفاقيات التي تم إبرامها حول كل ما يتعلق بعمل الأطفال.

3 – واقع عمالة الأطفال في الجزائر:

يعتبر العمل فضلا على أنه المؤمن الوحيد لتلبية الفرد احتياجاته خاصة واحتياجات أسرته عامة، عنصر أساسي للإنتاج وعاملا رئيسيا للتقدم والازدهار، غير أنه مع بداية الثمانينات بدأ يعرف سوق العمل في الجزائر عجز في توفير مناصب الشغل، وازداد تفاقم الوضع مع العشرية الأخيرة خاصة بعد تطبيق برنامج إعادة الهيكلة للمؤسسات العمومية وما نتج عنه من تسريح للعمال (أرباب الأسر) وهذا ما أدى إلى ارتفاع معدل البطالة، وفي ظل غياب مصدر الدخل يتدنى المستوى الاقتصادي خاصة والمستوى الاجتماعي عامة، وأمام هذا الوضع تلجأ معظم الأسر إلى الاستعانة بأطفالها كيد عاملة إضافية ومصدر أخر للرزق، فالبطالة تؤثر على حياة الأفراد واستقرارهم وتظهر عليهم التأثيرات السلبية على سلوكياتهم واتجاهاتهم، فانخفاض الدخل أو انعدامه من شأنه أن يعوق إشباع حاجيات أطفاله، إذ يلجأ بعض الأطفال إلى العمل باعتباره " أنه كل نشاط يقدم موردا معينا للفرد الذي يقوم به"(15)، لإشباع حاجياته من جهة وتلبية حاجيات أسرته من جهة أخرى محاولة منهم الخروج من بؤرة الأزمة التي عصفت بالأسرة نتيجة محدودية الدخل.

4 – العوامل والدوافع المؤدية بالطفل للخروج إلى العمل في المجتمع الجزائري:

هناك عدة عوامل تدفع بالطفل إلى الدخول لسوق العمل في سن مبكرة وهي كالأتي:

1- العوامل (الدوافع)الاقتصادية:

يعكس الواقع الاقتصادي للطفل الوضعية الاقتصادية للأسرة خاصة بعد سلسلة التغيرات التي عرفتها الأسرة الجزائرية على غرار المجتمع بأسره والذي شملت مختلف جوانب الحياة وكانت أكثر هذه التغيرات سرعة وتأثير قد مست المجال الاقتصادي من حيث تبني سياسة الانفتاح الاقتصادي والخضوع للعولمة، إضافة إلى تقلبات أسعار البترول وسياسة إعادة الهيكلة وفتح المجال أمام الاستثمار الخاص الذي لا يراعي مصلحة الأفراد والتنمية إنما الربح السريع، أين تأثرت الأسعار بصفة عامة وعلى الوجه الخاص أسعار المواد الاستهلاكية بعد تخلي الدولة عن دعمها لها مما أدى إلى انخفاض القدرة الشرائية للأسر أو بالأحرى ضعف القدرة الشرائية للأسر مما يؤدي إلى عدم توفير معظم الاحتياجات إضافة إلى الفقر.

وعليه فإن العوامل الاقتصادية بالرغم من أنها شملت على الجانب المادي لارتباطها بالجانب الاقتصادي إلا أنها تحتوي ضمنيا على البعد الاجتماعي فيتفاعل الطفل في وسط اجتماعي يقدم له الرعاية والتغذية لينمو متكيفا مع هذا الوسط بحيث ساعدت عدة عوامل في تحقيق ذلك منها: دخل الأسرة ، مهنة الأب، البطالة، الفقر وإذا لم تتوفر هذه المعطيات فإنها تؤثر بالسلب على الطفل ومما تدفعه إلى الخروج للعمل في سن مبكرة.

1-1- دخل الأسرة:

تعتمد كل الأسرة على وجود دخل مادي يساعد على تلبية جميع متطلبات الأفراد الضرورية من أكل ومسكن وعلاج وما يرتبط بانخفاض الوجود الجسمي ورعايته كذالك من واجبها تلبية تعليم أبنائها والإنفاق عليهم فدخل الأسرة يتأثر بطبيعة عمل الأب وبعدد أفرادها وكذالك مرتبط بتعدد إسهاماتهم بعملهم في زيادة دخل الأسرة، أما انخفاض دخل الأسرة وضعف المستوى المعيشي لها يؤثر بشكل سلبي على حياة الأطفال وهذه الوضعية تؤدي بهم إلى الخروج للعمل في سن مبكرة والعمل في مختلف الميادين بأجر زهيد جدا.

1-2- مهنة الأب:

ترتبط مهنة الأب بالدخل ارتباطا وثيقا، كما أن عملية النمو بالنسبة للطفل في تفاعله مع محيط الأسرة يستوجب أن يدمج كل الأدوار والقيم فحضور الأب في حياة الطفل بالإضافة إلى الجانب العاطفي هو حضور الدور والوظيفة (المهنة) بغض النظر عن

قيمتها الحقيقية كذالك ارتباط مهنة الأب بالقيم والمعايير الاجتماعية وما توفره من شعور بالحماية ، هذا الشعور ينعكس على الأب والأسرة بأكملها فإذا كانت مهنة الأب لا تشعر بالرضا شخصيا فإن هذا الشعور ينتقل إلى باقي أفراد الأسرة خاصة الطفل.

1-3- البطالة:

يشير مفهوم البطالة إلى الحالة التي يكون فيها الفرد قادرا على العمل وراغبا فيه لكنه لا يجد العمل والأجر المناسبين تصنف على أساس الأسباب والطبيعة التكوينية، وتحدث البطالة عند انخفاض العرض في سوق العمل أثناء الركود الاقتصادي.

وكان سبب دخول كثير من الأطفال كقوة عاملة مبدئيا البطالة التي يعاني منها أحد الوالدين،أين أصبح الأطفال عمالا من أجل تفادي الوصول للفقر المتقع، وعليه فإن الحاجة إلى تشغيل الأطفال لا تزال واقعا ملموسا، فالبطالة إذن من شأنها أن تعجز الإنسان عن إشباع احتياجاته واحتياجات أسرته، هذا العجز يمس كل أفراد الأسرة من بينهم الأطفال الذين يحاولون التعبير عن رفضهم للوضع المعيشي بخروجهم إلى العمل، محاولين من خلاله تلبية احتياجاتهم ومساعدة أهلهم.

1-4- الفقر:

يعتبر الفقر من الدوافع الأساسية التي تدفع بالطفل إلى امتهان مختلف الأعمال مقابل أجر مالي معين فنجد في العالم المتخلف والمجتمع الجزائري أن الأسر الفقيرة هي الأسر الكثيرة الأفراد أين يشكل الأطفال لاسيما الذكور منهم يد عاملة لا ياستهان بها، ويساهمون في تحسين ظروف الأسرة ، فنجد الطفل يعاني من التهميش داخل المحيط الأسري وهذا بسبب الضغوطات الاقتصادية التي تتعرض لها وبالتالي تكون عاجزة على تلبية حاجات الطفل الأساسية وكذا الثانوية وهذا ما يولد لديه حب الانخراط في ميدان العمل وهو لم يشبع اللعب مع أصدقائه في الحي أو المدرسة التي يكون قد تسرب منها لنفس السبب.

2- العوامل (الدوافع) الاجتماعية:

يلعب الواقع الاجتماعي الأسري دورا هاما من حيث تأثيره على دخول الطفل سوق العمل فباعتبار الأسرة هي الجماعة المرجعية للطفل والتي "يكتسب منها العادات والتقاليد والاتجاهات والقيم وغيرها ...فهي تعمل على إشباع حاجاته ومطالب نموه البيولوجية والنفسية والاجتماعية "(16)

وبهذا أي تغيير يطرأ على الأسرة إلا ويبدو أثره على الطفل كونه فرد حساس داخلها، وعليه نشير إلى أهم الدوافع الاجتماعية التي تأثر بها الطفل لما فكر فعلا في العمل وهو في سن مبكرة نذكرها مختصرة فيما يلي:

2-1- الطلاق ووفاة أحد الوالدين:

الطلاق هو فك عقد الزواج ويتم إما بإرادة الزوج أو بطلب من الزوجة فيسمى الخلع ومن نتائجه الوخيمة التفكك الأسري وتشتت الأفراد، وبذلك يحرم الأطفال من حنان الأم ورعاية ورقابة الأب، مما ينتج عنه انفلات الطفل من الضوابط الأسرية والأخلاقية وخروجه عن القيم والضوابط التربوية ، أين يمكن أن يتشرد ويعمل في مجالات ممنوعة أو خطيرة مقابل رغيف خبز، بالإضافة إلى ما تتعرض له الأم وأولادها معها من حاجة مادية قد تدفع بالأطفال إلى خروجهم كذالك للعمل من أجل مساعدة والدتهم.

كما نجد في حالة موت أحد الوالدين سوف تجبر ظروف الحياة السيئة الأطفال على العمل بدلا من أمهاتهم وهذا تحفظا للوالدة من خروجها هي للعمل، وعليه ترتفع نسبة تشغيل الأطفال في مثل هذه الحالات، " فقد أظهرت الدراسات أن أكثر الأسر عوزا وحاجة هي أسر الأطفال الذين يفقدون الوالد ويعيشون في كنف أمهاتهم وفي هذه الأسر تستمر الأم في أداء دورها التقليدي في رعاية الأبناء وتدفع بالطفل للعمل ويصبح دخله المصدر الرئيسي لهذه الأسر باعتباره أن العائل الوحيد لهم مفقود"(17)

2-2 السكن وعدد أفراد الأسرة:

يرتبط السكن بالمستوى الاقتصادي والاجتماعي للأسرة ارتباطا وثيقا وذلك "أبعاد شخصية الطفل تمثل في جانب كبير منها استجابات تراكمية للبيئة النفسية الاجتماعية التي ينشأ فيها "(18)، فالسكن لا يساهم في نمو الطفل باعتباره عامل اقتصادي فحسب بل باعتباره بيئة سكنية ولكونه هيكل مؤسسة اجتماعية خاصة حيث يتأثر الطفل بالسكن وما يحتويه من وسائل الرفاهية والراحة والغذاء وتتوفر فيه أغلب متطلبات الحياة المادية منها، وأين تنعدم فيه شروط الحياة تدفع بالطفل للهروب منه ودخوله سوق العمل.

كما أن كثرة أفراد الأسرة تؤثر على اهتمامات الآباء وعلى أسلوب التعامل معهم وتربيتهم، باعتبار أن الفوارق الفردية بين الأطفال تطرح نفسها للتعامل مع كل طفل مما يتعذر عليهم الاستجابة لهم بنفس الطريقة، وفي الوقت المناسب كلما ازداد عددهم وتقارب الفترات الفاصلة بين ولادتهم وانعكاس الظروف المادية في تلبية حاجياتهم مما يولد نوع من الضغط على الطفل واستحالة كفاية الدخل مما يدفع بالطفل للخروج للعمل خاصة إذا لم يجد مصروف يومي يلبي رغباته أو حاجاته.

5 – مجالات عمالة الأطفال في المجتمع الجزائر:

تتعدد مجالات عمالة الأطفال في كل مجتمعات العالم لاسيما المجتمع الجزائري فنجد الزراعة والصناعة وكذا قطاع التجارة الغير رسمية، وعليه يشمل استغلال الأطفال في الأعمال الزراعية قيامهم بأعمال زراعية لا تتناسب مع أعمارهم وفي ظروف صعبة، وأجر زهير قد لا يكفي لسد حاجات الطفل اليومية ، وهذا النوع من الأعمال تعتبر موسمية وليست دائمة.

كما نجد أعمال قد يمتهنها الطفل في مجال لع علاقة بالصناعة كالحدادة وكذا لدى الميكانيكي وبالنسبة للأجر فهو مثلما ذكرنا سابقا فهو زهيد جدا ولا يكفي لتكاليف الحياة الغالية وتكثر مثل هذه الأعمال في المدن، دون أن ننسى انخراط الأطفال في مهن حرة كالتجارة الموازية على أرصفة الطرقات من ملابس وتبغ وكبريت وكذا الخبز الذي تصنعه الأمهات في المنازل مما يعرض الطفل لمختلف الأخطار من حوادث مرور وتعرضه للسرقة وحتى الاختطاف لان هذا النوع من الأعمال تنتشر بقوة في المدة أين تكثر الأسواق الموازية مع زحمة الأرصفة بالسكان .

خاتمة:

عمل الطفل لا يعتبر مشكلة داخل الأسرة فحسب وإنما تشمل المحيط الاجتماعي و الذي ينتمون إليه، فهو المحرك لتنمية مستقبل المجتمع، وإذا تعرض هذا العنصر لأي أزمة قد تؤدي إلى خلل في المجتمع ومن بين الأزمات التي قد تعيق حياته الطبيعية وتحرمه من عيشه كل مراحل الطفولة، العمل في سن مبكرة، وهذا نظرا للظروف التي تجتاح المجتمع عامة والأسرة خاصة، ومما سبق فالعوامل التي تؤدي إلى تفاقم هذه الظاهرة هو تدني المستوى الاقتصادي بصفة عامة للأسرة فهذا يدفع فعلا بالطفل للاشتغال من أجل مساعدة المنزل وبالذات بدعم الميزانية الأسرية.

دون أن ننسى الظروف الاجتماعية السيئة التي تعاني منها أيضا الأسر من البطالة والطلاق وكذا وفلت الوالدين والتيمن شأنها أن تدفع بالطفل إلى الخروج للشارع للبحث عن أي عمل قد يتقاضى مقابله أجر زهيد مما قد يعرضه إلى أسوء الأخطار والأمراض الصحية والنفسية وحتى الاجتماعية فنجد الطفل ضحية حوادث المرور والاغتصاب والاختطاف وكذا القتل والإدمان على المخدرات فأين الحكومات والسلطات من كل هذا؟

– اقتراحات:

– وضع الدولة لمراسيم وقوانين منع العمل في سن دون الخامسة عشرة.

– مراقبة الأولياء لابناءهم وحثهم على الاهتمام فقط بالدراسة وتوعيتهم بعدم الانخراط في العمل في سن مبكرة.

– الاهتمام بالجانب النفسي والصحي للأطفال داخل الأسرة .

– حماية الطفل باعتباره غصن المستقبل للبلاد تنمية المجتمع.

– حماية الطفل من أمراض الشارع لاسيما الاجتماعية منها.

–حماية الطفل العامل وذلك بالتامين على حياته إذا كانت الظروف هي التي أرغمته على العمل.

– الهوامش:

(1) سميرة عبد الحسين كاظم، عمالة الأطفال في العراق، الأسباب والحلول، مجلة البحوث التربوية والنفسية، العدد 30،جامعة بغداد،العراق، ص 151.

(2) جميل صليب، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1973، ص 552.

(3) الموسوعة العربية العالمية، موسوعة الأعمال للتوزيع والنشر، ط2، 1999، ص 606.

(4) خيري خليل ألجميلي، الاتجاهات المعاصرة في دراسة الأسرة والطفولة، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1993، ص 20.

(5) عبد الباسط مُحَّد حسن، علم الاجتماع الصناعي، مكتبة لأنجلو مصرية، القاهرة، 1972،ص213.

(6) عبد الفتاح مراد، موسوعة البحث العلمي وإعداد الرسائل والأبحاث والمؤلفات، الإسكندرية، دون سنة، ص 40.

(7) موسى أحمد مُحَّد، أطفال الشوارع المشكلة وطرق العلاج، المكتبة العصرية للنشر والتوزيع، المنصورة مصر، ط1، 2009، ص 12.

(8) سميرة عبد الحسين كاظم، نفس المرجع السابق، ص 154.

(9) فهمي سيد، أطفال الشوارع الأسباب والدوافع، رؤية واقعية مجلة الطفولة والتنمية، العدد1، 2001، ص 43.

(10) سميرة عبد الحسين كاظم، نفس المرجع السابق ، ص 162.

(11) سميرة عبد الحسين كاظم، نفس المرجع السابق، ص 162.

(12) سميرة عبد الحسين كاظم، نفس المرجع السابق، ص 163.

(13) سميرة عبد الحسين كاظم، نفس المرجع السابق، ص 164.

(14)عبد الرحمان مُحَّد ألعسيري، تشغيل الأطفال والانحراف، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، ط1، 2005، ص 23، ص 24.

(15)Bourdieu pierre, travail et travailleurs en Algérie, paris Ed minuit, 1962, p46

(16) همشري عمر أحمد، التنشئة الاجتماعية للطفل، دار صفاء للنشر،عمان ، 2002، ص 39.

(17) مُحَّد عبد الفتاح مُحَّد، الاتجاهات التنموية في ممارسة الخدمة الاجتماعية، المكتب الاجتماعي الحديث، الإسكندرية، مصر، 2000، ص 308.

المؤتمر الدولي العلمي السادس للمركز الأوروبي للبحوث والاستشارات

في العلوم الإنسانية والاجتماعية تحت شعار " المستقبل بعين الحاضر والماضي"

تركيا – اسطنبول

جامعة مرمرة – كلية الإلهيات

3 - 4 / 5 / 2018

الاستعارة وتحولات النسق الثقافي

إعداد:

ا.م.د/ عبدالقادر جبار طه

ا.م.د/ احلام احمد جمعة

جامعة بغداد – العراق

Email: dr_ahlam_ahmed@yahoo.com

Ref: 6/2018/108

ISBN 978-1-9996437-3-7

الملخص

تتجه العلاقة بين الاستعارة والمعنى الى التعارض والتناقض وترفض التوافق والانسجام لأن المعنى نتاج التحديد والحصر في حين أن الاستعارة نتاج الانفتاح والتعدد، وأن العلاقة بين المخيلة والمعنى أقل ارتباطاً من علاقة الاستعارة بالمخيلة، وفي هذه الجدلية ومستويات الارتباط هما العنصران المسؤولان عن دينامية استمرار النص الديني في تأثيره في التلقي وانسجامه مع العصور المختلفة كما يعدان مسؤولان عن استمرارية انتاج الشعر والدهشة في تلقيه في الوقت نفسه .

المقدمة

ترتفع الاستعارة بالبناء الثقافي الذي يسود المجتمع، لانها تعمل على انتاج أنساق ترتقي باللغة اليومية الى مستويات اللغة الثانية كما يسميها جان كوهين، ويعود السبب في قدرة الاستعارة على الارتفاع بالنسق الى قدرتها على منح تصوراتنا فاعلية أكبر من تلك الفعالية التي تمنحها اللغة اليومية (الاستهلاكية)، فالعلاقات غير المفَسَّرة والترابطات التي تتجاوز الألفة والتعليل في الواقع تفتح آفاقاً جديدة للذهن تجعله قابلاً للتجريد والتأمل والتصور، لذلك فإن المعنى الاستعاري هو المعنى القابل للتأويل المتجدد، وهذه المسألة تعد الأساس في بناء الشعرية ولغتها الخاصة مثلما هي الأساس في معاينة وتأويل النصوص الدينية ، ولكي نربط بين عنصري اللغة العليا (النص الشعري ، والنص الديني) سنحاول الوقوف على جدل العلاقة بين المعنى (القصد) وبنية الاستعارة.

جدل الاستعارة والمعنى

اتفق معظم المفكرين والنقاد على أن جوهر الشعر يكمن في الاستعارة، وحين قمنا بمراجعة جزء من ديوان الشعر العربي الجاهلي منذ مرحلة امرىء القيس وحتى بداية العصر الاسلامي وجدنا أن أكثر الابيات الشعرية تأثيراً في التلقي تعتمد على الاستعارة وتعدد المعنى، وجاءت هذه النتيجة في ضوء احصاء أجراه الباحثان على طلبة الدراسة الأولية لقسم اللغة العربية في كلية الآداب في جامعة بغداد، إذ تم اختيار العينة استناداً الى خاصية الوعي الشعري لطلبة ذلك القسم ، وكانت من نتائج هذا الاستطلاع أن الابيات التي تناولها النقاد العرب القدماء والمحدثون في الشعر الجاهلي ووجدوا فيها تفرداً في اسلوبها وتعبيرها كانت مستندة الى الاستعارة في بنيتها ولذلك امتازت من غيرها باحداث اثر خاصً عند الذين شملهم الاستطلاع، الامر الذي يشير الى ان الذائقة التاريخية في الاستقبال الجمالي للشعر لم تتغير كثيراً منذ العصر الجاهلي وحتى عصرنا الحديث، لان الشعر حافظ على سمة تفرد لغته بالنسبة للفنون الادبية الاخرى ، وهذه الخصوصية هي التي منحته الجمال . وإذا ما حاولنا تحليل جماليات الشعر العربي نجد أن هذه الجماليات تنتج من جدل خاص داخل اللغة قوامه صراع الاستعارة والمعنى في مخيلة المتلقي واحساساته وتجربته ، إذ تعمد الاستعارة في النظام اللغوي الذي ينتج الشعر الى نفي المعنى الظاهر وانتاج طبقات داخلية عميقة غير متناهية من المعنى الباطن ، لأنها لاتتحقق من انطباق المحور الرأسي الذي يمثل الحقول الدلالية على المحور الأفقي الذي يمثل السياق المختار أو المنتخب من المحور الرأسي المنتج لأنظمة اللغة اليومية فحسب بل من المخيلة التي تعمد الى انتاج علاقات تعبر عن وحدة الاضداد ، وبذلك تغادر الاستعارة منطقة تحديد المعنى وحصره ، وتنفتح على آفاق واحتمالات تواشج بين الحقول المتعارضة والمتناقضة أحياناً ، وهذا الانفتاح هو الذي يتسبب في انتاج الجدل بين الاستعارة المعنى ، وقد تنبه النقد العربي القديم الى هذا الجدل من دون أن يصفه أو يعلله بشكل علمي ، وقد كانت اللغة المعجزة التي يحملها القرآن الكريم في أساليبه البلاغية وفي سياقاته واحدة من أهم عوامل اندفاع النقاد العرب لاكتشاف مكامن الجمال والانزياح في تلك اللغة ، إذ فرضت السياقات المعجزة على المفسرين محاولة الوصول الى المعنى الدقيق لآياته التي تجاوزت المألوف وحطمت تراتبية النظام اللغوي الاعتيادي من خلال الاستعارة والفنون البلاغية الأخرى ، لذلك تعد هذه البنية من اهم البنيات التي ميزت القرآن الكريم في ذلك التجاوز المعجز وهذه اللغة المعجزة كانت واحدة من أهم عناصر انتقال السياق الثقافي العربي من مرحلة الجاهلية إلى مرحلة الاسلام ، كما كانت من أهم عناصر انفتاح التأويل العربي الاسلامي على آفاق جديدة في دراسات العلماء والنقاد ، وهذه التحولات في السياق الثقافي يمكن تلمسها في السياقات النصية للكتب المقدسة التي سبقت القرآن الكريم ، إذ امتازت بلغة خاصة ايضاً ولكن اشكال الجمال الاستعاري في لغة

القرآن الكريم أنتج خلافاً فقهياً في تفسير الآيات ومعناها ، وقد وصف ابن قتيبة منذ وقت مبكر هذه الاشكالية في كتابه (تأويل مشكل القرآن) قائلاً : " والناس يختلفون في الفقه ويرد بعضهم على بعض في الحلال أنه حرام وفي الحرام أنه حلال وهذا طريق النجاة أو الهلكة "، وعلى هذا الأساس كانت بنية الاستعارة مصدر خلاف في التأويل مثلما كانت دافعة للنقاد والمفكرين وحتى الفلاسفة للبحث في امكاناتها الخاصة في الارتفاع باللغة من المألوفة الى اللغة الخاصة ، وقد وجد النقاد الغربيون ان الاستعارة عبرت عن رؤية الانسان منذ المرحلة البدائية لعلاقاته مع العالم الخارجي وظواهر الطبيعة المختلفة ،كما عبرت هذه البنية عن تصوراته الداخلية المحركة لانتاج العوالم المختلفة الأمر الذي جعلها مؤثرة في انتاج سياقات ثقافية مختلفة ، وعلى هذا الأساس يمكن القول : إن العلاقة الجدلية بين الدين والاستعارة تكمن في التصورات المعبرة عن وقائع غير ملموسة ولا مرئية في الخطاب الديني وبين سياق ثقافي محسوس مرئي واقعي، فمفهوم الدين ينطوي على تلك التصورات التي تقع خارج الواقع المادي المحسوس والملموس بصفتها وقائع قابلة للتحقق ، وعلى هذا الأساس عرف بعض العلماء والمفكرين الدين على أنه : " جميع التصورات التي يعتبرها الانسان حقيقية مرتبطة بواقع محسوس وغير قابل للتحديد ، وكل السلوكات التي تفترض مثل هذه التصورات" ، وعلى أساس هذا الموقف يمكن تفسير المستويات التي درس فيها العالم اللغوي نورثروب فراي لغة الكتاب المقدس والملاحم الشعرية القديمة والأطوار التي مرت بها ، إذ وجد أن بنية الاستعارة كانت منطلقاً أساسياً للتشكلات الأولى الرابطة بين التجريد والتصور من جهة والواقع من جهة أخرى ، لذلك اطلق على تلك المرحلة (الغيبية) في لغة الانسان بالطور الاستعاري، وذلك بقوله : " في الطور الاستعاري للغة .حيث لم يوجد سوى حس ضئيل بالاستنتاج الاستنباطي أو التجريد، فإن أغلب البنى اللفظية تتخذ شكل قصة ، وفي القصة تكون القوة الدافعة هي الرابطة بين الشخصيات والاحداث ، وغالباً ما تكون أفعال الالهة " ، وبهذا العرض أحال فراي الملاحم الشعرية الانسانية والنصوص الدينية ، مثل (الكتاب المقدس ،الأليادة ، الادويسة ، جلجامش، الرامايانا وغيرها) الى بنية الاستعارة لأن هذه البنية هي الأكثر ملاءمة وقدرة على انتاج انساق يستطيع فيها المتَخيَّل (الخرافي أو الاسطوري) الاندماج بالواقعي الطبيعي من دون تحديدات النظام اللغوي ، ويمكن تعليل ذلك الاندماج على أساس موقفين متعارضين ، الأول : المنعكس الجمالي الذي يشبع البحث عن جوهر العالم بشكل مؤقت ، أمّا الآخر فيكمن في قصور العمليات العقلية في التصور والتجريد والاستنتاج والتحليل والتعليل في تلك المرحلة من تاريخ البشرية ، وقصور تجربة الانسان في اكتشاف العلاقات الكامنة في جوهر الظواهر المحيطة ودوافعها ، لذلك ابتكر او تصور العوالم التي تقع خارج عالمه المرئي المحسوس وجعلها مندمجة بالواقع ، وقد استند في ذلك الى بنية الاستعارة من أجل احداث التواشج بين التصوروالتجريد العقلي والعالم المعاش ، لكن هذا القصور

الفكري على الرغم من تعبيراته عن العقل البكر ، استطاع فيما بعد أن يخط ما يمكن تسمية بانفتاح المعنى في النصوص وخاصة في نصوص الكتاب المقدس، إذ مثلت تلك النصوص علاقة المتخيل بالمرئي في قصص الأنبياء، وكان ذلك الاندماج بين المتخيل والواقعي يمثل مرحلة مهمة في سلسلة تطور البشرية باتجاه التوحيد والوحدة بين المتعارضات الوجودية ، وهذا الأمر أسهم فيما بعد في انتاج نسق ثقافي يمتلك قابلية دمج العقل بالروح وقابلية تصور فعل الآله وكيفية خلق الكون، وكان هذا الانتاج مدعماً بعلاقة روحية مع الاله الواحد من خلال انبيائه وكتبهم ، إذ عرضت الكتب المقدسة ما حققه الأنبياء عليهم السلام من خوارق لاتقع ضمن امكانات البشر التقليديين، وعلى هذا الاساس كان الموقف من علاقة أبي الانبياء (ابراهيم) في تلقيه أوامر الله سبحانه وتعالى وتنفيذها قابلة للفهم بوصف تلك الأوامر صادرة عن ارادة قوة مطلقة تدير الكون وشؤونه ، وهذه الاوامر لم يكن للبشر العاديين امكانات في تلقيها وتنفيذها وذلك لأسباب مختلفة ، منها : إن الخروج إلى بلاد غريبة كلياً وبعدد قليل من الرجال وعتاد ضئيل كان مغامرة محفوفة بالمخاطر وحين افتتح سفر التكوين في الكتاب المقدس كلامه عن تاريخ ابراهيم بالقول : " وقال الرب لأبرام، إذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك الى الأرض التي أريك " ، (أي بأمر المغادرة) ، فإن هذه المغادرة تعني بالضرورة عملية تحول كبير في طريق التوحيد لأن عملية المغادرة كانت تعني الخروج من نسق ثقافي يحكم المنطقة التي كان فيها ابراهيم الى نسق ثقافي آخر يلتقي فيه موقف الناس مع موقف ابراهيم من ربه ، وكان النسق الثقافي الذي يعيش فيه ابراهيم يعتقد بتعدد آلآلهة ، وعلى هذا الأساس انبنت عبادة السومريين ، كما أن إله ابراهيم لم يكن الهاً محلياً لا في اور ولا في اي مكان اخر، من هنا كان ذلك الأمر يمثل واحداً من أهم عملية تحول في التصور الأنساني بعد أن نقل الصورة من الجزئي الى الكلي في تنظيم العلاقة بين الانسان وخالقه وتفسير الظواهر التي يتعامل معها الانسان ، وعلى الرغم من وضوح علاقات السياق في هذا السفر إلاّ أن المفارق عن المعتاد تلقى ابراهيم الأوامر من الله ، وهذهِ المفارقة انتجت نسقاً ثقافياً قوامه أن العلاقة المباشرة مع الله علاقة مخصوصة وظيفتها الاعمام في نشر المبادئ والقيم التي يريدها الخالق، وبهذا استعار الكتاب المقدس واختزل الموقف الاسطوري الملحمي المعبر عن القوى المهيمنة الكلية المطلقة الموزعة على آلهة مختلفين في إله واحد يمثل القوى كلها التي كانت تهيمن على حركة الكون ، وكان هذا النفي للتعدد بداية لمركزية العقل البشري نحو عالم كلي يسيطر عليه إله واحد وانتاج نسق ثقافي جديد، ويذهب المفكر الغربي رينهارت لاوت في هذا الصدد الى القول : " نجد في خبر سفر التكوين ، بالأحرى في كتاب يهوديت ثلاثة اوصاف قريبة لأله ابراهيم :اله السماء .الله الاسمى، الله كليّ القدرة، ولا نجد أي ذكر لاسم يهوه " ويعلل لأوت هذا المتغير باتجاه وحدة القدرة الكلية إلاّ أن هذا الموقف كتب في وقت متأخر يختلف عن المرحلة كتب فيها (يهوه) وبهذا وحد

الكتاب المقدس أثر البابليين في ايمانهم بتعدد الآلهة ، إذ أسس البابليون قبل ظهور الكتاب المقدس نسقاً ثقافياً يحيل كل قدرة من القدرات غير المعروفة والمفسّرة إلى إله من الآلهة، ولكن هذا التعدد في القدرة انتج مجموعة من الطقوس والشعائر الدينية التي تبنى على الاستعارة، ومنها الصلاة والدعاء ، ففي نقش بابلي قديم مثلاً حفظت صلاة للتضحية جاء فيها : " يقدم الكاهن الحمل من أجل انسان ليكون بديلاً عن حياته " ويمكن تحليل هذا النص على ان قيمة الأنسان الاعتبارية وسيطرته على المملكة الحيوانية قد جعلته يتصرف بالمخلوقات الارضية الاخرى من أجل إرضاء القوى المطلقة السماوية ، ولهذا نجد أن رينهارت يذهب الى أن هذا النص يعبر عن أن (الحيوان) الضحية قد فهم على أنه (تعويض) وهو كما نرى يقابل هيمنة الآلهة على الانسان ومملكته في تصور البشر في تلك المرحلة من التطور الانساني واستعارة هيمنة الانسان لرسم هيمنة الآلهة .بعد الطور الاسطوري البابلي والطور التوراتي، يأتي الطور الانجيلي، وهو تعزيز آخر للرؤيا النبوية في العهد القديم ، وقد انتج هذا الكتاب مستويين من اللغة ، الأول مستوى اللحظة الحاضرة في معجزات السيد المسيح ، والثاني نتائج الايمان بما حمله للبشرية ، ويرى نوثروب فراي أن التعبير عن هذين المستويين كان لابد له أن يتضمن استعارات ثانوية خاصة فيما يتعلق بعلاقة اللحظة الحاضرة في معجزات المسيح(بوصفها) علاقة أرضية مرئية محسوسة ،والمستوى الفوقي (السماوي) الذي يمثل القيم والمبادئ التي يريدها الله ، ونرى أن هذا الطور نقل الى الفكر البشري القدرات المطلقة للإله وجسدها بالانسان ، ليكون الاندماج بين المتخيل والواقعي اندماجاً كلياً يساعد على الايمان بالإله الواحد . بعد هذه المرحلة برزت مرحلة الشعر العربي ، خاصة بعد ايمان جزء من أهل الجزيرة العربية وبعض المناطق الأخرى بما جاء به المسيح (ع)، وتكوين مؤسسات دينية تبشر وتحتضن طقوسه وشعائره، وكان العرب في هذه المرحلة قد عرفوا بنية لغوية ايقاعية متكاملة تختلف عن بنية الكتاب المقدس هي الشعر، ولم يعرف حتى يومنا هذا المرحلة الحقيقية لولادة الشعر العربي، ولكن الجاحظ اعتقد أن بنية الشعر العربي المكتملة ظهرت قبل الاسلام بـ(100الى 200عام)، وذلك بقوله:" وأما الشعر فحديث الميلاد صغير السن، أو من نهج سبيله، وسهل الطريق اليه امرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة " ثم قال" فإذا استضهرنا الشعر وجدنا له – الى أن جاء الله بالاسلام –خمسين ومائة عام، واذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام " ، وبعد نزول القرآن الكريم ولغته المعجزة بدأ النقد العربي محاولة تحليل واظهار الجماليات الخاصة بسياقاته وانساقه وبذلك عمد بعض النقاد القدماء الى اظهار الامكانات اللغوية للاستعارة، ففي تحليل الجاحظ لقوله تعالى : (فإذا هي حية تسعى) ، قال : "ولو كانوا لا يسمون انسيابها وانسياحها مشياً وسعياً لكان ذلك مما يجوز على التشبيه والبدل، وان قام الشيء مقام الشيء او مقام صاحبه" ، وبهذا وجد

الجاحظ توافر اركان الاستعارة من دون أن يسميها بشكل مباشر، ولكن النقاد العرب الذين جاؤوا بعد الجاحظ، ومنهم السكاكي والقزويني والجرجاني وجدوا أن الاستعارة مكونة من ثلاثة أركان ، وهذه الاركان يمكن تلخيصها على النحو الأتي :

- المستعار منه ، وهو المشبه به.
- المستعار له ، وهو المشبه.
- المستعار ، وهو الفظ المنقول.

ويسمى الأول والثاني طرفي الاستعارة، وقد حلل السكاكي في ضوء هذه العناصر قوله تعالى : (واشتعل الرأس شيبا) ، بقوله : "يكون المستعار هو الاشتعال، والمستعار منه هو النار، والمستعار هو الاشتعال، والمستعار منه والمستعار له مشابهة ضوء النهار لبياض الشيب ولا بد للاستعارة من قرينة تدل على انها ليست تعبيراً حقيقياً ".

وكان الهدف والمقصد في تحليل العلماء والنقاد العرب القدماء للنص القرآني الوصول الى حقيقة الآيات واقناع المتلقي بما جاء في القرآن الكريم، بوصفه معجزة الرسالة الخاتمة، التي تجلت في المعجزات العقلية والفكرية والبرهانية والبيانية، وقد اكد الرسول مُحَمَّد (ص) هذا المعنى في المعجزات بقوله : "ما من نبيّ إلاّ أعطى ما مثله آمن عليه البشر، وانما كان الذي اوتيت وحياً اوحاه الله إليّ (اخرجه البخاري) ، ولما كان الاعجاز القرآني يعتمد بشكل رئيس على لغته التي تنفتح على المعجزات الاخرى فقد كان المقصد والمعنى من اهم العناصر التي بحثها النقاد العرب القدماء في كتاب الله العزيز ، وذلك من أجل اكتشاف ما تتضمنه الآيات من قيم ووصايا ومبادئ لتوجيه المسلمين الى الطريق الصحيح وانتاج نسق ثقافي يمثل قيم الاسلام ، ويمكن تأشير بعض العناصر التي استعملها القرآن الكريم في لغته المعجزة:

- استعمال الشعارات والرموز :وتعتمد في ذلك على خاصية التبسيط لعملية التفكير واختزال مراحله المختلفة عن طريق اطلاق حكم نهائي في شكل مبسط،ومن امثلة ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى:(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)
- استعمال الاساليب اللغوية المختلفة : مثل التشبيه والاستعارة والكناية او الاستفهام، مثل ذلك الذي يخرج عن كونه استفهاماً حقيقياً الى معنى آخر مجازي كالتوبيخ والتبكيت وكل الاساليب البلاغية التي من شانها تقريب وتجسيد المراد من الرسالة، كما في قوله تعالى (قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا) وقوله تعالى (أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ).

- دلالات الألفاظ : وهي من اساليب تحريف الكلم عن مواضعه اعتماداً على الالفاظ المستعملة، ويمكن ملاحظة ذلك باستعمال كلمة أو صفة أو فعل تكون محملة بمشاعر معينة قد تكون سلبية تضفي نوعاً من الرفض على الاسم أو الفاعل المصاحب ،كذلك يمكن استبدال الكلمة بكلمة اخرى لها دلالة معنوية، ويقصد بالدلالة المعنوية انتقال الذهن من مفهوم اللفظ الى ما يلازمه، ومن امثلة ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى : (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ).
- صيغ افعل التفضيل :وذلك لاستعمالها في ترجيح فكرة معينة او مفهوم ما كما في قوله تعالى: (وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)
- انتقاء اللفظة التي تدل على ان الرأي أو الحكم حقيقة ، ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ).
- الاستشهاد بالمصادر : ويعني تشكيل التشبيه بما يتجه الى ما هو أكثر أو اعلى سلطة او من يحظى بمصداقية عالية من جانب المتلقي كما في قوله تعالى : (فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ).
- معاني التوكيد :كما في قوله تعالى :(لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم) .
- التوجه نحو الجماعة :ويقصد بها استثمار الضغط الذي يجعل السياق يتوافق مع الجماعة المرجعية التي ينتمي المتلقي اليها كما في قوله تعالى: (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) .

وقد شكلت التقنيات السابقة بعض اساليب القرآن في اقامة العلاقة مع المتلقي من خلال توجيه المعنى في السياق المعجز، ولكي يعمد النقاد العرب القدماء والمحدثون الى دارسة اثر اللغة في المتلقي واساليبها الجمالية التفتوا الى القصد ووصفوه بأنه بنية خاصة تمثل ارقى أساليب اللغة العربية في التعامل مع المتلقي، وذلك من خلال انفتاح النص القرآني على التأويل وتمركز المعنى في الوقت نفسه ، وكان نطام الاستعارة النظام الاوفر حظاً في الدراسة بوصفه واحداً من اهم الاساليب البلاغية التي تسهم بانفتاح آثار النص لدى النقاد العرب القدماء على المعنى الظاهر والمضمر منه، وكان البحث عن المعنى المضمر يمثل واحداً من دوافع النقاد لأدراك بلاغة النصين الديني والشعري، وعلى هذا الاساس عرف النقاد مفهوم الاستعارة في شعر شعرائهم بتعريفات مختلفة ، خاصة بعد ان بحث الاغريق (وأرسطو خاصة) في هذا المفهوم قبلهم، وكان أقدم الذين ذكروا هذا المصطلح من النقاد العرب (أبو عمرو بن العلاء) ، وجاء ذكره للاستعارة في معرض تحليله بيت ذي الرمة الذي يقول:

أقامت به حتى ذوى العود في الثرى وساق الثريا في ملاءته الفجر

ووصف ابن العلاء هذا البيت قائلاً: ((ولا أعلم قولاً أحسن من قوله: (وساق الثريا في ملاءته الفجر)، فصيّر للفجر ملاءة، ولا ملاءة له، وانما استعار هذه اللفظة وهو من عجيب الاستعارات)).

وكان الهدف الذي بحث فيه النقاد العرب في موضوع الاستعارة أثرها في التلقي وتعزيز جمالية البناء اللغوي لأنتاج صور تنماز بالعمق والخيال، وقد أشار الى قضية جمالية الاستعارة أبو عبيدة عمرو بن المثنى في معرض تعليقه على بيت الفرزدق الذي يقول:

لا قوم أكرم من تميم اذا عدت عوذ النساء يسقن كالآجالِ

وعلق على هذا البيت قائلاً: ((قوله (عوذ النساء) هن اللاتي معهّن أولادهن والأصل في (عوذ) الأبل التي معها أولادها فنقلته العرب الى النساء، وهذا من المستعار وقد تفعل العرب ذلك كثيراً)).

أما ابن قتيبة فقد أورد الاستعارة في كتابه (تأويل مشكل القرآن)، وهو يتحدث عن اساليب العرب في البلاغة قائلاً: ((فالعرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة اذا كان المسمى بها بسبب من الآخر أو مجاوراً لها أو متباكلاً)) .

وقد ذكر ابياتاً من الشعر أشار فيها إلى أن استعمال الشعراء العرب الاستعارة كما في قول الشاعر :

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

وقام الباحثان بإحصاء فنون الاستعارة التي ذكرها العرب ووجدا ان تقسيمات الاستعارة بلغت عند النقاد أكثر من (39) فرعاً، وأبرزها:

1 - الاستعارة الاحتمالية، كما في البيت الآتي:

واذا المنية أنشبت اظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفعُ

2 - الاستعارة الأصلية، كما في بيت البحتري الآتي:

يؤدون التحية من بعيد الى قمر من الايوان باد

3 - الاستعارة بالكناية، كما في قول دعبل الخزاعي:

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك الشيب برأسه فبكى

4 – الاستعارة التبعية، كما في قول ابن المعتز:

جمع الحق لنا في امام قتل البخل وأحيا السماحا

5 – الاستعارة التجريدية، كما في قول كثير:

عمر الرداء اذا تبسم ضاحكاً علقت لضحكته رقاب المالِ

6 – الاستعارة التحقيقية، كما في قول الشاعر:

ترى الثياب من الكتان يلمحها نور من البدر احياناً فيبليها

7 – الاستعارة التخيلية، كما في قول أبي تمام:

لا تسقني ماء الملام فانني ضب قد استغدبت ماء بكائي

8 – الاستعارة الترشيحية، كما في قول النابغة:

وصدرٍ أزاح الليل عازب همه تضاعفت الاحزان من كل جانب

9 – الاستعارة التصريحية ، كما في قول المتنبي:

في الخد إن عزم الخليط رحيلا مطر يزيد به الخدود نحولا

10 – الاستعارة التلميحية ، ومنها قول الشاعر:

أخاف زياداً أن يكون عطاؤه أُداهم سوداً أو مخدرجة سمرا

وهذه الاستعارات هي الأبرز في أنواعها ، ولكن هناك استعارات أخرى لايتسع المجال لذكرها.

إن تعدد أنواع فنون الاستعارة يشير الى مسألتين في غاية الأهمية الأولى : أن التلقي يختلف بين نوع وآخر بسبب اختلاف الأثر بين هذه الأنواع ، فالاستعارات التي تعتمد على اثارة الخيال وتعمد الى جمع المتضادات في المحسوس والملموس وتقيم بينهما توازناً تركيبياً تمتلك قدراً كبيراً من التأثير في المتلقي بسبب توجهها نحو الانفصال عن الواقع والارتباط به في الوقت نفسه ، وبتالي انتاج نسق ثقافي متخييل يحاول الانسان تطبيقه واقعيا ،فالانفصال عن الواقع يرتكز على التركيب غير الواقعي للمحسوسات والملموسات ، أمّا الارتباط فيعود الى نقل المتخيّل الى الواقع ورسم صورته وكأنه حقيقة مرئية ،ويذهب ريتشاردز في هذا الصدد الى

القول : ((الوسيلة العظمى التي يجمع الذهن بواسطتها في الشعر اشياء مختلفة لم توجد بينها علاقة من قبل وذلك لأجل التأثير في المواقف والدوافع)). أمّا الثانية : فتؤكد أن الاستعارة تعبر عن نسق ثقافي يؤثر في طريقة الاداء الشعري ، ففي مراحل ازدهار الشعر يكون النسق الثقافي متوائماً مع تلقي الاستعارة وانتاجها ، فمن حيث التلقي تستثير الاستعارة المخيلة لانتاج صور غير تقليدية تختلف عن الصور المألوفة أو المتراكمة تاريخياً في تصور المتلقي ، كما أن المعنى الذي اعتاد القارئ على تلقيه في اللغة الاعتيادية سيختلف في الاستعارة ويتحول الى تصورات ذهنية تفارق الواقع مرة وتلتقي معه في أخرى ، الأمر الذي يجعل التصورات والخيال والتأمل يقترب من الواقع في ذهن المتلقي ، ويتداخل الفكر مع اللغة في نسيج خاص لم تألفه المخيلة من قبل ، وهذا النسيج الخاص يمكن له أن ينقل النسق الثقافي من مرحلة تصورية أدنى الى مرحلة تصورية أعلى ، بوصف الصور الاستعارية الجديدة منتجة لتراكم جديد في الخبرة والتجربة الجمالية للمتلقي ويذهب الباحث العراقي مُحَمَّد حسين الصغير في هذا الصدد الى أن الاستعارة أداة لها طريقتها الخاصة في عرض المعاني مقترنة بألفاظها ، ليتفاعل المتلقي مع النص الأدبي بجزأيه اللغوي والفكري ، فلا فصل بينهما ولا يتميز أحدهما من الآخر ، فيكتسب حينذاك العمل الادبي مناخاً يشعر متلقيه بالتئام اللغة والفكر في رباط واحد.

من هنا تبدو الاستعارة القوة اللغوية الرئيسة المسؤولة عن تفعيل الفكر وتقديم اقتراحات مختلفة لانتاج انساق ثقافية جديدة

الخاتمة

إن هذا الارتباط بين اللغة والفكر يشير الى الجدل المستمر بين الاستعارة والمعنى في تلقي وانتاج الشعر ، وهي جدلية غير منتهية ولا محسومة مادامت المخيلة الانسانية قادرة على انتاج انساق جديدة تترابط فيها المخيلة باللغة ، وقادرة على ادهاش واختراق الألفة في اللغة وهذه المزية المتعلقة باختراق الألفة تعد القوة المسؤولة الرئيسة للانتقال من نشق ثقافي الى نسق ثقافي آخر.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. الكتاب المقدس
3. ابن قتيبة :تأويل مشكل القرآن، تح احمد صقر ، القاهرة ،1954
4. أبو عبيدة عمرو بن المثنى ،النقائض ،ج 1، ليدن1905
5. الجاحظ : الحيوان ، ج 1، ج 4، تح عبدالسلام مُحَّد هارون ، القاهرة ،1937
6. الحاتمي ، حلية المحاضرة في صناعة الشعر، تح جعفر الكناني ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ،.1979
7. السكاكي، مفتاح العلوم، القاهرة ،1937
8. مُحَّد حسين الصغير ، نظرية النقد الأدبي، الموسوعة الصغيرة ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ،1994 ،
9. مهنا يوسف حداد ، الانثروبولوجيا الدينية ، موسسة حمادة للدراسات الجامعية ، اربد ، الاردن ،2011

المصادر المترجمة

10. ابرونوميسنر :حضارة بابل وأشور، ترجمة :غانم هنا، يبتزيخ1915
11. ريتشاردز ، مبادئ النقد الأدبي ، ترجمة مصطفى بدوي ، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر القاهرة ،1963
12. رينهارت لاوت، ابراهيم وانباء عهده مع الله، ترجمة :غانم هنا خطوات للنشر والتوزيع، دمشق،2006 ،
13. نورثروب فراي، المدونة الكبرى، ترجمة :سعيد الغانمي، دار الجمل، بيروت،.2010

المؤتمر الدولي العلمي السادس للمركز الأوروبي للبحوث والاستشارات

في العلوم الإنسانية والاجتماعية تحت شعار " المستقبل بعين الحاضر والماضي"

تركيا – اسطنبول

جامعة مرمرة – كلية الإلهيات

3 - 4 / 5 / 2018

علمُ البلاغة بين التّراث والاستشراف في فهم النّصّ القرآنيّ

إعداد:

أ/ أهيف عبد العزيز محمّد بوريني

كليّات التّقنية العليا جامعة المدينة العالميّة ـ ماليزيا

Email: ahyaf@hotmail.com

Ref: 6/2018/111

ISBN 978-1-9996437-3-7

الملخّص:

يقوم هذا البحث على فكرة بيان أثر الخطاب البلاغيّ بين التّراث والاستشراف في فهم النّصّ القرآنيّ؛ وذلك عن طريق تطبيقه على أمثلة من آي الذّكر الحكيم؛ ببيان مواطن البلاغة فيها، وكانت هذه الأمثلة التّطبيقيّة نتاج فكر الباحث. وعرض البحث إلى أهميّة التّعمّق في علوم العربيّة عامّة، وعلم البلاغة خاصّة؛ بغرض فهم العلوم الشّرعيّة عامّة، وعلى رأسها القرآن الكريم خاصّة؛ فبالبلاغة يتمّ المعنى المقصود، وإنّ الجهل بمراميها وأغراضها يسوق إلى الفهم الخطأ البعيد. وقد قام الباحث بتقسيم البحث إلى: مقدّمة، وتمهيد، ثمّ مبحث في التّعريف بأهميّة البلاغة في تفسير الآيات القرآنيّة، وبعدها أتت دراسة تطبيقيّة على بعض آيات القرآن الكريم.

المقدّمة:

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على أشرف الخلق والمرسلين سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وتابعيه بإحسان إلى يوم الدين.

لا شكّ أنّ البلاغة تعلب دورًا مهمًّا في فهم النّصّ على وجه مخصوص، كما أنّ لها وقعًا مؤثّرًا في الأسماع والأفهام؛ فبها يتمّ المعنى المقصود؛ فيصاغ الكلام وفقًا لمقتضى الحال. ولا أدلّ على ذلك حين التّمعّن في لغة القرآن الكريم؛ إذ لا يخلو تركيب فيه من البلاغة في أرقى مستوياتها، فجاء هذا البحثُ الموجز؛ ليحاول الكشف عمّا وراء بعض تراكيبه وصوره، معرّجًا على المعنى بين التّراث والاستشراف، فيما كان عند المفسّرين من جهة وعند اللّغويّين من جهة أخرى، وكيف يُنظر للنصّ القرآنيّ؛ فالبحث لا يُعنى بالحديث عن ضروب البلاغة، وأنواعها، وأقسامها المعروفة، وإنّما في بلاغة الخطاب ومعانيه ومراميه.

التّمهيد:

البلاغة في اللّغة:

"والبَلاغةُ: الفَصاحةُ. والبَلْغُ والبِلْغُ: البَلِيغُ مِنَ الرِّجَال. وَرَجُلٌ بَلِيغٌ وبَلْغٌ وبِلْغٌ: حسَنُ الْكَلَام فَصِيحه يُبَلِّغُ بِعِبَارَةِ لِسَانِهِ كُنْهَ ما في قَلْبِه، والجمعُ بُلَغاءُ، وقد بَلُغَ، بِالضَّمِّ، بَلاغةً أَي صَار بلِيغاً".[1]

وجاء عند ابن الأثير: "وأما البلاغة: فإنّ أصلها في وضع اللّغة من الوصول والانتهاء، يقال: بلغت المكان، إذا انتهيت إليه، ومبلغ الشّيء منتهاه، وسميّ الكلام بليغًا من ذلك، أي: إنّه قد بلغ الأوصاف اللّفظية والمعنويّة".[2]

البلاغة في الاصطلاح:

يقول ابن الأثير: " والبلاغة شاملة للألفاظ والمعاني، وهي أخصّ من الفصاحة، كالإنسان من الحيوان، فكل إنسانٍ حيوانٌ، وليس كل حيوان إنسانًا، وكذلك يقال: كل كلام بليغ فصيح، وليس كل كلام فصيح بليغًا.

ويفرق بينها وبين الفصاحة من وجه آخر غير الخاصّ والعام، وهو أنها لا تكون إلّا في اللفظ والمعنى بشرط التركيب، فإن اللفظة الواحدة لا يطلق عليها اسم البلاغة، ويطلق عليها اسم الفصاحة، إذ يوجد فيها وصف المختص بالفصاحة، وهو الحسن، وأمَّا وصف البلاغة فلا يوجد فيها، لخلوّها من المعنى المفيد الّذي ينتظم كلامًا".[3]

أهميّة علم الخطاب البلاغيّ في فهم النّصّ القرآنيّ:

يجمع المفسّرون والبلاغيّون وأصحاب اللّغة على وجوب فهم العربيّة عامّةً والنّحو والبلاغة خاصّةً؛ وذلك بغية معرفة وجوه الكلام وتفسيره؛ بالتّالي فإنّ فهم النّصّ إنّما يتأتى من تفاعل المتلقّي، ومعرفته بضروب الكلام، فإنّه من الحريّ بنا التّفاعل مع الخطاب، ولا سيّما الخطاب القرآنيّ؛ فعليه تُبنى الأحكام الشّرعيّة، وتتأتّى المقاصد بصورتها المباشرة.

([1]) ابن منظور، لسان العرب، 420/8.

([2]) ابن الأثير، المثل السّائر، 94/1.

([3]) ابن الأثير، المثل السّائر، 94/1.

أمثلة تطبيقيّة:

أ- الحذف:

يقول ربّ العزّة جلّ وعلا: (لا يستوي أصحابُ النّار وأصحابُ الجنّة أصحابُ الجنّة هم الفائزون). (الحشر: 20). وفي الآية القرآنيّة ملمح بلاغيّ يتجلّى همسة فنيّة في ظاهرة الحذف في الآية القرآنية؛ إذ لم يذكر ربّ العزّة مآل الكافرين في نتيجة المقارنة بينهم وبين أصحاب الجنّة؛ وذلك لأمور:

1- أنّ السّامع يعي مقتضى المقارنة، فلمّا ذكر الله تعالى فوز أصحاب الجنّة لم يذكر مآل أصحاب النّار بالمقابل لذلك؛ وهذا مقتضاه فتح آفاق النّصّ على المتلقّي.

2- دمج المتلقّي في السّياق، وشدّ انتباهه.

3- أدبيّات التّعليم الرّبانيّ في ترك الخيار للمتلقّي بين العمل بأخلاق أهل الجنّة أو العمل بأخلاق أهل النّار بأسلوب رفيع.

4- إهمال شأنهم، بل وتهميشهم؛ وذلك بعدم ذكرهم أصلًا.

ب- مناسبة اللّفظ للسّياق اللّغويّ:

يقول الحقّ جلّ شأنه: (الّذي خلقَ الموتَ والحياةَ ليبلوكم أيّكم أحسنُ عملاً). (المُلك: 2). ولم تأتِ كلمة: (ليختبركم، أو ما شاكلها من ألفاظ)؛ وذلك كي تتناسب والعمل الحَسَن؛ فالعمل الحَسن إنّما فيه ابتلاء؛ إذ إنّ الباطل والشّرّ أسهل وأسلس وأيسر، والعمل الحسن إنّما يحتاج إلى مشقّة وصبر وبلاء وجَلد ومكابدة.

والبلاء مع بداية الخلق والحياة إنّما هو استشراف لمستقبلٍ مجهول آتٍ، ولو جُرّد اللّفظ من سياقه لكان البلاء في محنة حاليّة واقعة؛ وفي هذا دلالات وأمارات أنّ البلاء إنما يقترن بالإنسان من ولادته إلى مماته.

ج- من ألفاظ السّرعة في الحركة:

يقول الحقّ تعالى: (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النّشور). (الملك: 15) فلمّا كان أمر الرّزق محتومًا بيد الخالق كان اللّفظ المعبّر عن السّرعة مناسبًا في الاستعمال، ولما كانت المغفرة مطلبًا جليلًا؛ ثم تليها الجنة، وكلا الأمرين يتطلّب عملًا وجهدًا أكبر، يقول تعالى: (وسارعوا إلى مغفرة من ربّكم وجنّة عرضها السّموات والأرض). (آل عمرن: 133). والأولى حينما يتعلق الأمر بصاحب المغفرة وربّ الجنة وربّ الرزق وجب أن تكون السّرعة أكبر إليه؛ فلذا قال عزّ وجلّ: (ففروا إلى الله).

د– علاقة التّأصيل اللّغويّ بالفنيّة التّصويريّة في الآيات القرآنيّة:

يقول تعالى: (أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون). (الحجرات: 2). أورد كثيرٌ من أصحاب التّفسير –رحمهم الله تعالى– معنى كلمة (تحبط) بأنّها الهلاك والبطلان، وهذا صحيح، ولم يعرّج المفسّرون – في حدود ما اطّلع الباحث– على تأصيلها اللّغويّ إلّا ابن قتيبة الدّينوريّ في تأويل مشكل القرآن[1]، وأورد النّحّاس تأصيلها في إعراب القرآن نقلًا عن المبرّد[2].ولربما نظروا إلى معناها في السّياق من دون التّأصيل اللّغويّ. فوردَ عن اللّغويين[3] قولهم: إنّ (الحَبَطَ) يعني: أَن تأْكلَ الماشية فتُكْثِرَ حتى تَنتفخَ بطونُها ولا يخرج عنها ما فيها حتّى تموت.

والتّراث في الاستخدام اللّغويّ كان مناسبًا والبيئة المحيطة والاستخدام في السّياق، ثمّ تطوّر المصطلح في توسّع في الاستعمال؛ فتمّ التّعامل معه في استشراف لغويّ جديد لا ينفكّ عن المعنى الأصيل. وجماليّة التّصوير فيها أنّ الأعمال الّتي تقدّمونها ظانّين أنّها صالحة، تتجمّع وتتكدّس بلا فائدة، بل إنّها تنقلب إلى ضارّة؛ فتهلك صاحبها.

والتّصوير إنّما جاء من البيئة المحيطة للمخاطبين؛ كونهم على معرفة تامّة بأحوال الماشية وأمورها؛ لذا جاءت لفظة (وأنتم لا تشعرون) متوائمة تمامًا ومقتضى الفكرة؛ ذلك أنّك تقدّم ما فيه الخير معتقداً أنّه متقبّل، ولم تشعر بعكس ذلك، فكذلك الدّابة تأكل وتأكل ما يفيد، وإن كان أكلها فيه فائدة فإنّ عدم إخراج الزّائد منها انقلب عليها فماتت.

هـ– اشتقاق أفعال من أسماء، والتّوسع في اللّفظ:

الفعل: باشَر مشتقّ من (البَشَرة)، كما أنّ لفظ البشر، مشتقّ من لفظ: البَشرَة. فقولنا: التقيته مباشرة؛ هو من سبيل الانزياح اللّغويّ؛ لتعني وجهًا لوجه، وليس شرطًا فيه الملامسة.

وقوله تعالى: (كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ) (البقرة: 187)؛ فباشروهنّ: "كناية عن الجماع".[4]

([1]) ابن قتيبة الدّينوريّ، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: إبراهيم شمس الدّين، 303. يقول:
"فالحَبَط: أن تأكل الناقة في المرعي فتكثر حتى تنتفخ بطنها. ولذلك قيل لقوم من العرب: الحبطات، لأنّ أباهم كان أكل صمغًا حتى حبط بطنه فسمي: الحبط. وهو الحارث بن تميم".

([2]) النَّحَّاس، إعراب القرآن، تعليق: عبد المنعم إبراهيم، 16/4.

([3]) انظر: الخليل الفراهيديّ، كتاب العين، 124/3. وفيه: "حبط: الحَبَط: وَجَع يأخُذُ البعيرَ في بَطْنه من كَلأً يَسْتَوْبِلُه، (يقال): حَبِطَتِ الإبِل تحبَط حَبَطاً. وحَبِطَ عَمَلُه: فَسَدَ، وأحبَطَه صاحبُه، واللهُ مُحْبِطٌ عمل من أشرك". –وانظر: سيبويه، الكتاب، 646/3. يقول: " وبعيرٌ حبطٌ وإبلٌ حباطى". ولم يذكر معناها. ويقول: " في باب ما جاء من الأدواء: "حبط يحبط حبطاً وهو حبطٌ". 17/4. وغيرها.

([4]) مكّي، الهداية إلى بلوغ النّهاية، 621/1.

ولم يرد عند المفسّرين تأصيل لغويّ لها؛ وفيه استشراف في معنى اللّفظ عندهم؛ إذ إنّ الاستعمال التّراثيّ للكلمة كان يعني في أصله شيء، ثمّ انتقل ليعني شيئًا آخرَ في استشراف لغويّ محمود؛ إذ العلاقة بين التّراث والاستشراف في الاستعمال اللّغويّ لا ينفصمان. أمّا المعجميّون فقد تحدثوا عن أصل اشتقاقها.[1]

و- بلاغة إظهار ضمير المخاطب:

يقول عزّ وجلّ: (اسكن أنت وزوجك الجنّة) (البقرة: 6). ضمير الفاعل واجب الاستتار مع الأمر للمخاطَب المفرد، وإن ظهر الضّمير فيحمل على التّوكيد للفاعل المستتر. فما حكمة ورود الضّمير (أنت)؟ لعلّ الحكمة تتجلّى في ثلاثة أمور:

أمّا الأوّل: فهو توكيد المخاطَب وإلزامه هو ذاته بالسّكن.

الثّاني: إعلاء شأنه.

ثالثًا: حتّى لا يكون عطف الاسم (زوجك) على ضمير غائب مقدّر. كما أنّه لا يجوز عطف ضمير على فعل؛ فلا يُظن أنّ هناك عطفًا.

وكذلك الحال في الخطاب مع موسى عليه السّلام: (فاذهب أنت وربّك فقاتلا) (المائدة: 24) وإن كانت تخلو من إعلاء الشّأن؛ لأنّ المقام لا يتناسب مع الإعلاء، إنّما يناسبه تقليل الشّأن؛ إذ فيه سخرية؛ فيظهر المخاطب مباشرةً.

ز- القرب المعنويّ والتّوازن اللّفظيّ في الخطاب البلاغيّ:

يقول الحقّ جلّ في عُلاه: (وقيل يا أرضُ ابلعي ماءك ويا سماءُ أقلعي وغيض الماء وقُضي الأمر واستوت على الجوديّ وقيل بُعدًا للقوم الظّالمين) (هود: 226).

([1]) انظر: ابن منظور، لسان العرب، 59/10-60. وجاء فيه: بشر: البَشَرُ: الخَلْقُ يَقَعُ عَلَى الأُنثى وَالذَّكَرِ وَالْوَاحِدِ وَالِاثْنَيْنِ وَالْجَمْعِ لَا يُثَنَّى وَلَا يُجْمَعُ. والبَشَرَةُ: أَعلى جِلْدَةِ الرأْس وَالْوَجْهِ وَالْجَسَدِ مِنَ الإِنسان، وَهِيَ الَّتِي عَلَيْهَا الشَّعْرُ، وَقِيلَ: هِيَ الَّتِي تَلِي اللَّحْمَ. والبَشَرُ جَمْعُ بَشَرَةٍ وَهُوَ ظَاهِرُ الجِلْدِ. اللَّيْثُ: البَشَرَةُ أَعلى جِلْدَةِ الْوَجْهِ وَالْجَسَدِ مِنَ الإِنسان، ويُعْنى بِهِ اللَّوْنُ والرِّقَّةُ، وَمِنْهُ اشْتُقَّتْ مُباشَرَةُ الرَّجُلِ المرأَةَ لِتَضامِّ أَبْشارِهما. والبَشَرَةُ والبَشَرُ: ظَاهِرُ جِلْدِ الإِنسان.

-وانظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة، تحقيق: عبد السّلام هارون، 251/1. وفيه: " الْبَاءُ وَالشِّينُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ: ظُهُورُ الشَّيْءِ مَعَ حُسْنٍ وَجَمَالٍ. فَالْبَشَرَةُ ظَاهِرُ جِلْدِ الْإِنْسَانِ، وَمِنْهُ بَاشَرَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ، وَذَلِكَ إِفْضَاؤُهُ بِبَشَرَتِهِ إِلَى بَشَرَتِهَا. وَسُمِّيَ الْبَشَرُ بَشَرًا لِظُهُورِهِمْ. وَالْبَشِيرُ الْحَسَنُ الْوَجْهِ. وَالْبَشَارَةُ، الْجَمَالُ".

بُدئت الآية بقوله تعالى: (وقيل): فبناء الفعل للمجهول إنّما فيه إشارة إلى:

أ- أنّ القول إنّما صدرَ إلى الأرض وإلى السّماء بقول قائل، وهو الله تعالى.

ب- قد يكون القول صدر من ملائكته -عليهم السّلام- الموكلين بهما، والأمر في نهايته أنّ القول من الله تعالى.

ج- لم يأتِ الله تعالى بمؤكّدات لقوله، ممّا يدلّ على انصياع الأرض والسّماء لقوله من دون توكيد.

د- قال الله تعالى: (وقيل)، ولم يأت بفعل فيه معنى الأمر أو التّهديد أو الإرغام لهما؛ وذلك لأنّهما يمتثلان طوعًا.

هـ- لم يذكر الله تعالى الفاعل صراحةً؛ لعدم الحاجة إلى ذلك.

ثمّ ذكر أداة النّداء (يا)؛ وهي لنداء القريب والبعيد، والأرض إنّما هي قريبة لقدرة الله تعالى، ونرى أنّ أداة النّداء واحدة للأرض وللسّماء، فقد تكون السّماء بعيدة عن البشر، لكنّها قريبة لأمر الله وكذا الأرض، وكذا كلّ شيء! وخاطب الله تعالى الأرض، وهي نكرة مقصودة؛ في إشارة إلى أنّها كوكبنا المعلوم لا غيره، ثمّ يأتي فعل الأمر (ابلعي) دون الحاجة إلى مؤكّد؛ لأنّها منقادة ذليلة إلى ربّه،! والبلع إنّما يكون فيه الاختفاء والاستتار المطلق، ولم يكن هناك استخدام للفظ يدلّ على الشّرب؛ لأنّ الشّرب يكون بقدر معلوم يحتّمه الارتواء، وهنا البلع سواء أكانت امتلأت أم لا!

ويأتي ربّ العزّة بكلمة (ماءك) ولم يقل (الماء)، وذلك -والله تعالى أعلم- لأمور:

1- لأنّ المقصود ليس الماء جميعه، فجيء باللّفظ على هذه الصّورة؛ ليدلّ على تحديد المقصود من الماء.

2- إلحاق كاف المخاطبة فيه إشارة إلى أنّ هذا الماء هو من الأرض أصلًا.

وهذا إنّما يدلّ على استشراف فيما يتحدّث عنه الجيولوجيّون في موضوع التّبخّر.

ثمّ إنّ الآية بُدئت بالفعل المجهول (قيل)، ثمّ أداة النّداء (يا)، ثمّ فعل الأمر (ابلعي)، وكذلك التّرتيب ذاته فيما تلاها: (قيل)، ثمّ أداة النّداء (يا)، ثمّ فعل الأمر (أقلعي)، وهذا فيه موازنة في الألفاظ؛ وذلك يفضي إلى لفت انتبه المتلقّي، وحُسن الإيقاع، وترسيخ المعنى.

ثمّ تأتي النّتيجة مرتّبة ومتعلّقة بالتّرتيب؛ فالأرض غيض ماؤها، والسّماء أقعلت، وقضي الأمر برمّته، واستوت السّفينة على جبل الجوديّ[1]، وخُتمت الآية بالفعل الّذي بُدئت به: (وقيل)، وتلا ذلك النّتيجة الختاميّة: (بعدًا للقوم الظّالمين).

([1]) اسم جبل قريب من الموصل. انظر: مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل، تحقيق: عبد الله شحاته، 283/2.

وهناك توازن لافت في تراتبيّة المكان؛ إذ إنّ الآية تنتظم وفق نسق ينتقل من الأعلى إلى الأدنى بتراتبيّة متناسقة؛ فانطلق الأمر من الأعلى في لفظ: (وقيل)، ثمّ إلى أدنى: (يا أرضُ ابلعي ماءك)، ثمّ عادت إلى الأعلى: (ويا سماءُ أقلعي)، ثمّ عادت إلى أدنى: (وغيض الماء)، وبعدها عادت إلى الأعلى: (وقُضي الأمر)؛ لأنّه من الله، ثمّ نزلت إلى أدنى في: (واستوت على الجوديّ)، وبعدها إلى أعلى: (وقيل)، ثمّ نزلت إلى الأدنى في: (بُعدًا للقوم الظّالمين)؛ كونهم في الأرض.

ح- استشراف الألفاظ لمواكبة الدّلالات:

يقول تعالى: (وما من دابّة في الأرض ولا طائرٍ يطير بجناحيه إلّا أممٌ أمثالكم) (الأنعام: 38). فلمّ خصّ الله تعالى ذكر (بجناحيه)؟ أوليس كلّ طائر يطير بجناحيه؟

الحقيقة أنّ هناك ما يطير بجناحين دون أن يكون طيرًا؛ كالطّائرة مثلًا؛ فخرجت على أن تكون أممًا أمثالنا في التّكاثر والرّزق والموت وغيرها، وتمّ وصل جناحين بالضّمير الهاء (جناحيه): أي إنّ الطّائر يُعمل بنفسه جناحيه؛ ليطير، ولو كانت (جناحين) لكانت تعني اشتماله على جناحين يساعدانه على الطّيران، وقد لا يُعملهما هو بنفسه؛ فالطّائرة يتحكّم فيها بنو البشر، وكذلك خرجت الصّواريخ والمركبات الفضائيّة من وصفها بالأجنة؛ فهي تطير وليست أمم أمثالنا! وهذا إنما دلّ على استعمال تراثيّ الأصل؛ ليستشرف بلغته ودلالاتها مستقبلًا كان غير معلوم عند السّالفين، والله أعلم وأحكم.

ط- الأثر البلاغيّ في منطقيّة التّرتيب ثمّ فصل التّركيب:

يقول ربّ العزّة جلّ شأنه: (غافر الذّنب وقابل التّوب شديد العقاب) (غافر: 3). فالتّرتيب يقتضي بداية اقتراف الذّنب، ثمّ نتيجته بالعقاب أو المغفرة؛ فربّ العزّة يعطي أملًا لعباده بمغفرة ذنوبهم، ثمّ إنّ الأمل مستمرّ في قبول التّوبة؛ ولا توبة إلاّ بعد ذنب، وفيه منطقيّة في التّرتيب. ويأتي فصل التّركيب في ترك أثرٍ لطيف؛ ذلك أنّ كلام الله -جلّ وعلا- في ترهيبه لم يأتِ بالعطف على ترغيبه! ذلك أنّه لا وجود لحرف الواو بين (قابل التّوب) (شديد العقاب)! وكان هناك عطف لقابل على غافر؛ لأنّهما في سياق الرّحمة، ثم فُصل التّركيب بصفة (شديد) وكلّها مجرورة.

ي- بلاغة تقديم الإجابة بأسلوب الاستفهام:

يقول الله تعالى: (أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها) (محمّد: 24). فلو كانت (أم) عاطفة؛ فتكون لعطف سؤال على سؤال؛ لذا فإنّ السّؤال الثّاني حمل إجابة ضمنيّة على السّؤال الأوّل في سبب عدم تدبّرهم القرآن؛ فالاستفهام استنكاري مفيد للتّقريع والتّحقير، في عدم تدبّرهم كلامه تعالى، وعدم تدبّرهم لدلائل قدرته تعالى! وقد تكون (أم) منقطعة بمعنى (بل)، وهنا تكون إجابة مباشرة في سبب عدم تدبرهم القرآن، ذلك أنّ القلوب عليها أقفال؛ والقفل إنّما يمنع خروج الكفر، ويمنع دخول الإيمان، وهنا لم تُترك مسافة للتفكير في الإجابة على السّؤال الأوّل.

وفي الآية ذاتها، ورد لفظ: (أقفالها)، وليس (أقفال) مثلًا، والأولى تعني إنّ لكل قلب قفله الّذي يختلف عن غيره في حجم إحجامه عن التّدبّر! كما أنّ وهناك تجلّيًا بلاغيًّا في تنكير كلمة (قلوب)؛ وذلك تنكيرًا لأصحابها وتهميشهم، وتركًا لأصحابها في فترة مهلة علّهم يتّعظون. كما في الآية إشارة إلى مكان العقل وهو القلب؛ وقد شُهر خلاف بين العلماء في تحديد مكان العقل؛ فقيل الدّماغ، وقيل القلب، وغيرهم يرى أنّه قوّة خفيّة في الجسد. ولعلّ مكانه—والله أعلم- القلب؛ وذلك لأنّ التّدبّر يتطلّب العقل، وبالإضافة للآية الواردة، فإنّ الآية: (لهم قلوب لا يفقهون بها) (الأعراف: 179) تدعم وجهة نظر من يرى أنّ مكان العقل هو القلب.

ك- البلاغة في التّقديم والتّأخير:

يقول الحقّ جلّ وعلا: (وكان حقًّا علينا نصرُ المؤمنين) (الرّوم: 47). تقدّم خبر (كان) وشبه الجملة (علينا)، على اسمها: (نصرُ)؛ وذلك أنّ الله تعالى قد قدّم الحقّ واستلزام وجوبه عليه هو ذاته، في إشارة ربانيّة على أهميّة ما سيأتي، وكان الله تعالى غنيًّا عن إثبات ذلك؛ كونه صادرًا منه تعالى، ولتأكيد أهميّة ذلك قدّم (حقّاً) على ذاته سبحانه، بل وعلى النّصر نفسه؛ لما في ذلك من شدّ انتباه، وترسيخ للمعنى عند المتلقّي، وتعظيم ما سيلي، والتّرتيب النّحويّ يقتضي الآتي: (وكان نصرُ المؤمنين حقاً علينا)؛ فنصر المؤمنين مقترنٌ بالوجوب لا محالة، إذا عمل المؤمنون لهذا النّصر، ونصروا أنفسهم بدايةً.

وهذا ما اجتهده الباحث، فإن أصابَ فمن الله وحده، وإن أخطأ فمن نفسه ومن الشّيطان. والحمد لله ربّ العالمين.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

1- ابن منظور، ، مُحَمَّد بن مكرم بن عليّ، جمال الدّين الأنصاريّ الرّويفعيّ الإفريقيّ، أبو الفضل (المتوفى: 711هـ)، لسان العرب، دار صادر - بيروت، ط3، 1414هـ.

2- ابن الأثير، ضياء الدّين نصر الله بن محمّد (المتوفى: 637هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشّاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الفجالة ـ القاهرة، بدون طبعة، بدون تاريخ.

3- ابن قتيبة الدّينوريّ، عبد الله بن مسلم ، أبو محمّد (المتوفى: 276هـ)، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: إبراهيم شمس الدّين، دار الكتب العلمية، بدون طبعة، بيروت – لبنان، بدون تاريخ.

4- النَّحَّاس، أحمد بن محمّد بن إسماعيل بن يونس المراديّ النحويّ، أبو جعفر (المتوفى: 338هـ)، إعراب القرآن، تعليق: عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة- بيروت، ط1، الأولى، 1421هـ.

5- الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيديّ البصريّ، أبو عبد الرحمن (المتوفى: 170هـ)، كتاب العين، تحقيق: د. مهدي المخزوميّ، ود. إبراهيم السّامرائيّ، دار ومكتبة الهلال، بدون طبعة، بدون تاريخ.

6- مكيّ بن أبي طالب حَمّوش بن محمّد بن مختار الأندلسيّ القرطبيّ المالكيّ، أبو محمّد (المتوفى: 437هـ)، الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، جامعة الشّارقة، ط1، 1429هـ- 2008م.

7- سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر (المتوفى: 180هـ)، الكتاب، تحقيق: عبد السّلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1408هـ - 1988م

8- ابن فارس، أحمد بن زكريا القزويني الرّازيّ، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ)، معجم مقاييس اللّغة، تحقيق: عبد السّلام محمّد هارون، دار الفكر – الأردن، بدون طبعة، 1399هـ - 1979م.

9- مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخيّ، أبو الحسن (المتوفى: 150هـ)، تفسير مقاتل، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التّراث – بيروت، ط1، 1423هـ.

المؤتمر الدولي العلمي السادس للمركز الأوروبي للبحوث والاستشارات

في العلوم الإنسانية والاجتماعية تحت شعار " المستقبل بعين الحاضر والماضي"

تركيا – اسطنبول

جامعة مرمرة – كلية الإلهيات

3 - 4 / 5 / 2018

واقع صحافة الهاتف المحمول في الوطن العربي: مدى الاستخدام في متابعة الأخبار

إعداد:

أ/ يحيى باسم عياش

جامعة الأناضول - تركيا

Email: press_2006@hotmail.com

Ref: 6/2018/112

ISBN 978-1-9996437-3-7

الملخص:

هدفت الدراسة للتعرف على واقع صحافة الهاتف المحمول في الوطن العربي، ومدى استخدام هذا النوع من الصحافة في متابعة الأخبار، من خلال إجراء دراسة ميدانية على عينة عشوائية بلغت (100) مفردة من الشباب العربي المقيم في تركيا، وتنتمي الدراسة إلى البحوث الوصفية، واستخدمت منهج المسح الإعلامي وفي إطاره اعتمدت على أسلوب مسح جمهور وسائل الإعلام، وتم جمع البيانات بواسطة صحيفة الاستقصاء الالكترونية، ومن أهم نتائج الدراسة أن الغالبية العظمى من الشباب العربي يستخدمون الهواتف الذكية أو اللوحية، واحتلت نسبة متابعة الأخبار من قبل صحافة الهاتف المحمول نسبة 75 بالمئة من المبحوثين، بسبب السهولة والسرعة في الوصول للأخبار بشكل رئيسي.

تمهيد

شهدت صحافة الهاتف المحمول تطورا لافتا خلال السنوات الأخيرة، في ظل التطور التكنولوجي الكبير، وظهور أجيال جديدة من الهواتف المحمولة التي تراعي السرعة والأداء الجيدين، إلى جانب تعدد التطبيقات الاجتماعية التي بدأت وسائل الإعلام استثمارها كنوافذ إعلامية جديدة، تستطيع من خلالها الوصول إلى الجمهور بكافة شرائحه؛ وتهدف الورقة البحثية للتعرف على واقع صحافة الهاتف المحمول في الوطن العربي، ومدى استخدام هذا النوع من الصحافة في متابعة الأخبار بشكل خاص.

1. أبرز الدراسات السابقة:

بعد الاطلاع على عدد من الدراسات الإعلامية المتعلقة بموضوع البحث، يورد الباحث أبرز الدراسات السابقة وذلك كالآتي:

أ. **دراسة هشام زقوت (2016)**[1]: وتهدف إلى التعرف على مدى استخدام الصحفيين الفلسطينيين لتطبيقات التواصل الاجتماعي من خلال الهواتف الذكية، وأسباب هذا الاستخدام، ودوافعه والاشباعات المتحققة، وتنتمي هذه الدراسة إلى البحوث الوصفية التي استخدم فيها المنهج المسحي، وفي إطاره تم توظيف أسلوب مسح أساليب الممارسة الإعلامية، وتم جمع البيانات بأداة صحيفة الاستقصاء، وأداة المقابلة الشخصية، وتوصلت الدراسة إلى أن؛ تطبيق فيسبوك هو الأكثر شيوعا في تطبيقات التواصل الاجتماعي، يليه "واتس أب"، ويزداد استخدام التطبيقات في أوقات الأحداث والأزمات.

ب. دراسة سائد رضوان (2016)[2]: وتهدف إلى التعرف على مدى اعتماد الشباب الفلسطيني على صحافة الهاتف المحمول كمصدر للأخبار وقت الأزمات، وأسباب هذا الاعتماد ودوافعه، والتأثيرات الوجدانية والمعرفية والسلوكية المترتبة على اعتماد الشباب الفلسطيني على هذا النوع الجديد من الصحافة بأنواعها، وتنتمي هذه الدراسة إلى البحوث الوصفية التي استخدم فيها المنهج المسحي، وفي إطاره تم توظيف أسلوب مسح جمهور وسائل الإعلام، وتم جمع البيانات بأداة المقابلة الشخصية، وأداة صحيفة الاستقصاء، وتوصلت الدراسة إلى أن؛ غالبية المبحوثين يعتمدون على صحافة الهاتف المحمول في أوقات الأزمات، وتصدرت تطبيقات التواصل الاجتماعي أنواع صحافة الهاتف المحمول التي اعتمد عليها الشباب الفلسطيني في متابعة أحداث انتفاضة القدس، تلاها متصفحات المحمول، ومن ثم التطبيقات الإخبارية فالتطبيقات الصوتية والمرئية.

---

[1] هشام زقوت، "استخدام الصحفيين الفلسطينيين لتطبيقات التواصل الاجتماعي من خلال الهواتف الذكية: دراسة ميدانية"، **رسالة ماجستير**، غير منشورة (غزة: الجامعة الإسلامية، 2016م).

[2] سائد رضوان، "اعتماد الشباب الفلسطيني على صحافة الهاتف المحمول كمصدر للأخبار وقت الأزمات: دراسة ميدانية"، **رسالة ماجستير**، غير منشورة (غزة: الجامعة الإسلامية، 2016م).

ج. دراسة أماني السيد (2011)[1]: تهدف إلى التعرف على مدى توافر مقومات استخدام الهواتف المحمولة في بث المحتوى لدى مؤسسات صناعة المحتوى الرقمي العربي، ورصد أسباب التباطؤ في استخدام الهاتف المحمول في بث المحتوى لدى مؤسسات صناعة المحتوى الرقمي العربي، وتنتمي هذه الدراسة إلى البحوث الوصفية التي استخدمت المنهج الوصفي التحليلي، واعتمدت على قائمة مراجعة واستبيان، بصفتهما أدوات لجمع البيانات عن مفردات الدراسة، بالإضافة إلى اللجوء إلى مواقع المحتوى الرقمي العربي لدى الناشرين والمكتبات محل الدراسة، وتوصلت الدراسة إلى أن؛ التطبيق الفعلي لتقنية المحتوى الرقمي بدأ متأخرا في البلدان العربية بالاعتماد على الهاتف المحمول، والمحتوى الرقمي العربي المتاح من خلال الهواتف المحمولة اقتصر على المحتوى الرقمي السريع وليس الكتب العلمية، وبعض البرمجيات المستخدمة في إتاحة المحتوى الرقمي لا تزال تواجه مشكلات مع اللغة العربية.

2. الاستدلال على المشكلة وصياغة المشكلة:

بناءً على متابعة الباحث بشكل يومي لتطبيقات الإعلام الجديد بوسائلها المختلفة، بحكم عمله في الصحافة الإلكترونية خلال الخمس سنوات الأخيرة، وملاحظة الثورة التكنولوجية المتسارعة في الدول المتقدمة، إلى جانب دراسته المتخصصة في الصحافة الإلكترونية خلال حصوله على درجة الماجستير، وعمله الحالي في دراسة جديدة للتعرف على استفادة التلفزيون من الإعلام الجديد ضمن أطروحة الدكتوراه، وجد الباحث أن هذا النوع الجديد من الصحافة بدأ يستفيد من التقنيات الحديثة للهواتف المحمولة التي أصبحت لا تفارق الأيادي الشاب وأيادي رجال الأعمال، وبناء على ذلك يمكن صياغة مشكلة الدراسة في التساؤلين الرئيسيين الآتيين:

ما واقع صحافة الهاتف المحمول في الوطن العربي؟

ما مدى استخدام الشباب العربي لصحافة الهاتف المحمول في متابعة الأخبار؟

---

[1] أماني السيد، "استخدام الهواتف المحمولة في تعزيز الوصول للمحتوى الرقمي العربي: دراسة لمتطلبات النشر اللاسلكي ومقوماته"، **ورقة بحثية في مؤتمر المحتوى العربي في الإنترنت التحديات والطموحات**، منشورة (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 2011م).

3. نوع الدراسة ومنهجها وأدواتها:

تنتمي الدراسة الحالية إلى البحوث الوصفية، وتستخدم منهج المسح الإعلامي، وفي إطاره تعتمد على أسلوب مسح جمهور وسائل الإعلام، بهدف التعرف على واقع صحافة الهاتف المحمول في الوطن العربي، وكذلك التعرف على مدى استخدام الشباب العربي لهذا النوع من الصحافة في متابعة الأخبار، وذلك من خلال أداة الدراسة الرئيسية وهي صحيفة الاستقصاء الالكترونية.

4. مجتمع الدراسة وعينتها:

يتمثل مجتمع الدراسة في الجمهور العربي الذي يستخدم صحافة الهاتف المحمول ويتابع من خلالها المواضيع المختلفة سواء الإخبارية أو الثقافية أو الاجتماعية أو غيرها من المواضيع، بينما تم اختيار عينة الدراسة الحالية بطريقة العينة العشوائية وتمثلت في (100 مفردة) موزعة على الشباب العربي المقيم في تركيا، والموزعة جنسياتهم على بلدان مختلفة، وهي: (فلسطين وسوريا ومصر والعراق ولبنان والأردن والسعودية واليمن)، وتباينت مستوياتهم التعليمية ما بين الدراسات العليا والبكالوريوس ومن أقل من درجة البكالوريوس، وشكل الذكور 60 بالمئة من عينة الدراسة والإناث 40 بالمئة، وتعرف الباحث من خلالهم على واقع صحافة الهاتف المحمول في أوطانهم العربية، إلى جانب التعرف على مدى استخدامهم لهذا النوع من الصحافة في متابعة الأخبار بشكل أساسي، إلى جانب الاستخدامات الأخرى.

الإطار المعرفي والعملي للدراسة

أولاً: تطور صحافة الهاتف المحمول ومفهومها:

مع تطور المحمول في مرحلة الجيل (2.5)، تطورت إمكانياته وساعد هذا التطور على تنامي الدور الذي يلعبه الهاتف المحمول، فتطور من مجرد آلة صغيرة ينحصر دورها في تلقي المكالمات الصوتية فحسب، إلى وسيلة مزودة بوسائط متعددة وتقنيات عالية، فأصبح بإمكان المستخدم التحدث والكتابة وتبادل ملفات الصوت والصورة، وانعكس ذلك على الدور الذي يقوم به المحمول من مجرد دور اتصالي إلى دور إعلامي أيضا[1].

ودخلت الهواتف المحمولة ميدان العمل الإعلامي تدريجيا، ابتداء من خدمات الرسائل العاجلة قبل عدة سنوات، وأخذت بالتطور، حتى أصبح الهاتف المحمول مؤسسة كاملة لصناعة الأخبار، وحتى في التلفزيون يمكن من خلاله تنفيذ حوار كامل وإجراء العمليات الفنية من المونتاج والصوت والبث، فلم تعد هناك حاجة إلى مكتب وأموال[2].

وبعد إطلاع الباحث على عدة مفاهيم لصحافة الهاتف المحمول، يمكن القول إن "مفهومها الشامل والبسيط هو الصحافة التي تعتمد في عرض رسالتها الإعلامية وتقديمها للجمهور على الهاتف المحمول أو الأجهزة اللوحية والذكي[3]". وأصبح هذا النوع من الصحافة مهم بالنسبة لوسائل الإعلام التقليدية وبالتحديد صحافة الإنترنت، من خلال مراعاة عرض المواقع الإلكترونية بشكل يناسب حجم وشكل الهواتف المحمولة والأجهزة اللوحية والذكية.

---

[1] فاطمة قطب، إعلام الهاتف المحمول: سمات الحاضر وآفاق المستقبل، **دراسة منشورة**، مجلة لغة العصر، 2008، العدد (95)، ص79- 81

[2] صحيفة العرب، **صحافة الموبايل تقتحم عالم الإنتاج الإعلامي**، ص18

[3] **تعريف إجرائي من الباحث**، بناء على فهم واطلاع على مراجع علمية تحدثت بشكل موسع عن مفهوم صحافة الهاتف المحمول.

ثانيا: واقع صحافة الهاتف المحمول في العالم:

ظهرت الاستفادة من ويب المحمول في عام 2006، بظهور الجيل الثالث من الهواتف المحمولة التي تعمل على نقل مواد مرئية بدرجة عالية من النقاوة، وبالتالي يمكن استخدامه يوميا، ويدون ويسجل ويحرر الأحداث والقصص اليومية، وأيضا يمتلك القدرة على استقبال البث التلفزيوني، بالإضافة إلى أن الجيل الثالث مكن مستخدميه من الاتصال بشكل أسرع مع شبكة الإنترنت، والتي سهلت من إرسال وإجراء المعاملات البنكية والتسوق وخدمات تنزيل المواد السمعية والبصرية[1].

ثالثا: استخدامات صحافة الهاتف المحمول:

تعددت الاستخدامات لهذا النوع من الصحافة، فلم تعد تقتصر على تحقيق الوظيفة الإخبارية بل طالت وظائف عدة منها الثقافي والاجتماعي والسياسي، ويمكن القول إن صحافة الهاتف المحمول بدأت تحقق من خلال استخداماتها وظائف الاتصال والإعلامي الأساسية، ونلخص أبرز استخداماتها في الآتي:

1. استخدامات متعلقة بتلبية وظيفة الإخبار، من خلال المتابعة اليومية للأخبار والتقارير والنشرات الصحفية.
2. استخدامات متعلقة بتلبية وظيفة الإعلام والتعليم، من خلال متابعة الصفحات التعليمية المتخصصة بموضوعاتها المختلفة.
3. استخدامات متعلقة بتلبية وظيفة ترابط المجتمع، من خلال تطبيقات الهواتف الذكية ومجموعات العمل والعائلة والأصدقاء.
4. استخدامات متعلقة بتلبية وظيفة الترفيه، من خلال الألعاب والتطبيقات الترفيهية المحملة على الهواتف الذكية.
5. استخدامات متعلقة بتلبية وظيفة الرقابة، من خلال وصل الهواتف الذكية بكاميرات المراقبة، إلى جانب خلق بيئة عمل مفتوحة بواسطة الهواتف المحمولة، وتتيح للإدارة الرقابة المباشرة والدائمة على أداء العاملين.
6. استخدامات متعلقة بتلبية وظيفة الإعلان والترويج، وهو ما تقوم به الشركات المتخصصة بالإعلان والتسويق من خلال الهواتف المحمولة وتطبيقات التسوق الإلكتروني التي أصبحت منتشرة بشكل لافت في السنوات الأخيرة.
7. استخدامات متعلقة بتلبية وظيفة تكوين الآراء والاتجاهات، وذلك من خلال الحملات الإلكترونية المهتمة بقضية اجتماعية أو سياسية أو ثقافية معينة.

---

[1] البنك الدولي للإنشاء والتعمير، **تعظيم الاستفادة من الهاتف المحمول**، 2012، ص5- 6

رابعا: واقع صحافة الهاتف المحمول في الوطن العربي واستخداماتها (الإطار العملي للدراسة):

بناء على ما سبق ذكره حول صحافة الهاتف المحمول وأهميتها في تعدد استخداماتها من قبل الجماهير، جاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء على واقع هذا النوع من الصحافة في الوطن العربي، ولتتعرف على حجم استخدام الشباب العربي المتواجد بتركيا لصحافة الهاتف المحمول في متابعة الأخبار، وخاصة في ظل الأزمات التي تمر بها عدد من البلدان العربية في الوقت الراهن.

ويورد الباحث فيما يأتي، أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة الميدانية:

1. أظهرت الدراسة الميدانية أن غالبية المبحوثين يستخدمون الهواتف الذكية أو اللوحية بنسبة بلغت 80 بالمئة، فيما بلغت نسبة الذين لا يستخدمون الهواتف الذكية من المبحوثين فقط 20 بالمئة، وهو ما يؤكد أهمية التركيز على صحافة الهاتف المحمول من أجل الوصول إلى الجمهور وبالتحديد إلى فئة الشباب.
2. بينت نتائج الدراسة أن غالبية المبحوثين يستخدمون صحافة الهاتف المحمول من أجل متابعة الأخبار بنسبة بلغت 75 بالمئة من المبحوثين، تلاها في المرتبة الثانية متابعة الصفحات التعليمية بنسبة بلغت 50 بالمئة من إجمالي المبحوثين، وفي المرتبة الثالثة يستخدمون صحافة الهاتف المحمول للمشاركة في مجموعات العمل والعائلة والأصدقاء، والمشاركة في مجموعات وتطبيقات التسوق الإلكتروني، والمشاركة في الحملات الإلكترونية المهتمة بقضية اجتماعية أو سياسية أو ثقافية معينة، بنسبة بلغت 25 بالمئة من إجمالي المبحوثين، وفي المرتبة الأخيرة جاء استخدام المبحوثين لصحافة الهاتف المحمول من أجل الترفيه بنسبة قليلة بلغت 12.5 بالمئة.
3. أرجع الشباب العربي (عينة الدراسة) استخدامهم لصحافة الهاتف المحمول في متابعة الأخبار لعدة أسباب، منها: السهولة والسرعة في الوصول للأخبار بنسبة بلغت 66.7 بالمئة، والاهتمام بمتابعة الأزمات العربية والأحداث الساخنة ومتابعة كل مبحوث للأخبار المتعلقة بدولته بنسبة بلغت 50 بالمئة، بينما أرجع 16.7 بالمئة من إجمالي المبحوثين سبب استخدامهم لصحافة الهاتف المحمول في متابعة الأخبار لأغراض تتعلق بمهنتهم ودراستهم.
4. أبدى غالبية الشباب العربي (عينة الدراسة) عدم رضاهم عن واقع صحافة الهاتف المحمول في الوطن العربي بنسبة بلغت 39 بالمئة، بينما رأى 36 بالمئة من المبحوثين أن واقع صحافة الهاتف المحمول في الوطن العربي متوسطة، في حين رأى أن واقعها ضعيف وتحتاج إلى تطوير 25 بالمئة من عينة الدراسة.
5. قدم الشباب العربي عدة مقترحات لتطوير صحافة الهاتف المحمول في الوطن العربي، حيث رأت غالبية عينة الدراسة بنسبة بلغت 50 بالمئة، أنه ينبغي الاستفادة بشكل أكبر من التقنيات التكنولوجية للنهوض بواقع صحافة الهاتف المحمول في الوطن العربي، في حين رأى 35 بالمئة من المبحوثين أن تطوير واقع صحافة الهاتف المحمول العربية يكون من خلال تنظيم الجهود الحالية، وإعداد دورات متخصصة للإعلاميين حول صحافة الهاتف المحمول، وتخصيص وسائل إعلامية متخصصة ومهتمة بصحافة الهاتف المحمول، أما 15 بالمئة اقترحوا أن يتم تخصيص أقسام داخل المؤسسات الإعلامية العربية التقليدية مثل الصحف والتلفزيون والإذاعة والإنترنت، تكون مهمتها متابعة صحافة الهاتف المحمول واستثمارها لصالح الوسيلة الإعلامية.

بناء على نتائج الدراسة الميدانية، يوصي الباحث بالآتي:

1. الاستفادة بشكل أكبر من التقنيات التكنولوجية للنهوض بواقع صحافة الهاتف المحمول في الوطن العربي.
2. تنظيم الجهود الحالية العربية في مجال صحافة الهاتف المحمول والاستفادة من الدراسات البحثية بهذا الخصوص.
3. إطلاق وسائل إعلامية عربية متخصصة بصحافة الهاتف المحمول.
4. تنظيم دورات متخصصة في صحافة الهاتف المحمول لجميع الإعلاميين العاملين في المؤسسات الإعلامية العربية.
5. الاطلاع على تجارب صحافة الهاتف المحمول في بلدان العالم ونقل التقنيات الحديثة لصحافة الهاتف المحمول عند العرب.

مراجع الدراسة

(1) أماني السيد، "استخدام الهواتف المحمولة في تعزيز الوصول للمحتوى الرقمي العربي: دراسة لمتطلبات النشر اللاسلكي ومقوماته"، ورقة بحثية في مؤتمر المحتوى العربي في الإنترنت التحديات والطموحات، منشورة (الرياض: جامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلامية، 2011م).

(2) البنك الدولي للإنشاء والتعمير، تعظيم الاستفادة من الهاتف المحمول، 2012.

(3) سائد رضوان، "اعتماد الشباب الفلسطيني على صحافة الهاتف المحمول كمصدر للأخبار وقت الأزمات: دراسة ميدانية"، رسالة ماجستير، غير منشورة (غزة: الجامعة الإسلامية، 2016م).

(4) صحيفة العرب، صحافة الموبايل تقتحم عالم الإنتاج الإعلامي.

(5) فاطمة قطب، إعلام الهاتف المحمول: سمات الحاضر وآفاق المستقبل، دراسة منشورة، مجلة لغة العصر، 2008، العدد (95).

(6) هشام زقوت، "استخدام الصحفيين الفلسطينيين لتطبيقات التواصل الاجتماعي من خلال الهواتف الذكية: دراسة ميدانية"، رسالة ماجستير، غير منشورة (غزة: الجامعة الإسلامية، 2016م).

ملحق الدراسة (الاستبيان الإلكتروني)

واقع صحافة الهاتف المحمول في الوطن العربي: مدى الاستخدام في متابعة الأخبار

تأتي هذه الاستمارة في إطار دراسة علمية، لذا أرجو التكرم بالإجابة على كافة أسئلة الاستبيان بصدق، آملاً في الوصول لنتائج دقيقة تعكس الواقع الحقيقي، علماً أنّ نتائج هذه الدراسة ستستخدم لغرض البحث العلمي فقط.

1. هل تستخدم/ ين الهواتف الذكية أو الأجهزة اللوحية؟ (في حال كانت الإجابة "لا" توقف عن إجابة باقي الأسئلة مشكورا)
( ) نعم ( ) لا

2. ما مجالات استخدامك لصحافة الهاتف المحمول؟ (يمكنك اختيار أكثر من إجابة)
( ) متابعة الأخبار (في حال كانت إجابتك هذا الاختيار، أجب على السؤال رقم "3")
( ) متابعة الصفحات التعليمية ( ) الترفيه من خلال الألعاب والتطبيقات الترفيهية
( ) الرقابة والتجسس من خلال تطبيقات خاصة بهذا المجال
( ) المشاركة في مجموعات وتطبيقات التسوق الإلكتروني ( ) المشاركة في الحملات الإلكترونية
( ) غير ذلك

3. ما أسباب متابعتك للأخبار من خلال صحافة الهاتف المحمول؟ (يمكنك اختيار أكثر من إجابة)
( ) السهولة والسرعة في الوصول إلى الأخبار ( ) أسباب تتعلق بمهنتي ودراستي
( ) الاهتمام في متابعة الأزمات العربية والأحداث الساخنة
( ) متابعة الأخبار المتعلقة بدولتي، نظرا لاهتمامي أن أكون على صلة بكل ما يحدث فيها رغم تواجدي في الخارج

4. ما مدى رضاك عن واقع صحافة الهاتف المحمول في الوطن العربي؟
( ) راضي عن واقعها الحالي ( ) واقعها متوسط ( ) غير راضي، تحتاج لتطوير

5. ما مقترحاتك لتطوير صحافة الهاتف المحمول في الوطن العربي؟ (يمكنك اختيار أكثر من إجابة)
( ) تخصيص وسائل إعلامية متخصصة بصحافة الهاتف المحمول ( ) تنظيم الجهود الحالية
( ) الاستفادة بشكل أكبر من التقنيات التكنولوجية ( ) إعداد دورات متخصصة
( ) تخصيص أقسام متخصصة داخل الوسائل الإعلامية العربية تهتم بصحافة الهاتف المحمول

السمات الشخصية:

الجنس ( ) المستوى التعليمي ( ) الجنسية ( )

المؤتمر الدولي العلمي السادس للمركز الأوروبي للبحوث والاستشارات

في العلوم الإنسانية والاجتماعية تحت شعار " المستقبل بعين الحاضر والماضي"

تركيا – اسطنبول

جامعة مرمرة – كلية الإلهيات

3 - 4 / 5 / 2018

الوقف في مجال التعليم - رؤية مستقبلية

إعداد:

د/ سماح صلاح الدين شلبي

جامعة عين شمس- جمهورية مصر العربية

Email: samah.shalaby@outlook.com

Ref: 6/2018/114

ISBN 978-1-9996437-3-7

ملخص الدراسة

إذا كان الأولون من المسلمين قد حققوا سبقا بالماضي في مجال الوقف عموما، فإننا اليوم نعاني من محدودية أثر الوقف على حياة المسلمين. وعلى الرغم من الدور الهام الملموس الذي قامت به منظومة الأوقاف الإسلامية في دعم الأنشطة الدعوية والتنموية الاقتصادية والاجتماعية في الدول الإسلامية، الا ان هذا الدور شهد تراجعا وتهميشا لأسباب سياسية واقتصادية وتنظيمية عديدة.

وبعين الناظر إلى المستقبل، ركزت في هذه الدراسة على الوقف في مجال التعليم- لما له من أثر بالغ في شتى المجالات- وبدأت بنظرة تأصيلية سريعة على الوقف، ثم لمحة تاريخية للوقف على التعليم، وأنه وسيلة لتحقيق مقصد حفظ العقل، وكيف أن الغرب أخذ فكرة الوقف ، وطورها مما ضمن له جودة في التعليم ومخرجاته واستعرضت أهم التحديات التي تعرقل الاستفادة من الوقف في مجال التعليم، وخلصت إلى مجموعة من المقترحات والتوصيات لتطوير أدواته.

والله أسأل التوفيق والسداد.

مقدمه

تمهيد

ما اهتمت أمة بالعلم والعلماء إلا وسادت وعلا نجمها، وما أهملته أخرى وأعرضت عنه إلا وجر عليها وبالاً عظيماً. إن المتأمل في نصوص الشريعة يجد الحث والحرص على العلم وطلبه، والتشجيع عليه وبيان فضل طالبه ومعطيه، إن العلم والتعليم يعد ضرورة ومقصداً من مقاصد التشريع الإسلامي التي أمرنا بحفظها (حفظ العقل) –ايجاداً –.

لقد كان لنظام الوقف في الإسلام دور بالغ الأهمية في صناعة الحضارة الإسلامية والنهضة الشاملة للأمة في شتى جوانب الحياة، فلم يقتصر على البشر فقط، بل امتد أثره ليشمل الدواب والطيور في سابقة لم تعرف إلا في الإسلام فقط.

ويعد نظام الوقف على التعليم – بصفة خاصة – العنصر الأكثر فاعلية في كل ما تحقق من نهضة علمية واسعة شهدها العالم الإسلامي، فبالعلم تبنى الأمم وترقى، وبدونه تنحط، ويتبع ذلك اخفاق في كافة المجالات.

أهمية الدراسة

من هنا كانت أهمية الدراسة بتفعيل الوعي بأهمية الوقف على التعليم، وأنه يحقق مقصد حفظ العقل في الشريعة الإسلامية. بالرغم من أن الوقف التعليمي سبق إسلامي إلا أن الغرب فعله، وطوره، وأتى بثماره. الوقف على التعليم يقضي على مشكلات التعليم

إشكالية الدراسة

ركزت في هذه الورقة البحثية على أهم ما يعيق تطبيق الوقف التعليمي في عالمنا الإسلامي وقدمت بعض المقترحات دامجة بين الشرع وعلم الإدارة، فإن وفقت فمن الله وإن كانت الأخرى فمن نفسي والشيطان.

منهج البحث

اتبعت المنهج الاستقرائي والاستنباطي، دون استقصاء أو شرح تفصيلي فقهى للوقف، بل اقتصرت على ما يخدم الوقف التعليمي (محور الدراسة).

خطة البحث

قسمت الورقة البحثية إلى مقدمة اشتملت على تمهيد، أهمية الدراسة، إشكالية الدراسة، منهج الدراسة وخطة الدراسة ومطلبين وخاتمة تضمنت أهم النتائج، وثبتاً للمراجع.

المطلب الأول: نظرة تأصيلية عامة على الوقف

أولا: تعريفه–حكمه–مشروعيته–أنواعه

ثانيا: تعريف الوقف التعليمي

–الوقف التعليمي وسيلة لتحقيق مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية

–لمحة تاريخية للوقف على التعليم

–الوقف التعليمي بين الشرق والغرب

المطلب الثاني: الفرص المتاحة ومقترحات تطوير أدوات الوقف في مجال التعليم

الخاتمة والنتائج

المطلب الأول: نظرة تأصيلية عامة على الوقف

أولا: تعريف الوقف وحكمه ومشروعيته وأنواعه

–تعريفه

أجمع الفقهاء في الوقف على كون غرضه قربة لله تعالى، وهو عبادة مالية مستمرة، وبنيت أحكامه على الاجتهاد (1)

والوقف لغةً: يقال له الحبس، والتحبيس، والتسبيل، والمراد الحبس والمنع عن التصرف (2)

اصطلاحاً: تعددت عبارات الفقهاء في تعريف الوقف واختلف المضمون في كثير من الأحيان، وذلك تبعاً لاختلافهم في لزوم الوقف، وعدم لزومه، ومصير العين الموقوفة، فكل منهم يعرفه تعريفا ينسجم مع آرائه في مسائله الجزئية.

فأبو حنيفة يقول: "حبس العين على ملك الواقف، والتصدق بالمنفعة" (3) فهو يرى الوقف في حقيقته تبرع بالمنفعة دون العين.

وقد خرج الحنابلة من هذا الخلاف بقولهم: "هو تحبيس الأصل، وتسبيل المنفعة" (4).

وقال د/منذر قحف: "الوقف هو تحبيس مؤبد أو مؤقت لمال، للانتفاع المتكرر به، أو بثمرته، في وجه من وجوه البر"(5)

– حكمه

الجمهور على أن الوقف جائز شرعاً بل ومندوب إليه (6)

– مشروعيته

دلت على مشروعيته نصوص عامة من القرآن الكريم، وفصلته أحاديث من السنة النبوية، وعمل به الصحابة رضوان الله عليهم كونه من القربات المستمرة. قال تعالى:(لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) آل عمران 92

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن عمر بن الخطاب أصاب أرضاً بخيبر، فأتى النبي ﷺ يستأمره فيها فقال: يا رسول الله إني أصبت أرضاً بخيبر لم أصب مالاً قط أنفس عندي منه، فما تأمر به؟ قال: "إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها"(7) ومنه وقف عثمان ﷺ لبئر رومه وجعلها عامة للمسلمين (8)

وقد أجمعت الأمة على صحة الوقف "لم يكن أحد من أصحاب النبي ﷺ ذو مقدرة إلا وقف"(9)

–أنواعه

هي متعددة بتعدد الاعتبارات

وشاع تقسيمه إلى: الوقف الخيري أو العام: ويصرف ريعه إلى جهات البر

الوقف الأهلي أو الذري: لمنفعة الواقف وأهله وذريته

الوقف المشترك: ما يجمع بين النوعين السابقين (10)

ثانيا: الوقف التعليمي

عرفه د/أنور الشلتوني قائلاً "هو تحبيس الأصول على منفعة الجوانب العلمية والتعليمية، كوقف المكتبات ونسخ الكتب ونسخ المصحف، ووقف المدارس وحلقات العلم، والمتعلق بالمتعلمين والمعلمين ونفقاتهم، ووقف القراطيس، والأحبار والأقلام ونحوه مما يحتاجه العلم والتعلم"(11)

وقيل هو "تحبيس مالك، مطلق التصرف، ماله المنتفع به، مع بقاء عينه، بقطع تصرف الواقف وغيره في رقبته، يصرف ريعه إلى جهة علمية، تقرباً إلى الله تعالى "والجهة العلمية قد تكون مدرسة أو جمعية علمية أو على الأئمة والمدرسين وغيرهم. (12)

وعرف بأنه "حبس رقبة مال، وتسبيل منفعته، في ترقية الأمة علمياً وتحقيق مقصدها في التمدن (13)

فكل التعاريف تصب على كل ما يوفر الدعم لبرامج وأنشطة التعليم، والدعم للمعلم والمتعلم.

ثالثا: الوقف التعليمي وسيلة لتحقيق مقصد الشريعة الإسلامية لحفظ العقل

من الضروريات حفظ عقول الناس من أن يدخل عليها خلل لأن ذلك مؤدٍ إلى فساد عظيم، فدخول الخلل على عقل الفرد مفضٍ إلى فساد جزئي، ودخوله على الجماعات وعموم الأمة أعظم.

وما نراه الآن في مؤسساتنا التعليمة يدل على خلل بين لابد معه من وقفة إصلاحية، ولن يتأتى ذلك إلا بالوقف على التعليم الذي طبقته المؤسسات التعليمية في الغرب فأصبح لها الريادة.

فالوقف على التعليم سيحقق ذلك المقصد–حفظ العقل–وجوداً. (14)

رابعا: لمحة تاريخية للوقف على التعليم

ما من أمة تجد في التعليم ضالتها إلا وهيئت لها أسباب الحضارة والرقي. "وكما أن للفرد دور في طلب العلم وتحصيله، فإن للأمة والدولة أدواراً في جعل العلم ميسراً، مذللا للطالبين، والسياسة الشرعية تقضي أن يقدم ولاة أمر الرعية ما يكفل لهم أن يقدموا على العلم ولا يحجموا"(15)

كانت المساجد أول وقف في الإسلام، فكان مسجد قباء ثم المسجد النبوي نعم الدارين لتعليم المسلمين شؤون دينهم، ثم تلا ذلك وقف المساجد في كافة البلدان لحفظ القرآن وتعلم الحديث وتدريس الفقه، فكانت المساجد تعج بحلقات العلم وطالبيه. (16)

ووجد الكتاب وهو صورة مصغرة من المدرسة، يعنى بمبادئ العلوم، وخصوصاً اللغوية والشرعية، وكان منها ما هو ملحق بالمسجد، ومنها ما يستقل. ذكر صاحب معجم البلدان "أما أوقاف العلم فقد ذكر بعض المؤرخين أنها وجدت في عصر الصحابة، وكانت من الكثرة بحيث عد ابن حوقل ثلاثمائة كتاب في مدينة واحدة من مدن صقلية"(17)

وظهرت المدارس وشمل التعليم فيها جميع الفئات الاجتماعية من الرجال والنساء والمماليك، واللقطاء، والأيتام، والبوابين وغيرهم كل ذلك بفضل شروط الواقفين لها ."ثم قامت المدرسة بجانب الكتاب والمسجد، وكانت الدراسة فيها تشبه الدراسة الثانوية والعالية في عصرنا...كان التعليم فيها مجانياً ..ولم يكن التعليم محصورا بفئة معينة....كان يجلس فيها ابن الفقير بجانب ابن الغني...وكانت الدراسة على قسمين قسما داخلياً للغرباء والذين لا تساعدهم أحوالهم المادية وقسما خارجياً لمن أراد العودة لبيت أهله ..أما القسم الداخلي فكان بالمجان أيضاً"(18)

وكثرت المدارس الوقفية كالمدرسة الصالحية، والظاهرية، والمنصورية في مصر وكانت المنصورية تدرس الطب خاصة. "ومما يجلّي دور الوقف في دفع عجلة التقدم العلمي والتعليم في تاريخنا الحضاري كثرة المدارس الوقفية ففي بغداد في (القرن 6هـ) بلغ عدد مدارسها (300 مدرسة) وفي الفترة ذاتها بلغ عدد مدارس دمشق (20 مدرسة) وفي القاهرة في (القرن 9هـ) بلغ عدد المدارس فيها (63 مدرسة) وفي مكة المكرمة في نفس الفترة بلغ عدد المدارس بها (11 مدرسة)، أمّا في صقلية الإسلامية فقد بلغ عدد مدارسها الوقفية (300 مدرسة) وكان التعليم فيها متاح للغني والفقير والغريب مع إيجاد السكن والطعام والمطالعة."(19)

وكان للمكتبات الوقفية دور جليل في توفير الكتب، وأدوات النسخ، والإضاءة، وقاعات المطالعة، والسكن والإعاشة. "إن مكتبات مصر قد خصصت لأهل العلم من الغرباء المأوى والمال لإصلاح الحال، والحمامات والعلاج والخدم لخدمتهم (20)

ذكر ابن كثير في البداية والنهاية في حوادث سنة إحدى وثلاثين وستمائة" فيها كمل بناء المدرسة المستنصرية ببغداد، ولم يبن مدرسة قبلها مثلها، ووقفت على المذاهب الأربعة، من كل طائفة اثنان وستون فقيهاً، وأربعة معيدين، ومدرس لكل مذهب وشيخ حديث، وقارئان، وعشرة مستمعين، وشيخ طب، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب، ومكتب للأيتام، وقدر للجميع من الخبز والحم والحلوى والنفقة ما فيه كفاية وافرة.. ووقفت خزائن كتب لم يسمع بمثلها "(21)

قال ابن جبير "تكثر الأوقاف على طلاب العلم في البلاد الشرقية كلها، وبخاصة دمشق، فمن شاء الفلاح من أبناء مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد، فيجد الأمور المعينة على طلب العلم كثيرة، وأدلها فراغ البال من أمر المعيشة"(22)

خامسا: الوقف التعليمي بين الشرق والغرب

كان للشرق اليد العليا والريادة في الوقف عامة، والوقف على التعليم خاصة، لما في ذلك من تحقيق رقي وحضارة، بل واستثمارا للمستقبل للواقف والموقوف عليه. فكانت الحركة العلمية والتعليمية في أوجها، وكان التميز في التعليم سمة تلك الفترة، "فالوقف دائما ملازم للتميز حقيقة أدركها المسلمون الأوائل، فلما أرادوا التميز اتجهوا إلى التعليم، ولما كان الوقف ملازماً للتميز فقد كانت أوقافهم على التعليم سبباً كبيراً في نهضة الأمة"(23)

لقد أسهم الوقف بحق وجدارة في تحقيق النهضة العلمية والفكرية، وتعزيز التقدم المعرفي، وتهيئة الظروف الملائمة للإبداع الإنساني نتيجة للتسهيلات والأسباب التي وفرها واقفوا المدارس للعلماء وطلاب العلم الذين كانوا على ثقة تامة بأنهم سيجدون سبل الحياة الكريمة حيثما حلوا"(24)

لقد وجد الغرب ضالته في الوقف لإصلاح التعليم، فتبنوا الفكرة وطوروها، بل ووضعوا له الأنظمة التي تحميه وتجعله مستقلاً، فالجامعات الأكثر تميزا في العالم هي جامعات لها أوقافها الخاصة، كجامعة هارفارد، بيل، تكساس، ستانفورد وغيرها الكثير ممن أدرك أن التعليم أقوى سلاح يمكنك استخدامه من أجل تغيير العالم.

إن الناظر لمؤسساتنا التعليمية الآن يجد من المشاكل، والقصور المتعلق بالمنهج، والتلميذ، والمعلم، والقيادة المدرسية، والمنتج التعليمي ما لا يتناسب مع التكاليف الكبيرة التي تصرف عليه. فهو إما أن يختار بين ركاكة التعليم الحكومي، أو جشع التعليم الخاص، وفي النهاية مخرج تعليمي خاوٍ. إن الوقف على التعليم ثروة كبيرة تأخر طرحها كثيراً ولا بد من تفعيلها ليرق تعليمنا ومعلمونا ومتعلمونا.

المطلب الثاني: الفرص المتاحة ومقترحات تطوير أدوات الوقف في مجال التعليم

الشراكة مع الأجهزة الحكومية والقطاع الخاص

تعد مخصصات قطاعي التعليم والصحة من أعلى بنود الإنفاق بالموازنات العامة لأغلب دول العالم في السنوات الأخيرة. وتلجأ الدول عادة الى التركيز على بناء المنظومة القانونية والتنظيمية لقطاع التعليم، والاكتفاء بتقديم خدمات التعليم الأساسي للمراحل العمرية المبكرة. وتعتمد كثيرا من الدول على القطاع الخاص للمساهمة في توفير الخدمات التعليمية التي يحتاجها المجتمع. وبالطبع فإن المخرجات التعليمية الناتجة من مساهمات المؤسسات التعليمية الخاصة تتأثر بمعايير الربح والخسارة. وعادة ما يؤثر ذلك في تحويل العملية التعليمية إلى اتجاه ربحي نفعي خاص دون التركيز على المخرجات التعليمية سواء من الناحية الكيفية أو الكمية.

من هنا كانت الفرصة في تنامى دور المبادرات الوقفية إلى جانب الدولة والقطاع الخاص لتصبح أحد ركائز المجتمع المعاصر في تطوير الخدمات التعليمية. وقد شهد العالم الإسلامي والغربي الكثير من المبادرات الوقفية في مجال التعليم، ولعل أوقاف جامعة الملك سعود (25)، وأوقاف جامعة هارفارد، ووقف بيل ومليندا جيتس من أهم التجارب الرائدة في هذا المجال. حيث تجذرت رغبات التآزر لمساعدة شرائح اجتماعية مختلفة لتصبح جزءا من المشهد الاجتماعي والاقتصادي في العديد من الدول (26).

وقد ساعدت المؤسسات الوقفية على توجيه الخدمات التعليمية لدعم تخصصات معينة في مجالات مهمة غير مطروقة بالرغم من أهميتها. ويساهم الوقف التعليمي بفاعلية ومرونة في إخراج منظومة التعليم من دائرة الاستثمار والربح والتجارة ويعيد بناء قيم الأمة والإنسانية.

آفاق عالمية لتحديات محلية

لقد عززت كثير من الدول بناء الإطار القانوني والتشريعي الذي يمنح الفرصة والمجال أمام المؤسسات الوقفية والخيرية للمساهمة في التنمية الاجتماعية والأنشطة الخيرية. وعلى سبيل المثال، فقد شملت مسودة الدستور الأوربي ثم الميثاق الأوربي فيما بعد، إدراج العمل التطوعي كأحد الأنشطة الاجتماعية الاستراتيجية لدول المجموعة الأوروبية. وقد تطورت في السنوات القليلة الماضية مساهمة الشركات العملاقة ضمن إطار مسؤولياتها المجتمعية بوقف جانب من أرباحها في أعمال التنمية المجتمعية ودعم الأنشطة التعليمية والبحثية والصحية وكافة أوجه الأنشطة الخيرية.

ولعل ذلك ينبه إلى ضرورة تطوير الوقف الإسلامي لمواكبة ما يحدث في العالم غير الإسلامي من تطورات إيجابية، والخروج من دائرة النشاط المحلي دون التفاعل الدولي. ومن الجدير بالملاحظة أن الإجراءات القانونية في كثير من دول العالم تفتح الطريق على

مصراعيه لإمكانية إنشاء مؤسسات وقفية إسلامية عالمية، يمولها المسلمون الأفراد وكذلك الشركات الإسلامية العملاقة التي تستطيع تخصيص جزء من أرباحها لدعم الوقف في مجال التعليم.

لقد نجح العمل التطوعي الغربي في استثمار مظاهر العولمة وما يتبعها من تغيير في التشريعات والقوانين تسمح بإنشاء منظمات أهلية ذات صبغه عالمية. لقد أصبحت أغلب الدول تتبني سياسات الانفتاح الاقتصادي والاجتماعي، إضافة إلى تطور في المناخ التشريعي والسياسي. مما يتيح فرصة هائلة أمام العمل الوقفي في الشراكة الفاعلة في بناء المجتمع وتجاوز عقبات الماضي الناجمة عن التقلبات السياسية المحلية أو الإقليمية أو مزاجية الأفراد ومحدودية الافاق.

تعزيز فاعلية وقدرات المؤسسات الوقفية في مجال التعليم

تعتمد المؤسسات التعليمية الوقفية الغربية على الفصل بين إدارة الشركة ومالكيها ومساهميها. وتزاوج في هيكلها التنظيمي بين مجالس الإدارة ومجالس الأمناء من ناحية، ومن ناحية أخرى توظف إدارة تنفيذية تضم عناصر متميزة من المديرين التنفيذيين المحترفين في مجالات الإدارة والتعليم والاستثمار والتسويق والمحاسبة. الأمر الذي مكنها من تطوير أعمالها ومنحها التجدد والتحسين المستمر بمنهج علمي وعملي. ومنحها الاستمرارية والرسوخ بمرور الوقت، وشكل لها قاعدة كبيرة من الخبراء والاستشاريين مستفيدة من التراكم التدريجي للخبرة الوقفية في مجال التعليم، وسمح لها بنقل وتبادل الخبرات بين المؤسسات الرائدة بصورة متميزة.

وبتطبيق هذا الهيكل على المؤسسات الوقفية التعليمية في الغرب، استطاعت العمل وفق أنظمة حوكمة منحتها الرشاد والثقة والمصداقية أمام جميع أصحاب المصالح المرتبطين بها من مؤسسين ومتبرعين ومستفيدين من خدماتها وحتى العاملين بها. ففضلا عن خضوع هذه المؤسسات للسلطات الرقابية التشريعية للدولة التي تعمل بها من حيث النشاط، فان المحاسبة المالية والتدقيق السنوي وفق معايير دولية أسس لانضباطها المالي والاستثماري. وإضافة الى ذلك، فان أنظمة العمل الداخلية توزع مسؤوليات الخطط الاستراتيجية على مجلس الإدارة، وخطط التمويل والاستثمار على مجلس الأمناء، والخطط التنفيذية على الإدارة المسؤولة عن الاعمال اليومية للمؤسسة. وقد ساعد هذا الهيكل التنظيمي الدقيق على تركيز كل في موقعه وقبوله للمحاسبة ضمن إطار مسؤولياته.

ولعلها فرصة إضافية للمؤسسات الوقفية الإسلامية أن تتجاوز الضعف الهيكلي في تنظيمها واعتمادها على الخبرات المحدودة والانتقال إلى احترافيه أعمالها وتوسيع رؤيتها وقدراتها واستلهام النجاح الذي تحقق من مؤسسات وقفيه تعليمية عريقة مثل جامعة هارفارد (27)، والمسلمون بذلك أحق وأولى.

الابتكار في تعزيز الموارد المالية للوقف في مجال التعليم

مما لا شك فيه، أن البناء التنظيمي الذي يتمتع بشفافية وانضباط في الأداء يمنح ثقة الداعمين من الواقفين والمتبرعين. وأن الحرص على استخدام الأوقاف من الأصول والموارد في دعم الغرض من الوقف، سيؤسس لمزيد من الثقة للحصول على موارد إضافية تمكن المؤسسات الوقفية من تعزيز مواردها المالية وتوسيع دائرة أنشطتها بصورة متنامية.

وتحتاج المؤسسات الوقفية الى الابتكار في الحصول على موارد مالية لأعمالها، تتضمن على سبيل المثال التركيز على تنامي اهتمام الشركات والكيانات التجارية بالوفاء بمسؤولياتها الاجتماعية. وتستطيع المؤسسات الوقفية الترويج للحصول على مخصصات من عائدات بسيطة من أرباح تلك الشركات لتكون وقفا في مجال التعليم أو البحث العلمي المتعلق بنشاط الشركات أو قريبا منها. إن المؤسسات الإسلامية في حاجة إلى الخروج عن الصورة النمطية التقليدية في تنمية الموارد المالية للأوقاف، وذلك من خلال الابتكار في الأساليب والمفاهيم المتعلقة بالترويج لأهمية الأعمال التي تقوم بها المؤسسات الوقفية وربطها بحاجات المجتمع وتطلعاته واهتماماته.

توسيع نطاق المخرجات التعليمية للمؤسسات الوقفية

إن المجتمعات المسلمة في حاجة إلى أن تولى اهتماما بأنماط مخرجات تعليمية جديدة. ولابد أن يحدث تلاحم وشراكة حقيقة بين مكونات المجتمع في دعم أنشطة البحوث والتطوير والابتكار في كافة المجالات. ويجب الاستفادة من الإرث الغربي في دعم جهود الابتكار والتطوير، وتبنى العقول والمبادرات التي تساهم بأفكارها في خلق قيم مضافة لتنمية المجتمع وزيادة قدراته وتطويره اقتصاديا واجتماعيا. ويجب تطوير وتوسيع نطاق المخرجات التعليمية عن الصورة التقليدية للمنح الدراسية أو الأبنية التعليمة، والتركيز على العقول والأفكار والمبدعين من أفراد أو شركات ناشئة على أيدي يانعة.

إن للمؤسسات الوقفية في مجال التعليم إمكانية فريدة للتوجيه غير المباشر للتعليم في مجالات غير مطروقة بالرغم من أهميتها لبناء الأمة وتعزيز قيمها الإنسانية والحضارية. ولعل ضغوط الحياة الاقتصادية والاجتماعية تنحا بالتعليم إلى مسالك تتعلق بالمسارات العلمية مثل الهندسة والطب والعلوم والتكنولوجيا وإدارة الأعمال وغيرها. وتفتقد الأمة إلى التوازن في تخريج أجيال من العلماء والمفكرين والمتخصصين في العلوم الإنسانية والاجتماعية. وتستطيع المؤسسات الوقفية التعليمية على إعادة هذا التوازن بثقلها ودعمها لهذه المجالات وفق دراسات مسبقة دقيقة تساعد على ترتيب أولويات الدعم والتركيز بصورة سليمة.

النتائج والتوصيات

1- الوقف في مجال التعليم وسيلة لتحقيق مقصد الشريعة الإسلامية لحفظ العقل.

2- كان للشرق اليد العليا والريادة في الوقف عامة، والوقف على التعليم خاصة.

3- الوقف على التعليم ثروة كبيرة تأخر طرحها كثيراً ولا بد من تفعيلها ليرق تعليمنا ومعلمونا ومتعلمونا.

4- الوقف على التعليم يؤدي إلى استقلال العلماء .

5- الوقف في مجال التعليم أحد ركائز المجتمع المعاصر في تطوير الخدمات التعليمية إلى جانب الدولة والقطاع الخاص.

6- الوقف على التعليم يقضى على الآثار السلبية للتعليم الاستثماري الخاص.

7- يجب استغلال التطورات الإيجابية للانفتاح الاقتصادي العالمي، بإنشاء مؤسسات وقفية أهلية ذات صبغه عالمية.

8- أهمية تعزيز فاعلية وقدرات المؤسسات من خلال عناصر متميزة من المديرين التنفيذيين المحترفين في مجالات الإدارة.

9- ضرورة الابتكار في تعزيز الموارد المالية للوقف في مجال التعليم والاستفادة من تنامي اهتمام الشركات والكيانات التجارية الكبرى بالوفاء بمسؤولياتها الاجتماعية.

10- أهمية توسيع نطاق المخرجات التعليمية للوقف في مجال التعليم لتشمل أنشطة البحوث والتطوير والابتكار، ورعاية وتبني المواهب والعقول والأفكار والمبدعين من أفراد أو شركات ناشئة.

11- يمكن للوقف التعليمي القيام بدو رائد في التوجيه غير المباشر للتعليم في مجالات غير مطروقة وتحتاجها الأمة.

الهوامش

(1) أحكام الوقف د/مصطفى الزرقا ص19 ط 2 دار عمار 1998

(2) انظر محيط المحيط بطرس البستاني مادة "وقف" مكتبة لبنان –بيروت 1977، لسان العرب ابن منظور ط3 دار صادر بيروت، التعريفات للشريف أبو حسن الجرجاني ص248 ط2 دار الكتب العلمية بيروت

(3) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق عثمان بن علي الزيلعي 325/3 ط2 دار الكتاب الإسلامي –بيروت، وانظر لبقية التعريفات بلغة السالك لأقرب المسالك أبو العباس أحمد بن مُحَّد المالكي 98/4 دار المعارف، تحفة المحتاج بشرح المنهاج احمد بن مُحَّد بن حجر الهيثمي 235/6 دار الفكر

(4) المقنع في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني موفق الدين بن قدامة المقدسي 307/2 دار صادر –بيروت

(5) الوقف الإسلامي تطوره، إدارته، تنميته د/منذر قحف ص 62 ط2 دار الفكر –دمشق

(6) انظر تفصيل ذلك الأم أبو عبد الله بن ادريس الشافعي 274/1 دار الفكر –بيروت، المبسوط شمس الدين أبو بكر مُحَّد بن أحمد السرخسي 12/27 دار الدعوة، زاد المستقنع في اختصار المقنع أبو النجا شرف الدين المقدسي 141/1 دار الوطن – الرياض، حاشية الصاوي 98/4 وما بعدها

(7) أخرجه البخاري –كتاب الوصايا –باب الوقف

(8) انظر موسوعة أحاديث أحكام المعاملات د/همام سعيد وولده نص رقم 1773

(9) المغني موفق الدين أبو مُحَّد عبد الله بن احمد بن قدامه 186/8 دار الفكر

(10) انظر الوصايا والوقف في الفقه الإسلامي د/وهبة الزحيلي ص 140 ط2

(11) التدابير الشرعية لإعادة الوقف العلمي إلى دوره الفعال في النهضة العلمية للأمة د/أنور مُحَّد الشلتوني ص4 بحث مقدم لمؤتمر أثر الوقف الإسلامي في النهضة العلمية –جامعة الشارقة 2011

(12) الاجتهاد المقاصدي في نوازل الفقه–الوقف العلمي نموذجا–د/عبد الرحمن معاشي– ص 5 جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية–قسنطينة www.univ-emir-dz

(13) نموذج مقترح لإنشاء صندوق الوقف التعليمي د/محمود عبد الكريم أرشيد ص 684 مؤتمر تجليات حركة التاريخ في مدينة نابلس

(14) انظر مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية د/مُحَّد سعيد أحمد ص 235 وما بعدها ط1 1998 دار الهجرة – الرياض

(15) التدابير الشرعية للشلتوني ص 1

(16) انظر من روائع حضارتنا د/ مصطفى السباعي ص 205 وما بعدها دار الوراق للنشر والتوزيع 1999، وانظر المسجد ودوره في التربية والتوجيه د/صالح السدلان ص 47 ط1 دار بلنسيه الرياض 1415

(17) معجم البلدان ياقوت الحموي 417/3 دار صادر –بيروت، وانظر من روائع حضارتنا ص 206

(18) من روائع حضارتنا ص 206،207

(19) دور الوقف في العملية التعليمية د/عبد الله المعيلي ص719 –بحث مقدم لندوة مؤتمر الوقف وأثره في الدعوة والتنمية– مكة المكرمة 1420هـ، وانظر معجم البلدان 417/3

(20) رحلة ابن جبير ص 32 دار صادر– بيروت

(21) البداية والنهاية – إسماعيل بن عمر بن كثير – 164/13 – درا الفكر بيروت

(22) رحلة ابن جبير

(23) الوقف على التعليم في الغرب د/إبراهيم مُحَمَّد الحجي www.waqfonline.net

(24) من روائع حضارتنا – ص 207

(25) أوقاف جامعة الملك سعود – http://endowments.ksu.edu.sa/ar

(26) "تطوير مؤسسة الوقف: دروس من التجربة الوقفية الغربية" – https://elasrag.wordpress.com – حسين عبد المطلب الأسرج

(27) Harvard's endowment – https://www.harvard.edu/about-harvard/harvard-glance/endowment

المؤتمر الدولي العلمي السادس للمركز الأوروبي للبحوث والاستشارات

في العلوم الإنسانية والاجتماعية تحت شعار " المستقبل بعين الحاضر والماضي"

تركيا – اسطنبول

جامعة مرمرة – كلية الإلهيات

3 - 4 / 5 / 2018

ذاكرة الحب المتجددة بمذاق الفنون التشكيلية

إعداد:

أ/ مروى الورشفاني

جامعة كلية الفنون الجميلة - تونس

Email: werchefanimarwa@gmail.com

Ref: 6/2018/117

ISBN 978-1-9996437-3-7

الملخص

اللون في ظاهره وسيط مادي يعتمده الفنان التشكيلي في عمله ليترجم به أفكاره ، ولكن في تحليله أبعاد نفسية وعاطفية كامنة في لاوعيه على امتداد الأزمنة، فاللون حاضر في طيات ذكريات الماضي، وهو يملئ مكانه في حاضر الفنان على اعتباره زمن تشكيل العمل (الحاضر)، ويستبق الزمان عند معالجة فكرة استيطيقية فيها من الخيال القدر الكبير، وهو فرصة يستغلّها الفنان في مقاومة معوّقات الحياة من خلال بحثه عن الحب وعن حقيقة أفضل من التي أدركها، في زمن أفضل من الزمن المعاش .

فاللون مواكب لتواتر الأزمنة من خلال ارتباطه بالمشاعر ومدى تأثيره على العاطفة باعتبارها المؤسس الرئيسي للعلاقات، لتكون للون ذاكرة تؤسس لأنبل العلاقات وأسماها ألا وهي الحب.

الحب الذي ينشئ للقلب تاريخا طويلا من العجائب المتناقضة، أساسها الخيال، حتى تَبرُز الأحلام في عينيْ الفنان وهو يقضان بعقل و بوعي ، ليبقى هاجسه الوحيد هو خلق نوع جديد من العلاقات يكون فيها اللونُ سيّدًا، يُضفي على الحب بعدا آخر، ينطلق من فلسفة اللون ليصل إلى فسيفساء من المعاني.

مقدمة

الحب موضوع يعايش الأزمنة أزلي (عشناه ونعيشه سوف نعيشه)، هو فعل مستمر في الزمن، يمتاز بصيرورته، هو مقاوم لكل الظروف الصعبة التي تعترض الفرد بصفة عامّة، والفنان التشكيلي على وجه الخصوص.

تطرقت العديد من النظريات العلمية والكتابات الأدبية والفلسفية لموضوع الحب وحلّلته كمفهوم وفكرة، ولكن طريقة التناول والمعالجة مختلفة، كما أنّه ما من نتائج نهائية و لا خلاصات ثابتة، لأن الحب فكرة تتجدد مع تجدد الثقافات والقيم والظروف شأنها شأن الفلسفة "لا أعلم أن الفلسفة تحظر الحب على أهلها، بل الذي أعلمه أن الفلسفة حب كلها. وليس اسمها إلا لفظا من ألفاظ الحب"[1]

وسنستغل هذه الفرصة لتناول نظرية أخرى تكون فيها الألوان المحرّك الرئيس لعلاقات الحب والعاطفة وهي ما أطلق عليها عالم النفس الأمريكي الشهير "جون لي" في السبعينيات الميلادية نظرية "ألوان الحب"، والتي تصنّف الحالات التي يتجسدها الإنسان في علاقته وتضع كل تصرفاته في إطار معين،كما أنها تختلف باختلاف الجنس، فتراها تفرز كل مرة لونا مختلفا من ألوان الحب التي لا تخضع لقواعد وقوانين ثابتة، بل هي متغيرة تغير الفرد باعتباره كتلة من المشاعر والأحاسيس ، ومختلفة اختلاف النشأة والمحيط .

[1] طه حسين، ألوان، دار المعارف للطباعة والنشر بمصر 1958

ارتباط اللون بانفعالات الفنان التشكيلي

تكون المنجزات الفنية ترجمة لإفرازات نفسية عاشها الفنان في الماضي، أو محاولة منه للهروب من هذا الماضي والعيش في الحاضر الذي رُبّما يُشعره بأكثر طمأنينة، أو تشكيلات فنية تخترق الزمن الحاضر وترنو إلى آخر أفضل وأحسن، أي في مستقبل يتقاطع مع الأزمنة أو يتواصل معها ، فهي نقطة هروب مشروعة للفنان.

من هنا نستغل خبرتنا في مجال الفن التشكيلي لنشُدَّ على أهمية اللون كبعد إضافي يمنح الفنان معاني لا متناهية للتعبير عن ما يولج بخاطره من هواجس ومواضيع وأفكار يرنو معالجتها. فباللون يوقَظُ الإحساس، ويَنمو الشعور ويُبهَر النظر. اللون هو المتطفّل على العواطف و المستفز للنفوس باعتباره المسيطر على ملكة الإدراك عبر حاسة البصر، فهو الذي يخترق العين ويتسرّب إلى أن يصل إلى العقل(الفكر) والقلب (الوجدان). من أجل ذلك لا بد وأن نتعرف على ماهية اللون ونتعمق في صفاته وخصائصه وتأثيراته لنتمكن من استخدامه بأسلوب واعٍ في تنفيذ موضوعاتنا الفنية.

تعريف اللون

لغة: صَفةُ الجسم من السَّواد والبياض والحمرة وغيره[1]

اصطلاحا: اللون هو إحساس تعكسه لنا العين نتيجةً لتحليل الضوء الأبيض، وهو صفة وأثر ينتج من شبكية العين فتقوم بتحليل ثلاثي اللون لمن يشاهده، سواء كان لون صبغي أو ضوئي، وهو عامل من عوامل تقدير الأشياء وإضافة التباين بينها.

إن الألوان بمعنى الكلمة هو ذلك التأثير الفسيولوجي (أي الخاص بوظائف أعضاء الجسم) الناتج عن شبكة العين، سواء كان ناتجاً عن المادة الصباغية الملونة أو عن الضوء الملون. فهو إذاً إحساس وليس له أي وجود خارج الجهاز العصبي للكائنات الحية، هذا التعريف الجوهري لا يجب أن يضيع من أذهاننا.

من وجهة نظر الفزيائيين (وهو احساس ليس له وجود خارج الجهاز العصبي للكائنت الحيه والانسان منها على وجه الخصوص والمسطحات عموما لها خاصية امتصاص بغض اشعاعات الضوء[2] وكلمة «لون» يطلقها الفنانون التشكيليون وكذلك المشتغلون بالصباغة وعمال المطابع، ويقصدون بها المواد الصباغية التي يستعملونها لإنتاج الألوان. أمّا علماء الطبيعية فيقصدون بكلمة لون، تلك الأشعة الملونة الناتجة عن تحليل الضوء (الطيف الشمسي مثلاً أو غيره من أطياف مصابيح الكهرباء المختلفة).

[1] https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar

[2] http://shamsfinearts.blogspot.com/p/blog-page.html

خصائص اللون

إن الألوان تحيط بنا من كل جانب فنحن نتعايش معها في كل يوم، ونستمتع بجمالها في كل نظرة، ولا نتصور كل ما يحيط بنا بدون ألوان ،ولا نتخيل ما تكون عليه صورة ما نراه عند فقدانه للّون.

يُمَيَّزُ اللون بثلاث خصائص قصد وصفه بدقة أعظم، وهذه الخصائص هي: الصبغة، والجلاء، والكثافة[1]، فتكون صبغة اللون هي هويته الأساسية الثابتة ، وجلاء اللون يرمز إلى درجة إشراقه أو قتامته ، فاللون الفتاح هو الجزء الأشد جلاء بإمكاننا التحكّم بتعديل درجات جلاءه ، فعلى سبيل المثال تبدو الغرفة الملونة بالأصفر الفاتح زاهية فرحة وغنية، فيحين تبدو الغرفة بالبنفسجي رقيقة وغامضة، بينما تتسما لغرفة الخضراء الفاتحة بالهدوء والتنظيم.

ذاكرة الألوان

تُخزن كل الخبرات الشعورية التي نمرّ بها على هيئة صور ذهنية مشبعة بالألوان، يمكن إنعاشها عندما يقوم المخ والجهاز العصبي بتسجيلها ، وقد "أطلق عالم النفس الأمريكي " ويليم جيمس" مصطلح الذاكرة على هذه الحقيقة الأساسية الخاصّة بالحياة الواقعية التي يتوقف عليها كلّ من التّذكر والنسيان"[2]، ليكون التذكّر اهتماما بالصور الذهنية التي تجدد خبرة الماضي شكلها، ويعدّ الإحتفاظ بالمعرفة داخل العقل شكلا من أشكال الطاقة واستدعاء مبتكر لانطباعات أحداثه.

تحتل بذلك الألوان مساحة شاسعة في ذاكرة كلّ الفرد، إلا أنها تحتل مجالا أفسح في ذاكرة الفنان، وهذه الذاكرة تحوم حول الماضي والحاضر والمستقبل، هي إذًا ذاكرة متجددة، ذاكرة لا تحددها الأزمنة، ذاكرة يقضة، متأهّبة، منفتحة على المتغيرات ومقاومة للعراقيل والصعوبات ، هي ذاكرة زئبقية، مرنة، طَيِّعَة، يشكّلها الفنان كما يشاء ويصرف بها ما يراوده من قلق حائم حول مفاجئات المستقبل، فتكون الألوان وسيلته المثلى للتعبير.

ذاكرة اللون مرتبطة بالزمان" بالصّغر و بالطفولة وبالمراهقة و بالكِبر" (تفرزُ مجموعة من الألوان التي نحبها ونعشقها نحنّ لرؤيتها فنتخيرها ونفضّلها عن غيرها ،تؤثر فينا، نسترجع معها ذكريات نحبها، وألوانا نتجنّبها فنردّ بصرنا عنها،نتشاءم برؤيتها، تذكّرنا بحدث ما، ألوانا لا تعيرنا اهتماما كبيرا يعني ألوانا محايدة) .

[1] http://www.abahe.co.uk/the-interior-design-and-decoration-enc/65409-color-properties.html

[2] أسرار الذاكرة، تأليف جيفري أ.دادلي، ترجمة علي عفيفي،ص5.

كما ترتبط هذه الذاكرة بالمكان كارتباطه بالطبيعة (سماء شمس بحر عشب رمال...).

نستجلي مما سبق أهمية الألوان وارتباطها الوطيد بالعاطفة فهي زينة العالم، في غيابها نرى عالما مملا وحزينا يصعب علينا حتى تصوّره أو التفكير فيه ، هذا ما يفسر اهتمامنا باللون باعتباره اهتمام فطري نرجسي نطمح من خلاله في رؤية ما حولنا بالألوان التي تستهوينا. لذلك تكون القماشة وفرشاة الرسم أدوات الفنان في ترجمة أحاسيسه ووسائل للتعبير عن مخاوفه و ترجّياته، كما أنها العالم الذي يعيش فيه، يختار له ما يروق من ألوان تتناسب معه.

ارتباط اللون بانفعالات الفنان التشكيلي(الفنان فانسن فانغوغ أنموذجا)

نستعمل في مجال الفنون التشكيلية مصطلحات تتعلّق بالألوان منها الألوان الحارة و الباردة والمتضادّة والمتكاملة ، التي يعتمدها الفنان كوسائط في تشكيل عمله الذي يترجم علاقاته الحسية والعاطفية، وعلى حد قول "إبراهيم زكريا " " الفنان هو ذلك الخالق الذى ينظم العالم عن طريق مجموعة من الوسائط الاستطيقية الخاصة، وفى مقدمتها جميعا واسطة (التعبير)، وليست عبقرية الفنان فى أن ينقل الواقع بأمانة، وإنما عبقريته فى أن (يعبرَّ) عن الواقع بعمق "[1].

لتبدو اللوحة غنية بالألوان المتجانسة والمتلائمة مع نفسيته، تظهر فيها درجات لونية متفاوتة تزيد في تشبّثه بالعمل، إلى أن تخرج إلى قاعة العرض فتصل إلى عين المتلقي الذي سيحللّها استناد إلى زاده المعرفي للون وبعلاقة كلّ لون بنفسيته هو(المتلقي). فبينما كانت ألوان اللوحة أسيرة لانفعالات مُنجزِها أصبحت رهينة لانفعالات المتلقي (على اختلاف درجة وعيه، زاده المعرفي والعلمي، نشأته ومحيطه...).

وخير دليل على ما سبق هو درجة اندماج الفنان الهولندي "فينسن فان غون" مع الحزمة اللونية التي اختار تواجدها في أعماله التالية والتي تظهر فيها "غرفة نومه" بدرجات لونية متضاربة اختار في كل مرة من المرات الثلاث التي أعاد فيها طلاء العمل أن يغيّر في نسب تفاعل الألوان ويجعل في كلّ عمل ألوانا خاصّة به، فتراه يزيد في نسب كثافة الأحمر مقارنة بالأزرق أو في قيمة الأصفر مع نضيره من مشتقات الأحمر ، من برتقالي وبنفسجي وغيرها من الألوان التي تحمل في كل مرة قيم ضوئية جديدة متنوعة تجعل من الأعمال الثلاث مختلفة.

[1] إبراهيم، زكريا: مشكلة الفن – مكتبة مصر – القاهرة – د.ت – ص 49

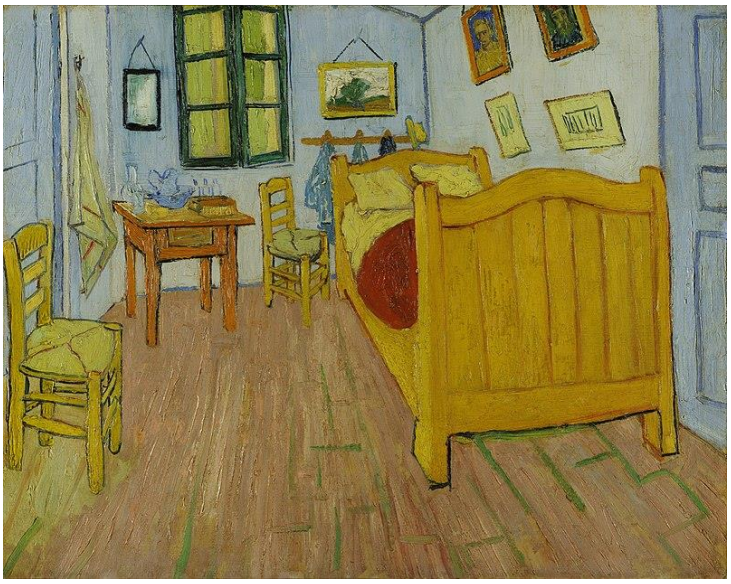

النسخة الأولى، أكتوبر 1888. زيت على قماش، 72 × 90 سم، بمتحف فان غوخ في أمستردام[1]

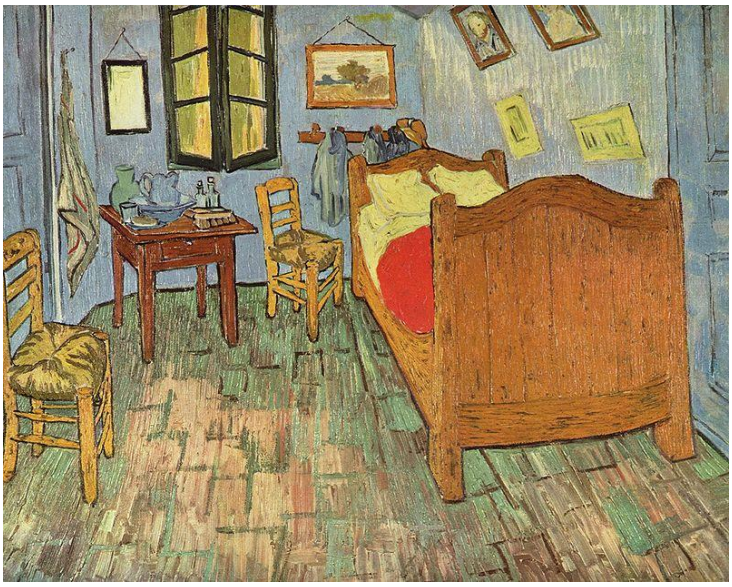

الإصدار الثاني_أيلول 1889. زيت على قماش، 72 × 90 سم،معهد الفنون في شيكاغو[2]

[1] wikipedia.org/wiki/غرفة_نوم_في_آرل#/media/File:Vincent_van_Gogh_-_De_slaapkamer_-_Google_Art_Project.jpg

[2] ar.wikipedia.org/wiki/غرفة_نوم_في_آرل#/media/File:Vincent_Willem_van_Gogh_135.jpg

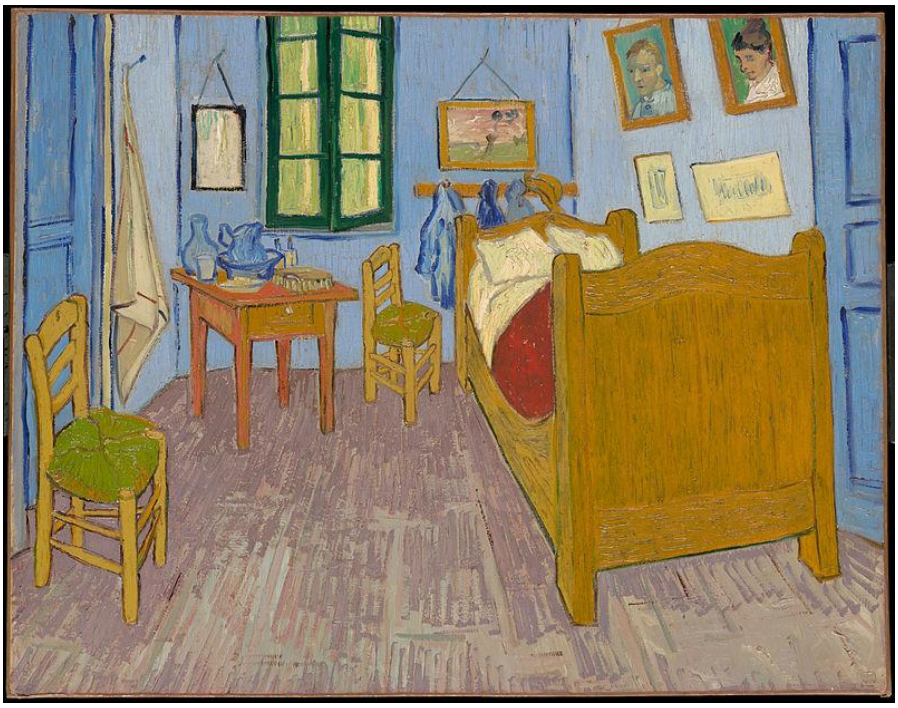

النسخة الثالثة، في نهاية سبتمبر 1889. زيت على قماش، 57.5 X 74 سم، "متحف دورسيه"، باريس[1].

تظهر الأعمال وكأن "فان غوغ" يكتشف نفسه في جملتها، تقول "نينكي" إن "فان غوخ ربما لم يرَ بأسا في ذلك، لأن الفنان الذي علّم نفسه بنفسه لم ينظر إلى أي عمل من أعماله على أنه منتهٍ وكامل، بل كان يرى أن أعماله دراسات تساعده على اكتشاف أسلوبه"[2]. فربما تكراره لنفس العمل بثلاث طرق مختلفة يعبر عن عدم رضاه بما أنجز وعن برغبته الملحّة في إنجاز عمل مختلف عن السائد، لتبرّر أعماله رؤيته الخاصة للعالم التي تجعل من لمسته الفنية متفرّدة.

إنّ الرجوع لأعمال هذا الفنان الإنطباعي قد تضفي علينا نوعا من الإبهار اللوني المتعمّد من تضاد درجات الألوان، كما لو أنها المفكك لشفرات حياته والصعوبات العاطفية التي عاشها والتضاربات النفسية التي لم تدفع عنه نعته بالجنون، حتّى ينتهي به المطاف لقصّ أذنه، حيث صنعت هذه الإنفعالات الخاصة في نفسيته أعمالا ذات بصمة و أسلوب متفرّد يترجم نظرته الخاصة للعالم.

[1] ar.wikipedia.org/wiki/غرفة_نوم_في_آرل#/media/File:La_Chambre_à_Arles,_by_Vincent_van_Gogh_,_from_C2RMF.jpg

[2] نينا سيغال، جريدة العرب الدولية، "الشرق الأوسط" العدد 12579، الثلاثاء 26 جمادى الثانى 1434 هـ 7 مايو 2013

اتبع فان غوخ لفترة قصيرة تقنية التنقيط بألوان ثقيلة على درجة عالية من التضاد التي استخدمها في لوحاته، ليتواصل فيها مع ذاته كفنان، السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو : هل أنّ جملة الألوان التي اعتمدها قد تعبّر عن الهدوء والشعور بالراحة أم أنها صفات يفتقدها الفنان ويبحث عنها في تجربته الفنية؟

هذا ما اشتغل عليه المركز الثقافي للتراث الألماني وأمناء متحف «فان غوخ» الذي يحوي أكثر أعمال هذا الفنان الهولندي ، في محاولة لإعادة كتابة قصة حياته، وفهم أدق وأعمق لطبيعته وشخصيته بالإعتماد على منجزاته الفنية.

من هنا يمكن أن نضفي بالتناقض الغريب لعالم الألوان، الذي تختلف فيه تحاليل الشخصيات والشخوص، فتصدر عنه نتائج زئبقية غير ثابتة، شأنها شأن نفسية الفنان.

وتأكيدا لما سبق فإنّ التجربة التشكيلية القائمة على الممارسة اللونية، يطغى عليها الطابع الشخصي الذي يترجم بصمة وذاتية الفنان في منجزاته، استنادا إلى"المادة والشكل والتعبير.. يعتمد كل منهم على الآخر،فليس لواحد منهم وجود بمعزل عن الآخر. والمضمون التعبيري لأي عمل لا يكون على ما هو عليه إلا بسبب العناصر المادية، والتنظيم الشكلي، والموضوع، وهى العناصر التى يؤدى تجمعها إلى تكوين العمل الخاص[1]". أما عندما نرجع على علاقة الفنان بالألوان، نجد أن مقياسه الأول في هذه العلاقة هو الحب واحتياجاته للعاطفة. التي قد تترجم تفضيل الفنان للون معيّن على حساب غيره من الألوان ، مقارنة بالفرد الذي قد لا يشعر مباشرة بهذا الميل، إلاّ إذا عاد عن وعيٍ بذاكرته إلى الماضي، أو تجاوب مع حاضره في ترجمة لاختيار ألوان ثيابه مثلا أو ألوان طعامه أو مايحيط به من أغراض يتخيّرها هو ، فيها اتصال مباشر بذاكرة اللون، فعمليّة فرز الألوان هذه قد تعطيك فرصة التعرّف على لونك المفضّل والرجوع اعتمادا على ذاكرتك في تحليل معناه.

دلالات الألوان وعلاقتها بالمشاعر

إنّ في استهلاك الألوان تعبيرا عن ذوق ناجم عن موهبة فطرية أو خبرة مكتسبة في التواصل والتعامل معها، ليختلف بذلك الحكم على اللون وتختلط التفاسير، إذ يمكن لي أن أعتبر مثلا اللون الأحمر رمزا للانتماء الذي يفسَّر في تصاميم جملة من أعلام العالم كعلم تونس، تركيا، المغرب، اليمن البحرين ،فرنسا،ألمانيا، ألبانيا، النرفيج ،الصين، فيتنام، البيرو، بولونيا...وغيرها من أعلام بلدان العالم التي تبرز حضور الأحمر ، على اعتباره اللون الذي يقوي روح الانتماء ويذكّر بالوحدة والمقاومة، وبالدم الذي يجري في عروقنا

[1] ستولنيتز، جيروم: النقد الفنى – ترجمة فؤاد زكريا – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الثانية – 1980 ص 374.

والذي يهون فداءا للوطن، كذلك سر السجادة الحمراء التي تفرش لأي دبلوماسي يزور بلدا ما غير بلده حتى يرفعوا من روح الانتماء للبلد التي يزورها، كما يستخدم اللون الأحمر ليشير إلى التوقف، كما في إشارات التوقف، أو الخطر، أو ضوء الإنذار، وفي نفس الوقت وكتشف الخبراء أنه ينشط الجسم ويدفئه ويزيد معدل نبضات القلب فهو يرمز إلى الحب.

أثبت علماء النفس علاقة الألوان بالمشاعر المختلفة وهو أن حب الشخص للون متعلق بشخصه وطبيعته فتتغيّر ماهية الألوان وتنقلب المفاهيم فما نراه من ألوان ترمز للتفاؤل وتمنح الراحة النفسية تراها أنت ألوانا مستفزّة ومصدرا للإزعاج والقلق، نذكر اللون الوردي كمثال يقر من خلاله المحلّلون على اسحواذه على قدر كبير من الأنانية أو النرجسية، في حين أنّه قد يكون إشارة لاشتياقنا لألوان الطفولة واحتياجاتنا للعاطفة .

من هنا نشير إلى علم النفس اللوني Color psychology أو الرمزية اللونية Color symbolism في الفن وعلم الإنسان، حيث تشير الرمزية اللونية إلى استخدام الألوان بوصفها رمزًا في جميع الثقافات ويشير علم النفس اللوني إلى تأثير اللون على المشاعر والسلوك البشري. هما علمان مبنيان على روابط تختلف باختلاف الزمان، والمكان، والثقافة. فقد يُعطى للّون الواحد رموزًا مختلفة وآثارًا نفسية في نفس المكان.

يعرفُ علم النفس اللونيّ كونه العلم الذي يهتمّ بتأثير الألوان المختلفة على مشاعر وسلوكيّات الإنسان، أمّا الرمزية اللونية فتستخدمُ في مجالات الفنّ وعلوم الإنسان، وتوضح كيفيّة استخدام الألوان كرموز في مختلف الحضارات، وقد بني كلٌّ منهما على مجموعة من الروابط المختلفة زمانيّاً ومكانيّاً وثقافيّاً، كما قد يمتلكُ اللون الواحد رمزاً وآثاراً نفسيّة مختلفة بشكل كبير في المكان والزمان نفسه.

كما أنّ الرمزية اللونية هي مجال مستمر للدراسة تعتمد على مجموعة كبيرة من الأدلة التراثية القصصية، لكن لا تدعمها بيانات من دراسات علمية مثبتة . وأي شخص غير مطلع على الترميز الثقافي للون قد يخلط بين رمزيات الألوان.

التنوع الثقافي نراه في قدم رمزية اللون الأبيض، والذي يعتبر تاريخيًا كإشارة للنقاء والعذرية، وفي أغلب مدن العالم يمثّل لون كسوة العروس في الزفاف ،وفي فترات معينة من التاريخ وحتى اليوم، يُرتدى في الجنازات ،بينما يراه البعض الآخر رمزاً للخضوع والاستسلام فهو يمثّل في الوقت ذاته الضوء والثلج والشتاء والبرد والهواء، النقاء والصدق والسلام والطهارة، الاحتفال والزواج والأمل، الموت والخوف والاستسلام.

أما من وجهة نظر الفن التشكيلي فهو لا يدرج الأبيض ضمن قائمة الألوان بل بعتبره قيمة ضوئية لا لونا، شأنه شأن الأسود، فهما قيمتان ضوئيتان يتحكّمان بدرجة سطعان اللون ونقائه.

يمكن معالجة بعض مشكلات الشخصية عن طريق الألوان بمعرفة دور كل لون وأثره على طبيعة المشكلات، والمتعارف على الأثر يكون كما يلي :الأحمر والزهري: يساعدان على اللباقة وحُسْن التعبير،الأصفر والألوان الترابية: تساعد على الإخلاص والصراحة وحب الإنسان، الرمادي والأبيض: يساعد على الاستقامة والعدل الأسود: يساعد على البصيرة وحُسْن العلاقة، وهو أيضاً حزين ومنعزل، الأزرق والأخضر: يساعدان على المثابرة وحب عمل الخير.

تعمل هذه الألوان على مستوى اللاوعي

مواكبة اللون لتواتر الازمنة

مهما تعددت الدراسات النظرية للألوان فهي لا تحذف إحساسات وانفعالات الفنان أمام شاعرية ألوان مطنّته بل إن المقصود منها استيعاب هذه الأحاسيس وتوجيهها من خلال صقلها وتزويدها بدراسات تحليلية دقيقة.

انغمس الفنان في لعبة الألوان إلى حد أن الديانات القديمة اعتبرت اللون رمزاً مقدساً، "في مصر، كانت الشمس نفسها هي رع وأوزوريس (كانت إيزيس هي القمر)، وقد يكون رمزها هو الذهبي أو الأصفر أو الأحمر. وفي أجزاء من الهند يقال إن لون الشمس كان هو الأزرق. ويقال إن اسم «سولومون» هو اسم الشمس في ثلاث لغات. وفي اليونان القديمة، كان الأصفر أو الذهبي مخصصا للإلهة أثينا، وكان معبدها البارثينون في مدينة أثينا، وكان اللون الأحمر مخصصا للإلهة سريس؛ إلهة الحصاد، وكان ديونيسوس؛ إله الخمر، ذا وجه أحمر، وكان لون إيريس هو لون قوس قزح. وفي الهند، كان لون بوذا هو الأصفر أو الذهبي. ووفقًا للنصوص المقدسة البوذية فإنه: «لم يكد يطأ بقدمه اليمنى بوابة المدينة حتى انبعثت من جسده أشعة لستَّة ألوان مختلفة، وانتشرت في كل حدب وصوب فوق القصور وأبراج الباجودا، وزينتها بما يشبه بريق الذهب الأصفر، أو بما يشبه ألوان إحدى اللوحات[1]".

كما استخلص الإنسان رقم 7من ألوان قوس قزح السبع لحسن الحظ والطالع الجيد، حتى بات اللون ذو رمزية كونية.

توطّدت علاقة الفن بالعقائد الدينية، حتى أصبح اللون أداة رامزة لمفاهيم عقائدية، عُرفت بعقيدة عالم الأنوار، يتّخذ فيها اللون صفة للنور والضوء، كما تعارف عن قدسية نور الشمس في ديانات عدّة. أمّا في العقيدة الإسلامية فقد جاءت دلالات اللون تعبيرية و رمزية و حسية و جمالية، وارتبطت بمصدرين جوهريين، أولهما النور القادم من السماء المقترن بالخالق الأعلى فهو (نور

[1] فيبر بريين ، الألوان والاستجابات البشرية، ترجمة صفية مختار ص 18

الله) سبحانه أو (نور القلوب) .وبذلك المفهوم فإن اللون وجماله يقترن مع وجود الضياء ثم يتداخل مع مفهوميْ العدل والقانون الإلهي.

تأثّر الألوان في قدرتنا على التمييز بين الأشياء، كما تُسهم في التغيير من مزاجنا وأحاسيسنا، وتؤثر في خبراتنا الجمالية بشكل يكاد يفوق تأثير أي باثٍّ آخر يستفزّ حاسة البصر ويحرّك فينا "الحدس"ويوقظ لاوعينا.

اللون وسيلة مقاومة استباقية للزمن:

إذا ما أخذنا الأعمال التشكيلية المعاصرة من لوحات، خزفيات، مجسمات، منحوتات، معلّقاتّ ، تنصيبات، وحتى كتابات جدارية نرى فيها نهضة ومقاومة ، تقمع الوضع الراهن بنظرة مستقبلية واعدة، يُميّزها حبّ الحياة. فيها من الحماس والرغبة والانفعال الطاقة والقدرة والقوّة ، القدر الكبير، فالمنجزات الفنية هي عبارة عن وسيلة الفنان التشكيلي في الترويح والإسترخاء النفسي الذي يجد فيه الأُنس الذي تضفيه الألوان على نفسيته كمُنجزٍ يحتكّ بالعمل ثمّ على نفسية المتلقي باعتباره مستهلكا بصريا لهذا الزّادِ اللوني المتوفر ، واعتباره مصدرا من مصادر استلهام الطاقة (الطاقة اللونية للأطياف السباعية: أحمر – برتقالي– أصفر –أخضر – أزرق فاتح – نيلي (أزرق غامق) – بنفسجي).

نُقِرُّ بأن اللون مفهوم قديم حديث ومُستجد ، فنحن نركّز على فاعلية تطوّره مع الزمان، نسوق مثال مواكبة طريقة تفعيله في مجال التطوّر الصناعي(في مجال السيارات أو النسيج)، حيث نرى حزمة لونية خارجة على المفهوم التقليدي للألوان، كل ذلك يعني أن لا حدود للغة الألوان.على اعتبارها ، تزيد في استفزاز العواطف، فهي تنشئ للقلب تاريخا من العجائب المتناقضة ، أساسها الخيال، لتظهر الأحلام في عيني الفنان وهو يقضان بعقل وبوعي.

فبالحب يستطيع الفنان أن يخلق مستقبلا يمكّنُه من أن يفتح عينيه على الليل والنهار ،فلا ينام،أو يحفظ نفسه على الصغر والكبر فلا يموت أو يضرب بيديه على مدار الفلك فيمسك ما شاء أو يرسله.

قائمة المراجع

قائمة الكتب

1- إبراهيم، زكريا: مشكلة الفن – مكتبة مصر – القاهرة – د.ت 988-316-347-1

2- جيفري أ.دادلي ،أسرار الذاكرة، ، ترجمة علي عفيفي، هلا للنشر والتوزيع، الطبعة2004

3- ستولنيتز، جيروم، النقد الفنى – ترجمة فؤاد زكريا – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الثانية – 1980.

4- طه حسين، ألوان، دار المعارف للطباعة والنشر بمصر 1958

5- فيبر بريين، الألوان والاستجابات البشرية، ترجمة صفية مختار، مؤسسة هنداوي سي آي سي ٢٠١٧/١/٢٦ بتاريخ ١٠٥٨٥٩٧٠ برقم املشهرة ٣ هاي ستريت، وندسور، LD SL41 ،المملكة المتحدة

المقالات

نينا سيغال، جريدة العرب الدولية، "الشرق الأوسط" العدد 12579، الثلاثاء 26 جمادى الثانى 1434 هـ 7 مايو 2013

قائمة المراجع الإلكترونية

6- ar.wikipedia.org/wiki/غرفة_نوم_في_آرل#/media/File:La_Chambre_à_Arles,_by_Vincent_van_Gogh,_from_C2RMF.jpg

7- http://www.abahe.co.uk/the-interior-design-and-decoration-enc/65409-color-properties.html

8- https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar

9- http://shamsfinearts.blogspot.com/p/blog-page.html

10- wikipedia.org/wiki/غرفة_نوم_في_آرل#/media/File:Vincent_van_Gogh_-_De_slaapkamer_-_Google_Art_Project.jpg

11- ar.wikipedia.org/wiki/غرفة_نوم_في_آرل#/media/File:Vincent_Willem_van_Gogh_135.jpg

المؤتمر الدولي العلمي السادس للمركز الأوروبي للبحوث والاستشارات

في العلوم الإنسانية والاجتماعية تحت شعار " المستقبل بعين الحاضر والماضي"

تركيا – اسطنبول

جامعة مرمرة – كلية الإلهيات

3 - 4 / 5 / 2018

نماذج أجنبية عن تسيير الأزمات في المدارس

إعداد:

د/ الجوزي وهيبة - د/ بلمهدي فتيحة

د/ بوكايس امال - أ.د/ بشير متيجة

المدرسة العليا للأساتذة - الجزائر

Email: FATIBEL44@HOTMAIL.FR

Ref: 6/2018/121

ISBN 978-1-9996437-3-7

ملخص :

إن مفهوم الأزمة ليس بالمفهوم الجديد فهو قديم قدم التاريخ الإنساني و جزء لا يتجزأ من أحداث حياة الشعوب و ممتد من الماضي البعيد إلى وقتنا الحاضر، فقد عايش الإنسان أزمات كبرى و أخرى أقل حدة مست مختلف جوانب الحياة، اجتماعية، اقتصادية، سياسية، صحية و تربوية و غيرها. و عصرنا الحالي هو عصر الأزمات كما يطلق عليه فلا تكاد تخلوا أحداث الحياة من أحداث و أزمات في مختلف مجلات الحياة فمنها أزمات من فعل الإنسان و أخرى طبيعية و منه أصبحت الدول تعمل جاهدا إلى إيجاد الطرق العلمية و العملية للتعامل مع الأزمات مهما كانت طبيعتها و توقيتها للتقليل من نتاجها المادية و البشرية لأكبر قدر ممكن. و تطرقنا في المداخلة الحالية إلى عرض بعض التجارب الأجنبية الرائدة في تسيير الأزمات في الميدان التربوي حيث اتخذنا النماذج الصينية ,اليابانية و الأمريكية كأمثلة يمكن الاقتداء بهم في المستقبل .

مقدمة :

مهما بلغت المجتمعات من تطور و نمو في شتى المجالات إلا أنها ليست في منأى عن مواجهات ظروف و أحداث و أزمات مفاجئة يمكن أن تهدد بكيانها و شعبها و تعرقل من نموها و تطورها و لذلك أصبحت مصدر قلق و انشغال الحكام ، المسئولين، العلماء و الباحثين و الممارسين و حتى المواطنين على حد سواء و ذلك نظرا لخطورة النتائج التي تسفر عنها الأزمات بكل أنواعها على حياة الشعوب لحدوثها المفاجئ و كذا صعوبة التعامل معها لنقص و ضعف قدرة الجهات المسئولة على احتواء الأزمة و تبعياتها باختلاف قدرات كل دولة.

و الأزمة كما عرفها(الفزاري 2003) أنها لحظة تحول حرجة و حاسمة تفقد المؤسسة قدرتها على العمل بالشكل المتعارف عليه من قبل، في سلسلة من الاحداث التي تختلط فيها الأسباب بالنتائج و تتلاحق الأحداث في ظل عدم التأكد و ضيق الوقت و نقص المعلومات، الأمر الذي يزيد من درجة غموض الدور و حدتها و درجة المجهول مما يتسبب في فقدان التوازن وحدة درجة التوتر و تهديد كيان المؤسسة كما يؤدي إلي صعوبة التعامل معها و اتخاذ القرار المناسب حيالها.(رهام راسم عودة،ص 7، 2008)

حيث تعتبر إدارة و تسيير الأزمات منهج تتبناه العديد من الدول و المنظمات باختلاف الأولوية في الاهتمام و كذا الامكانات و القدرات الممنوحة و درجة الدقة في التخطيط للاستعداد الأمثل لمواجهتها،حيث تهدف إدارة الأزمات إلى احتواء الأزمة حال حدوثها من خلال التحسب المسبق لها، و كذلك السعي لتحجيم الخسائر المحتملة إلى أدنى درجة ممكنة من خلال اعتماد الوسائل العملية المناسبة التي تمكن المنشأة من العودة بأسرع وقت إلى وتائر عملها. (باسم الحميري، ص 196، 2010)

و يعيش التعليم مثله مثل باقي المجالات و في معظم الدول أزمة حقيقية و إن تفاوتت فيما بينها من حيث الدرجة و الأبعاد (منهج و طرائق التدريس، المادة التعليمية،تسيير الامكانيات المادية و البشرية، تكويين المعلمين،ظروف التعليم.....الخ)،فهي حقيقة تواجه حتى البلدان المتقدمة و خير مثال على ذلك اليابان حيث رغم تفوق نظام التعليم فيها و الإشادة به عالميا إلا أن القائمون على المؤسسات التربوية هناك أدركوا قصورا ليس ناجما عن خلل في النظام بقدر ما هو قصور في قدرة النظام القائم على مواكبة و تلبية متغيرات العصر .(ماهرأبوا معمر، ص 3، 2011)

و إن كان هذا حال دولة متطورة مثل اليابان فما حال باقي دول العالم و الدول العربية التي رغم الاهتمام الذي توليه خاصة في السنوات الأخيرة لمجال إصلاح المنظومة التربوية إلا أنها مازالت تعرف قصورا في جوانب عديدة في هذا القطاع، و قد شهدت الجزائر رغم سياسة الاصلاحات المنتهجة من طرف المسئولين عن القطاع التعليمي إلا أنها لم تسلم من الوقوع في عدة أزمات ذات أبعاد مختلفة أثرت بشكل من الأشكال على نمو و تطور المسار التعليمي للطلبة في مختلف الأطوار التعليمية، فالأزمة التعليمية تكمن في حالة تواجه النظام التعليمي و تستدعي اتخاذ قرار سريع لمواجهة التحدي الذي تمثله تلك الحالة و تحدث نتيجة تراكم مجموعة من التأثيرات الخارجية المحيطة بالنظام التعليمي أو داخلية التي تحدث اضطرابا يحول دون تحقيق الأهداف التعليمية و يتطلب إجراءات فورية. (خالد العمري، ص 4، 2005)

كما أنها نتيجة لتراكم مجموعة من التأثيرات الخارجية المحيطة أو خلل في الأنظمة التربوية الداخلية بحيث ينتج عن عدم توافق بين مجموعة من المتغيرات أو المؤثرات في المجالات السياسية أو التكنولوجية أو الاقتصادية السريعة و التي لا يستطيع النظام الداخلي للمؤسسة استيعابها أو مواكبتها و التعامل معها. (ميسون طلاع الزعبي، ص 379، 2014)

و لأهمية و حساسية المؤسسات التعليمية في تطور و ازدهار الدول حظي موضوع إدارة الأزمات في المؤسسات التعليمية باهتمام كبير من طرف الباحثين .و من بين الدراسات التي سلطت الضوء على الموضوع دراسة (Johnson 1990) و التي هدفت إلى تعريف المديرين بخطط إدارة الازمات داخل المدرسة، و توصل (Forifici 2000) إلى ضرورة وضع خطة فعالة لإدارة الأزمات و كذا دراسة (أبو خليل 2001) التي تهدف إلى تحليل مفهوم الأزمة و التخطيط لمواجهة الأزمات المستقبلية (رائد فؤاد عبد العال، ص 3 ، 2007)، كما هدفت دراسة(ليلى العساف و خالد الصرايرة 2011) إلى اقتراح نموذج لتطوير إدارة المؤسسة التعليمية في الأردن في ضوء فلسفة إدارة الجودة الشاملة. (ليلى العساف و خالد الصرايرة، ص 591، 2011)

و منه إرتاينا في هذه الدراسة تسليط الضوء على المؤسسات التعليمية باعتبارها من المؤسسات المهمة لنمو و تطور البلاد و الركيزة الأساسية لتكوين النشء و هذا من خلال التخطيط العلمي و العملي للإدارة و التسيير الدقيق لأي أزمة يمكن أن تهز كيان القطاع و تعرقل نشاطه و لأجل تطوره و مواكبته المستمرة للتطور التكنولوجي و العلمي الحاصل في جميع بلدان العالم و الاصلاحات الدائمة التي تعرفها المنظومة التربوية في العديد من الدول، و ذلك من خلال الاستشهاد بنماذج أجنبية أردنا من خلالها الاستفادة بنتائجها العلمية و مقترحاتها و توصياتها في مجال إدارة و تسيير الأزمات في المؤسسات التعليمية.

أسباب نشوء الأزمات في المؤسسات التربوية:

رغم ظهور الأزمات في مختلف الأزمنة و الأمكنة إلا أنها تتنوع على حسب بعدي الزمان و المكان أيضا فبعض الكوارث خصوصا منها الإنسانية و التي تسببت لازمات متتالية مند عقود لم تكن موجودة في الماضي كالتسريبات و الانفجاريات النووية .

يرى مورات (Murate) نقلا عن ندى عز الدين اديب2012 أن هناك أنواعا أكثر شيوعا للأزمات في المؤسسات أوردها فيما يلي.خطر مفاجئ كحدوث مرض، مشكلات غذائية،حرائق،حوادث كيميائية،كوارث بيئية و طبيعية،فقدان الثقة ،الحوادث المفجعة،تدمير شخصية المؤسسة.المخالفات الأخلاقية مع الإدارة و أصحاب الثقة،الجرائم الكبرى.

مراحل الأزمة

تختلف مراحل الأزمة باختلاف طبيعتها حيث إن هناك أزمات تمر بمراحل يصعب التنبؤ بحدوثها إلا أن هناك البعض منها من الممكن رصد مؤشراتها منذ البداية ومتابعتها .ويرى بعض الباحثين مراحل الأزمة كل من وجهة نظره ويتفقون على بعض المراحل ويختلفون بالبعض الآخر وبالرغم من اختلاف وجهات نظر الباحثين في مراحل الأزمات إلا انه لا يوجد اختلاف في المضمون وبهذا يرى كل من حامد الحدراوي و كرار الخفاجي 2008 أن مراحل الأزمات والتي يطلق عليها دورة حياة الأزمة هي كالآتي

1–مرحلة ميلاد الأزمة :تبدأ على شكل إحساس مبهم وينذر بوجود شيء يلوح في الأفق مجهول المعالم والاتجاه والحجم، والأزمة غالبا لا تنشأ من فراغ وانما هي نتيجة لمشكلة ما لم يتم معالجتها.وهذه المرحلة تتطلب من متخذ

القرار)تنفيس الأزمة (وإفقادها مرتكزات النمو ثم تحميدها أو القضاء عليها وهي وليدة دون أدنى خسائر مادية أو بشرية وقبل وصولها للتصادم.

2–**مرحلة النمو والاتساع –**:نتيجة لعدم معالجة المرحلة الأولى في الوقت المناسب لذا فان الأزمة تأخذ في النمو من خلال محفزات أخرى تنمو من خلالها.

3–**مرحلة النضج والصدام–**:تعد من اخطر مراحل الأزمة ومن النادر أن تصل الأزمة إلى مثل هذه المرحلة إلا إذا قوبلت باللامبالاة من قبل متخذ القرار وعند نضج الأزمة يحصل الصدام.

4– **مرحلة الانحسار والتقلص** :تبدأ الأزمة بالانحسار والتقلص نتيجة للصدام العنيف الذي تم اتخاذه والذي يفقد الأزمة جزءا هاما من قوتها، على إن هناك بعض الأزمات تتجدد لها قوة دفع أخرى عندما يفشل الصراع في تحقيق أهدافه.

5– **مرحلة الاختفاء والتلاشي –**:تصل الأزمة في هذه المرحلة عندما تفقد بشكل كامل قوة الدفع المولدة لها ولعناصرها حيث تتلاشى مظاهرها وينتهي الاهتمام والحديث عنها .**حامد الحدراوي2010**

نظرا لما تسببه الأزمات من خسائر مادية و بشرية تأثر على الأفراد و المجتمع ككل تفطنت العديد من دول العالم خصوصا المتقدمة منها إلى أهمية و ضرورة وضع خطط إستراتيجية لتسيير الأزمات و السيطرة عليها . و سنحاول في هده الورقة عرض نماذج كل من اليابان الصين و الولايات المتحدة الأمريكية .

نموذج اليابان:

في سنة 2001 في ياماغوشي قام رجل بطعن 8 تلاميذ في مدرسة ابتدائية نظرا لبشاعة الحادث الذي يعرف بمجزرة (Osaka) تم في الحال تشكيل خلية أزمة مكونة من عدة مختصين في الصحة النفسية أطلق عليها اسم فرقة التدخل في الأزمات (CRT)، و نظرا لانتشار عدة حوادث في مقاطعات أخرى كانت المدارس مسرحا لها تم تشكيل فرق تدخل في مقاطعات أخرى مثل (Wakaya&Nagazaki) حيث تكونت هذه الفرق من مختصين في الطب العقلي،علم النفس العيادي ، مساعديين اجتماعين و ممرضين حيث تعمل على توفير الرعاية النفسية اللازمة و السيطرة على الأوضاع التي قد تنتج صدمات نفسية لدى التلاميذ عند حدوث جرائم أو حوادث في المؤسسات التربوية كما تساهم في الحد من الأضرار الجانبية التي قد يعانيها الضحايا بعد الأزمة، إذ تعتبر هيئة مستقلة بحد ذاتها عن المؤسسة التربوية و تتمثل أهم مهامها في تقديم النصح و العون لمدير المؤسسة التربوية بصفته المسئول الأول كما تتعامل مع المعلمين من خلال مساعدتهم على حل المشكلات و تقديم خدمات إرشادية لهم و إعداد برنامج للمساعدة النفسية يتم من خلاله تعليم المعلمين كيفية التعامل مع التلاميذ بعد الصدمة و نظرا لأهمية دور الأولياء في احتواء أبنائهم بعد الصدمة تقوم فرق المساعدة بتقديم محاضرات عن طريق التعامل مع الأطفال لامتصاص أعراض القلق و الصدمة.

نموذج الصين:

لقد تولد عن الانتعاش الاقتصادي الكبير جملة من الأزمات كضريبة لما وصلت إليه من تطور و نهضة صناعية و انطلاقا من سياسة تعظيم الفوائد و الايجابيات و تصغير الأضرار عملت الحكومة الصينية على وضع نموذج مخطط للتدخل في الأزمات بعد أزمة أنفلوانزا الطيور 2005 حيث يعمل هذا النموذج كدليل للتنبؤ بالأزمات للوقاية و التدخل في مختلف أنواع الحوادث و يصنف هذا الدليل الحوادث إلى 4 مستويات حسب درجة الخطورة و الطوارئ معبرين عن هذه المستويات بالألوان التالية: الأزرق،الأصفر،البرتغالي و الأحمر كما صنفت الأزمات إلى كوارث طبيعية،حوادث أنثروبولوجية (صراعات إثنية أو دينية)، حوادث تخص الصحة العامة و أزمات الأمن الاجتماعي تخدم هذه المبادرة مختلف مؤسسات الدولة بمختلف مصالحها و مستوياتها الإدارية إذ يشمل هذا الدليل مخططات خاصة ل 80 تخصص في مختلف القطاعات حيث تبدأ المبادرة على المستوى المحلي لأي مؤسسة

لتصل إلى أعلى السلم في الحكومة من خلال تفعيل التنسيق بين مختلف الجهات المعنية للتدخل، فحسب مصادر وزارة الشؤون الداخلية تم تفعيل نظام التخل في كارثة 2005 خلال 30 دقيقة فقط و خلال 100 يوم تم إنقاص أكثر من مليون ضحية بالإضافة إلى الجهود الرامية لخلق مخطط للتدخل في الحالات الطارئة أعطت الحكومة الصينية الأولوية لتطوير مكتب دائم لتسيير الأزمات إذ تم سنة 2005 تأسيس ديوان وطني لتسيير الأزمات حيث يعمل هذا الديوان على إطار عملي لبرنامج التدخل في الحالات الطارئة يشرف على التخطيط، التحضير، التدخل و العلاج، كما يمثل خلية وصل مابين مختلف الجهات الوصية من خلال ضمان إدماج مختلف الأنظمة، الطاقات و القوى الفعالة، و نظرا لضرورة وجود قنوات تواصل فعالة بين الحكومة و الشعب سارعت الجهات الوصية إلى توظيف ما يسمى نظام مراسلي الأخبار العاجلة سنة 2004 في أكثر من 70 مقاطعة تحت إشراف مجلس الدولة مباشرة كما تم تجهيز 20 مركز للمؤتمرات الصحفية خصيصا لحالات الأزمات مثل ما حدث في أوت 2005 حيث تم في زمن قياسي إحصاء الضحايا و الخسائر على المستوى المحلي و الوطني و من المبادرات المهمة التي سارعت الحكومة إلى اتخاذها الإشهار و الإعلام بكل ما يتعلق بالتدخل في مختلف الأزمات في الموقع الرسمي للحكومة على الانترنت الذي تم فتحه في 01 جانفي 2006 .

أما البحث العلمي و برامج التدريبات التقنية فقد تم إعطاءها القدر الكبير من الاهتمام ففي سنة 2004 تم تخصيص 100 مليون (RMB) لتأسيس ميزانية خاصة لمشاريع البحث من بينها مشاريع البحث للوقاية من الامراض المعدية الجديدة و مشاريع للتحكم في التكنولوجيا الحديثة و تطبيقاتها من المخططات الحكومية للتطور الاقتصادي و الاجتماعي تم خلق وحدة للسلامة العامة التي تعمل على تطوير و ترفيه السلامة للعامة و في المجال التربوي عبر وسائل الاعلام في المدارس و مختلف الجاليات و تسعى هذه المبادرة إلى تعميم المواطنين و توعيتهم بمخاطر اللامبالاة، طرق الوقاية من الكوارث و الاسعافات الأولية إذ أثبت عدة برامج نجاحها و نجاعتها في تحقيق الأهداف المسطرة لها و كمثال نذكر برنامج تم تطبيقه في المدارس العامة الابتدائية و المتوسطات لتعليم التلاميذ المشاركة في الوقاية من الحوادث من خلال التدريبات الميدانية.

النموذج الأمريكي:

أما النموذج الامريكي فقد كان و لا يزال من النماذج التي يقتدي بها معظم دول العالم و ذلك لكونها الرائدة في إقامة بحوث ميدانية و دراسات في مجال التدخل في الأزمات و طرق تسيرها،و رغم أن لكل ولاية من الولايات المتحدة الامريكية خصائصها و قانونها الداخلي إلا أن اطلاعنا على عديد من النماذج المعتمدة في عدة ولايات لاحظنا الشبه الكبير في مخطط النموذج من خلال

اتباع نفس الخطوات و الاجراءات و اعتماد على نفس الوسائل المادية و البشرية و نأخذ على سبيل المثال النموذج المعتمد من قبل مركز الصحة النفسية المدرسية في لوس أنجلس و المتبع من قبل المدارس هناك حيث يتميز بوضع مخطط مفصل للتدخل في معظم الأزمات.

للتسير الفعال للازمة يجب توفر خمس عناصر أساسية تتمثل فيما يلي:

1- السياسة و القيادة الحكيمة: حيث تعتبر السيادة الحكيمة القاعدة الأساسية و الإطار العملي للتدخل.فحظوظ نجاح التسيير الفعال للازمة تزيد إذا كان التخطيط على مستوى المقاطعة يعمل بتناسق مع إدارة المدرسة كما أن القيادة ضرورية لضمان فعالية تطبيق مخطط التدخل و صيانة الجاهزية لتطبيقها.

2- فريق التدخل في الأزمات:ففريق التدخل على مستوى المدرسة هو وحدة منظمة ذات فعالية عالية للتعامل مع مختلف الأزمات حيث تعمل هذه الفرق في 3 مستويات: مستوى المدرسة، مستوى المقاطعة، و مستوى المجتمع ككل. فالسير الحسن لعمل هذه الفرق في كل مستوى يغلق شبكة تسهيل العمل في أي مكان يمكن أن تظهر فيه الأزمة.

3- مخطط التدخل في الأزمات المدرسة حيث يجب أن يكون مكتوب و يتم تحديثه كلما دعت الضرورة لذلك.كما يجب على كل العاملين في المدرسة الاطلاع عليه ما يجب فعله في كل حالة طارئة.

4- الاتصال :عند ظهور الأزمة يصبح الاتصال الفعال ضرورة على كل المستويات (داخل المدرسة،المقاطعة،المجتمع،وسائل الإعلام و الأولياء) فالاتصال الفعال يساهم في استرجاع التوازن في أسرع وقت ممكن.

5- التدرب و الصيانة: يعتمد التحضير الجيد للتدخل في الأزمات على مدى فهم الأفراد للسياسة و الإجراءات المتبعة و استيعاب واجباتهم .و يتم تحقيق ذلك من خلال التدرب و صيانة الجاهزية من خلال المراجعة الدورية و تحديث مخطط التدخل.

أنشطة فريق التدخل في الأزمات أثناء الازمات و الحالات الطارئة:

1- في حالة الكوارث الطبيعية و الإنسانية في المدرسة (زلزال،حريق،انفجار....)

أ- تعمل الإدارة على تولي قيادة الموقف و التنسيق بين مختلف الجهات الوصية (مستشفى ،الشرطة،الأولياء....)،كما تعمل على تطبيق مختلف خطوات التدخل في الحالات الطارئة.

ب- اجتماع أفراد الفريق الذين ليست لهم مهمة محددة اثناء التدخل بالتلاميذ في مكان نعين يكون آمن.

ج- تتمثل أهم المهام المنوطة بأفراد فريق التدخل الفاعلين فيما يلي:

-جمع المعلومات اللازمة عن الكارثة و نشرها للتلاميذ الإدارة و سائل الاعلام.....مع العمل على السيطرة على الاشاعات.

- توفير المساعدة النفسية العاجلة.

-تأمين الاسعافات الاولية الطبية و النفسية في عين المكان و عمل خلية خاصة للمرشدين النفسانيين لصالح المتضررين من خلال الاتصال بالمقاطعة الإدارة.

- توجيه الطلاب الإداريين و الاولياء اللذين هم بحاجة إلى المساعدة النفسية إلى المراكز المختصة في الارشاد النفسي و التكفل بأعراض ما بعد الصدمة.

- العمل على تتبع الاوضاع و نقل المعلومات بصفة مستمرة إلى الادارة.

2- الأزمات التي يتعرض لها مجموعة من التلاميذ (مثل موت أحد الزملاء في القسم التدخل يكون على مستوى القسم أو المجموعة التي شهدت حدث الوفاة:

ا- يقوم أفراد فريق التدخل بالاتصال بالمجموعة الكاملة للفريق في حالة ما إذا تم تصنيف الحادث على أنه ازمة تستوجب التدخل العاجل.

ب- اجتماع أفراد الفريق في المكان المحدد في أسرع وقت.

ج- تحديد الجهات الوصية للتدخل المباشر و الاتصال بها (مستشفى ، رجال الشرطة.....)

د- تهدئة الوضع من خلال ضمان السير العادي للدراسة و الحاق الطلبة و المعلمين بأقسامهم مع امكانية تحديد الأفراد المحتاجين للدعم النفسي.

- يعمل الفريق على تفعيل الخطوات العملية في حالة الطوارئ و المتمثلة في :

-جمع المعلومات اللازمة عن الكارثة و نشرها للتلاميذ الإدارة و سائل الاعلام.....مع العمل على السيطرة على الاشاعات.

- توفير المساعدة النفسية العاجلة.

-تأمين الاسعافات الأولية الطبية و النفسية في عين المكان و عمل خلية خاصة للمرشدين النفسانيين لصالح المتضررين من خلال الاتصال بالمقاطعة الإدارة.

- توجيه الطلاب الإداريين و الأولياء اللذين هم بحاجة إلى المساعدة النفسية إلى المراكز المختصة في الارشاد النفسي و التكفل بأعراض ما بعد الصدمة.

- العمل على تتبع الأوضاع و نقل المعلومات بصفة مستمرة إلى الادارة.

3- الأزمات الفردية(حالات محاولة الانتحار و الاعتداء على الآخرين:

ا- في مثل هذه الحالات يمكن للتلاميذ ،الإداريين أو الأولياء أن يتصلوا بأفراد فريق التدخل في الأزمات إذا اعتبروا أن الوضع متأزم و طارئ يحتاج إلى التدخل المستعجل.

ب- يقوم فريق التدخل في الأزمات بتسيير الموقف من خلال حل المشكل أو توصيله إلى الجهات المعنية بحله.

ج- تهدئة الأوضاع داخل حجرات الصف من خلال إرجاع التلاميذ إلى أقسامهم مع امكانية تخصيص مقابلات مع الأفراد المحتاجين إلى المساعدة.

د- استجواب التلميذ الذي حاول الانتحار أو قام باعتداء و كل من له علاقة بالحادث.

- التسريع في تفعيل الخطوات العملية للتدخل في الأزمات من خلال :

-توفير المساعدة العاجلة(إسعاف،شرطة،مرشدين.....).

-طلب المساعدة من المقاطعة الإدارية.

-للاتصال بالأولياء.

لا يتوقف عمل فريق التدخل عند هذا الحد بل يعمل على التواصل اليومي و الأسبوعي من أجل السيطرة الكاملة على الأزمة و تجاوزها من غير ترك آثار لها يمكن أن تكون أرضية خصبة لظهور أزمات أخرى.حيث يعمل الفريق على الاجتماع لتحديد الخطوات اللازمة لضمان التواصل اليومي و الأسبوعي من خلال نقل المعلومات الصحيحة عن الوضع، الدعم و الإرشاد النفسي للأقسام ،المجموعات و الأفراد ....الخ.

1- توصيل المعلومات الدقيقة من أجل التقليل من الإشاعات و من الأمثلة الجيدة للوصول إلى هذا الهدف تزويد المعلمين بالمعلومات الدقيقة عن الأزمة و المستجدات و تكليفهم بمهمته نقلها بكل أمانة للطلبة بل مساعدتهم على فهم الاحاسيس و المشاعر التي خلقتها الازمة طبيعة و عادية و توجيههم إلى مصادر المساعدة النفسية عند الضرورة،إرسال نفس المعلومات و الإرشادات مكتوبة للأولياء.

2- إعطاء مطويات لكل العمال و الإداريين في المؤسسة عن ما يجب ملاحظته بعد الأزمة و ما يجب فعله في حالة التلاميذ المصدومين.

3-برمجة نشاطات إرشادية خاصة.

آخر مرحلة تتمثل في مرحلة جمع المعلومات و التخطيط للوقاية:حيث يجتمع أفراد فريق التدخل لتقييم مدى فعالية الإجراءات المتخذة، المراجعات المطلوبة و تحديد الخطوات الوقائية اللازمة.

خاتمة

ترتب عن التقدم التكنولوجي الرهيب الذي وصلت إليه الإنسانية مخلفات سلبية كالتلوث البيئي و الانحباس الحراري و بالتالي زيادة نسبة الكوارث الطبيعية . فضلا عن الكوارث و الأزمات الإنسانية كالحروب و الحوادث التي تمثل خطرا مباشرا يهدد مستقبل الاستقرار الاقتصادي و الاجتماعي لكل دولة . لهدا بات من الضروري وضع خطط إستراتيجية للتدخل في الأزمات عندنا في الجزائر تكون شاملة و مرنة قابلة للتحديث والتكييف في المكان و الزمان . فالأزمات العديدة التي عصفت بالجزائر مؤخرا أعطت لنا ملامح تبدو غير واضحة أو بالأحرى أثار عن خطة غير دقيقة و لا مدروسة للتدخل في الأزمات بل مجهودات مادية و بشرية غير متناسقة أدت في الكثير من الحالات إلى إهدار الجهد و الوقت و تراكم مخلفات الأزمات التي لا تزال بادية إلى العيان إلى يومنا هدا.و لتسهيل المهمة يمكن تبني بعض النماذج الغربية التي سبقتنا في هدا المجال بأبحاث علمية و عملية. بل يتوجب علينا الاهتمام أكثر بالموضوع من خلال إدراجه على الأقل كمحور في المقررات الدراسية .

المراجع:

1- باسم الحميري، مهارات إدارية، دار حامد للنشر و التوزيع عمان الأردن،ط 1، 2010 .

2- خالد العمري، المدخل المنظومي في إدارة الأزمات و حل الصراع في النظام التربوي،المؤتمر العربي الخامس حول المدخل المنظومي في التدريس و التعليم، مركز تطوير لتدريس العلوم جامعة عين شمس،القاهرة،أبريل،2005.

3- حامد الحدراوي و كرار الخفاجي 2008 أسباب نشوء الأزمات و إدارتها عينة من اعضاء مجلس النواب العراقي مجلة الكوفة العدد 5

4- حرشب ليلى،تسيير المؤسسة في حالة أزمة دراسة حالة،الشركة الوطنية لإنجاز القنوات،رسالة ماجستير منشورة في غلوم الاقتصاد و علوم التسير جامعة أحمد بوقرة بومرداس الجزائر ، 2007.

5- -رائد فؤاد عبد العال،أساليب إدارة الأزمات لدى المدارس الحكومية في محافظات غزة و علاقتها بالتخطيط الإستراتيجي رسالة ماجستير منشورة في أصول التربية،الجامعة الإسلامية غزة، 2009.

6- -رهام راسم عودة، واقع إدارة الأزمات في مؤسسات التعليم العالي بقطاع غزة دراسة تطبيقية على الجامعة الاسلامية ،رسالة ماجيستير منشورة، غزة،2008.

7- ليلى عساف و خالد الصرايرة ،نموذج مقترح لتطوير إدارة المؤسسة التعليمية في الأردن في ضوء فلسفة إدارة الجودة الشاملة ،مجلة جامعة دمشق المجلد 27،العدد الثالث و الرابع 2011.

8- -ندى عز الدين أديب عنتور معوقات إدارة الأزمات في المدارس الحكومية الثانوية في محافظات الضفة الغبية و سبل علاجها من وجهات نظر المديرين رسالة ماجستير جامعة النجاح فلسطين خ212.

9- ماهر مُحَمَّد عليان أبو معمر، دور التربية و التعليم في إدارة الأزمات التعليمية التي تواجهها المدارس الحكومة في محافظات غزة و سبل تطويره، رسالة ماجيستير منشورة في أصول التربية، جامعة الأزهر غزة،2011.

10- ميسون طلاع الزعبي، درجة توفر عناصر إدارة الازمات في مديريات التربية و التعليم في محافظة أربيد من وجهة نظر رؤساء الأقسام فيها دراسات العلوم التربوية،المجلد 41، ملحق 1، الأردن،2014.

المراجع الأجنبية

11- Kano, M., Ramirez, M., Ybarra, W., Frias, G., & Bourque, L. (2007). Are schools prepared for Emergencies? A baseline assessment of emergency preparedness at schools sites in three Los Angeles County school districts. Education and Urban Society, 39(3), 399-422.

12- Michihide Kawano. School crisis and mental care the crisis response team (CRT) .JMAJ 51(3) : 164-168;2007

13- Zhong Kaibin . Ccrisis management in China .China Security .90 -109 Winter 2008

المؤتمر الدولي العلمي السادس للمركز الأوروبي للبحوث والاستشارات

في العلوم الإنسانية والاجتماعية تحت شعار " المستقبل بعين الحاضر والماضي"

تركيا – اسطنبول

جامعة مرمرة – كلية الإلهيات

3 - 4 / 5 / 2018

سيمياء الأحلام في التراث العربي

إعداد:

أ/ محرز حمايمي

جامعة قاصدي مرباح ورقلة- الجزائر

Email: hamaimi77@hotmail.fr

Ref: 6/2018/123

ISBN 978-1-9996437-3-7

الملخص :

إن التراث العربي والإسلامي يزخر بدرر علمية جادة تجعل الباحث اليوم أمام تحدي الأخذ من هذا التراث إخراجه في الثوب الأكاديمي الحديث ولعلى من أهم هذه المسائل التأويل في الإسلام ومن أقسام التأويل تأويل الأحلام بدلالة القرآن الكريم والسنة النبوية ومن أهم من أشتهر بذلك الإمام العالم مُحَمَّد بن سرين رحمه الله لذلك جاءت هذه الورقة لتبين كيف استخدم الإمام بن سرين القرآن الكريم والسنة النبوية في عملية التأويل والتي تعتبر في حد ذاتها عمل سيميائيا بامتياز وحتى ندلل على ذلك استخدمنا مقاربتي جاك بسون للوظائف وبيار غيرو للشفرات.

الكلمات المفتاحية :

التأويل ، الحلم ، الرمز ، الدليل ، الوظيفة ، الشفرات .

المقدمة:

لقد عرف الناس منذ القدم الأحلام، فاهتموا بها ودرسوها، ولا تخلو حضارة من الحضارات إلا وكان لها في الأحلام مقال ذلك أن طبيعة الحلم لا تخضع لقوانين المنطق ولا تعترف بزمان أو مكان ، لكن بالرغم من ذلك الغموض يحمل الحلم من الرمزية ما يجعله محل اهتمام وبحث لكل من أراد البحث في الدلالة والمفهوم، وهذا ما جعل الفلاسفة يهتمون به ويناقشونه بل وينصحون تلامذتهم بفهم وتفسير الأحلام، لأنه يحمل مادةً خام لمعرفة النفس البشرية وأسرارها.

كما قال **جورج أورول** "إن أسوأ شيء يمكن أن نفعله للكلمات هو الاستسلام لها، إذا كان يتوجب على اللغة أن تكون وسيلة للتعبير وليس للتستر أو الوقوف حاجزا أمام الفكر فعلينا ترك المعنى يختار الكلمات وليس العكس"[1] يصرح الباحث ميشال أريفي في كتابه " اللساني واللاوعي" عن الأحلام وتأويلها فيقول، "وينبغي أن نتذكر هنا أن الحلم موضوع سيميوطيقي"[2]، فالأحلام علامات مرئية والسيميولوجيا تدرس العلامات ومحك اهتمامها. كما أن الأحلام رموز، والرموز مادة شغل الحقل السيميولوجي، ومن هذا المنطلق جاءت دراستنا للأحلام

[1] – مجموعة مؤلفين ، **ثورة المشهد الإعلامي وفضاء الواقع** ،مركز دراسات الوحدة العربية ، ط1، بيروت، 2008.ص22.

[2] – ميشال أريفيه:**اللساني واللاوعي**، ترجمة محمد خير محمود البقاعي ، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، بيروت، ص112.

مفهوم الحلم:

لغة: يعرِّف ابن منظور الحلم لغة،[1] على أنه جاء من: حلم: الحُلْمُ، الحُلُم: الرؤيا، والجمع أحلام. يقال: حَلَم، يَحلُم إذا رأى في المنام. ال بشر بن أبي حازم: أحق ما رأيت أم احْتلام؟، وحَلَم به وحَلَم عنه: رأى عنه رؤيا أو رآه في النوم. وفي الحديث: من تحلَّم مالم يحلُم كُلِّف أن يعقد بين شعيرتين، أي قال إنه رأى في النوم مالم يره.

وفي الحديث: الرؤيا من الله والحُلم من الشيطان، والرؤيا والحلم هو ما يراه النائم في نومه من الأشياء، ولكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير والشيء الحسن، وغلبت الحلم على ما يراه من الشر والقبيح، ومنه قوله أضغاث أحلام، ويستعمل كل واحد منهما موضع الآخر، "وتضم لام الحلم وتسكن"

الحلم اصطلاحا: قال سيغموند فرويد: "وتعريف الحلم، هو أنه النشاط النفسي للنائم من حيث هو النائم"[2]

يعرفه **أيتنهوف Luc Ugttenhove** "الإنتاج النفسي المدمج تبعا للنشاطات العقلية لليقظة"[3]، أي أنه نشاط عقلي يثيره عامل نفسي، وقد سبقه إلى ذلك **فرويد** ولكن في صيغة أخرى، إذ حدد في تعريفه طابع ذلك العامل النفسي قائلا بأن:" الحلم هو نتيجة فعل رغبة لا شعورية والممارس على المادة التي توردها أفكار الحلم"[4]، وتعمل تلك الرغبة أو الدافع وفق آلية لاشعورية، بالشكل الذي عبر عنه فيسيل **Ficili** إذ يرى أن الحلم هو "بناء واقع من طرف الدماغ، بمجرد تحرر هذا الواقع من ميكانيزمات الحجز وبغياب روابط الزمان والمكان"[5]

بل إنه هناك من يرى أن الحلم أعمق من ذلك، من بينهم ميشيلي **Mucchielli** الذي يرى فيه مجرد تحقيق رغبة لأنه "تعبير عن اشكالية وجودية"[6]

وحسب المدير السابق لمعهد بحوث الأحلام في "**سنتاكروز**" بالولايات المتحدة الأمريكية كالفين هول **Calvin hall** فإن الحلم "هو تواتر من الصور العقلية وهي في غالبيتها صور بصرية من حيث نوعيتها، تمر بالفرد كخبرات خلال النوم، وللحلم عادة مشهد أو مشهدان ويشتمل علة عدة أشخاص بالإضافة إلى الشخص الحالم، ويتضمن سلسلة من الأنشطة والتفاعلات ...فهو (الحلم)

---

[1] – ابن منظور، **لسان العرب**، المجلد4، دار صادر،ط1، بيروت، 2000، ص209.

[2] – سيغموند فرويد، ترجمة مصطفى صفوان، **تفسير الأحلام**، دار الغرابي، ط1، بيروت، 2003، ص54.

[3] - L.Uyttenhove , **Dictionnaire des rêves**, Belgique, Marabout, 1982, p6.

[4] - Freud.S, **Le mot d'ésprit et sa relation à l'inconscient**, ed Gallimart, Paris, 1988, pp 292-293.

[5] - Ficili.H, Le **message des rêves**, ed Devecchi, S.A, Paris, 1987, p11.

[6] - Mucchielli.A, **l'analyse formelle des réves et des récits d'imagination** ,PUF, Paris, 1993, p31.

يشبه صورا متحركة أو عرضا دراميا يكون فيه دور الحالم مزدوج، إذ هو المشارك والمشاهد معا رغم أنه هلوسة، ذلك الحلم ليس له وجود مادي حقيقي ملموس، فإن خبرة الحالم به هي أنه يكون في وضع كأنه يرى شيئا حقيقيا"[1]

بالنسبة لهول "الرؤية الواضحة" الفاعلة هي التي تستحق الدراسة، وهذا الأمر لا يشاطره فيه الكثير ممن يرون أن الأحلام مهما كانت مدتها ومواضيعها ودرجة وضوحها تعتبر مادة أولية للأبحاث بشرط واحد أن يتذكر صاحبها فحواها، ومن أنصار هذا التيار سونجا مارجاش **Sonja marjash** التي تعرف الحلم على أنه قبل كل شيء تجربة فردية لا يمكن للفرد أثناء القيام بها تقاسمها مع الآخرين إلا بعد تذكر مضمونها، وهنا يصبح الحلم موضوعا للدراسة.[2] فالحلم لا يصبح مقبولا من طرف علم النفس كظاهرة علمية إلاّ بعد تذكره وتقاسمه مع الآخرين وهذا ما يؤكده **يونغ** في كتابه « **The nature of dream** » عام 1945.

أما الباحث **سعيد يقطين** فيقول: "عندما نتحدث عن الحلم ونعتبره موضوعا" للبحث فلأننا ننطلق من أنه "نص" مثله في ذلك مثل أي نص ينتجه الإنسان، وأي نص كيفما كان جنسه أو نوعه أو نمطه حاملاً للمعنى، غير أن نص الحلم من طبيعة مختلفة إنه يتراءى في خيال النوم، ويتخذ نسقا خاصا ومختلفا وعلى الأصعدة كافة"[3]

وعلى هذا الأساس نبلور التعريف الإجرائي للحلم التالي: " **الحلم مجموع العلامات المرئية والمسموعة المرموزة التي تتراءى للنائم، والتي لا تخرج عن حدّيَ البشارة أو النذارة"**

أما القول أن الحلم **علامة مرئية**، ذلك أن الرؤية أوسع من البصر لأنه يشترط في العلامة البصرية حاسة البصر، وهذا كما هو واضح غير متوفر لدى النائم، ولأن الرؤية تتعلق بالإدراك العقلي كانت العلامة المرئية أدق وأضبطُ وأقرب لمفهوم الحلم.

أما إضافة **مسموعة**، كثير من الأفراد يقولون أننا سمعنا في الحلم كذا وكذا، فحتّى نميّز ما بين المرئي والمسموع في الحلم ذكرنا **المسموعة**، وعادة ما يسميها العلماء العرب **بالهاتف**، فيقول الحالم: "سمعت في منامي هاتفا يقول كذا وكذا".

أما القول بأَّن الأحلام **مرموزة** فقد سبق لذلك علماء على غرار ما يرى "فرويد" و"لاكان" فالحلم عندهما مؤلف من مجموعة رموز، وهو نوع من سلسلة دلالات، إنه لغة لها قوانينها وآلياتها الخاصة التي تؤدي مباشرة إلى الوظيفة الرمزية.[4] أما كون هذه الأحلام **تتراءى للنائم**، حتى يخرج بذلك ما يكون خارج النوم من أحلام اليقظة أو الأحلام البنائية

---

[1] – فراداي أن، ترجمة عبد العلي الجسماني، **الأحلام وقواها الخفية**، الدار العربية للعلوم، بيروت، 1955، ص55.

[2] – Sonja Marjash, **Sur la psychologie du rêve chez CG yung**,

[3] – سعيد يقطين، **السرد العربي مفاهيم وتجليات**، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2006، ص232.

[4] – عبد الحميد شاكر، **الحلم والرمز والأسطورة**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، مصر، 1998، ص147.

2. الحلم في التراث العربي:

في حقيقة الأمر أن العرب اهتموا منذ القدم بمسألة الأحلام وتأويلها، قال ابن خلدون في مقدمته :"الرؤيا موجودة في صنف البشر على الإطلاق ولا بدّ من تعبيرها"[1]

والذي نريد التنبيه إليه أنها وإن وحدت في التراث العربي (الأحلام) فهي موجود ضمن علم مؤسس يسمى عند العرب بعلم "**تعبير الرؤيا**"، وابن خلدون نفسه عنْوَنَ فَصْلاً كاملا باسم "**علم تعبير الرؤيا**" والحقيقة أن كلمة "**تعبير**" مأخوذة من القرآن الكريم في قوله تعالى فيما قاله الملك للملأ: "**إن كنتم للرؤيا تعبرون**"[2]، فقولك: عبرت الرؤيا أي فسرتها، (كما في المصباح المنير للفيومي)، وأُخبرت بآخر ما يؤول إليه أمرها (كما في قاموس المحيط للفيروز أبادي ص558).

وهو كما قال الله سبحانه وتعالى في قصة يوسف لما رأى ما رأى وجرى له ما قدر ورفع أبويه على العرش قال " **يأبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقًّا**"[3].

والتأويل يطلق في القرآن على التفسير، ويطلق على حقيقة الأمر الذي يؤول ويصير إليها، وهو الغالب كما نبه عليه الشنقيطي في "**أضواء البيان**".

والتعبير خاص بتفسير الرؤيا وهو العبور من ظاهرها إلى باطنها كم في "الفتح" لابن حجر، وحكى الأزهري في "**تهذيب اللغة**" : أنه قيل لعابر الرؤيا عابر، لأنه يتأمل ناحيتي الرؤيا فيتفكر في أطرافها ويتدبر كل شيء منها ويمضي بفكره فيها من أول ما رأى إلى آخر ما رأى.[4]

والملاحظ من خلال ما ذكرنا أن المشهور في التراث العربي هو "**علم تعبير الرؤيا**"، وأن سائر ما يطلق عن الأحلام هو الرؤيا التي لها تأويل، ذلك أن العلماء يقسمون الأحلام إلى قسمين قسم صحيح وقسم فاسد.

وسوف نورد تقسيم الإمام **الشهاب العابر المقدسي الحنبلي** لأنه جامع مانع بتصرف:

القسم الصحيح: وفيه أربعة أنواع الرؤيا، وهو الذي يُعبر:

المحمودة ظاهرا، وباطنا/محمودة ظاهرا، مذمومة باطنا/المذمومة ظاهرا، وباطنا/المذمومة ظاهرا، والممدوحة باطنا.

أما القسم الثاني وفيه أيضا أنواع:

حديث النفس/يكون من غلبة الدم/يكون من غلبة الصفراء/ يكون من غلبة السوداء/ يكون من غلبة البلغم.

ثم بعدما ذكر التقسيم قال، والذي ذكرته غير مختلف فيه.

---

[1] – عبد الرحمان ابن خلدون، **مقدمة العلامة ابن خلدون**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2007، ص501.

[2] – الآية 43 من سورة يوسف.

[3] – الآية 100 من نفس السورة.

[4] – الشهاب العابر، **قواعد تفسير الأحلام**، تحقيق حسين بن محمد جمعة، مؤسسة الريان، ط2، بيروت، 2007، ص110.

والحقيقة أن عمدة العلماء في تقسيمهم للأحلام هو حديث **النبيّ صلى الله علية وسلم**: "**الرؤيا ثلاث: منها أهاويل من الشيطان ليحزن بها ابن آدم، ومنها ما يهم به الرجل في يقظته، فيراه في منامه، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة**"[1]

وقال **ابن عبد البر** في "**التمهيد**" (285/1) "وقد قسم **النبي** ﷺ الرؤيا أقساما تغني عن قول كل قائل"[2]

ونأخذ من ذلك أن الأحلام في التراث العربي بالجملة هي:

أولا: الرؤية الصادقة وهي من عند الله عز وجل.

ثانيا: الحلم وهو من الشيطان.

ثالثا: حديث النفس.

ونحن نذكر هذا لكي نميّز طبيعة الأحلام التي نحن بصدد دراستها سيميائيا، وعليه فإن الحلم هنا المقصود به الرؤيا في التراث العربي والتي لها تأويل وتعبير، إذن في هذا البحث لا نأخذ بعين الاعتبار بما يسمى بأحلام الكوابيس والتي تحدث عنها فرويد، وكذا حديث النفس.

[1] – رواه البخاري موقوفا (7017) وصححه الألباني (1870).

[2] – الشهاب العابر، م س ذ، ص 134.

3. نظريات الحلم:

في عرضنا التاريخي لنظريات الحلم، سنستند بشكل أساسي إلى الفصل الأول من كتاب فرويد "تفسير الأحلام"، حيث لم تكن الشعوب القديمة تنظر إلى الحلم على أنه نتاج لعقل الحالم، بل كانت تعتبره بمثابة وحي إلهي، وكانت هذه الشعوب تولي للأحلام أهمية كبرى كما تعتقد أن الأحلام تضع الحالم في اتصال مع العالم الإلهي وأنها في الغالب، تنذر بمستقبله، ومازال هذا الاعتقاد شائعا إلى عصرنا هذا في الأوساط الشعبية، وتشكل "مفاتيح الأحلام" العديدة خير دليل على ذلك.

هذه الشعوب القديمة (خلافا للأوساط العلمية في القرن التاسع عشر التي اعتبرت الحلم بمثابة ظاهرة لا معنى لها ولا دلالة)، كانت مقتنعة تماما أن للحلم دلالة، وسيتبنى فرويد، وإن كان بطريقة مختلفة هذا التصور القديم للحلم.

فما هي نظريات الحلم السائدة في القرن التاسع عشر؟

تبعا لفرويد يمكن، تقسيم هذه النظريات إلى ثلاث فئات:[1]

1. نظريات تترك النشاط النفسي يستمر كله في الحلم.
2. نظريات أخرى تفترض على العكس أن الحلم يتضمن نقصا في النشاط النفسي وتراخيا في الروابط وفقرا فيما يستطيع امتلاكه من المواد.
3. النظريات التي تعزو إلى النفس الحالمة قدرة ونزوعا إلى أنواع بنوعها من النشاط النفسي تعجز عن أداءها في الحياة المستيقظة كل العجز أو لا تؤديها إلا على نحو ناقص جدا.

ويؤكد المفكرون الذين ينتمون إلى الفئة الأولى وفي مقدمتهم **Delboeuf**، إن نشاط العقل لا يتوقف اطلاقا خلال النوم، ولكن بما أن ظروف النوم مغايرة تماما عن ظروف حياة اليقظة، فهي تؤدي إلى نتائج مختلفة، ويشير فرويد إلى أنه هذه النظريات لا تنسب إلى الحلم أي وظيفة، وهي عاجزة عن تفسير كل الاختلافات بين الحلم والفكر السوي بظروف النوم وحدها.

وترى نظريات الفئة الثانية في الحلم عملا عشوائيا للعقل ناتجا عن انخفاض النشاط النفسي الذي يحدث خلال اليوم، ويمكن تبعا لهذه النظرية مقارنة الحلم بالضعف العقلي أو التخليط العقلي.

وتعتبر هذه النظريات نفسها، والتي كانت أكثر شيوعا في الأوساط العلمية والطبية أن الحلم تحدثه اثارات جسمية، ويقول **فرويد** أن هذا التصور للأصل الجسمي للحلم أراد أن "يجرّد الحلم من قيمة العملية النفسية".

وثمة تصوران "مغريان" يرتبطان بهذه النظرية السائدة: تصور **Rober** وتصور **Delage**، فروبير يستند إلى الاعتبار القائل أن الفرد غالبا ما يحلم بأشياء غير مهمة، ينسب للحلم وظيفة محددة وهي "تحرير" العقل من الانطباعات الثانوية التي تحدث خلال اليقظة.

[1] – سيغموند فرويد، م س ذ، ص ص 108-114.

أما **Delage** فلا يعتبر أن المرء يحلم بأشياء غير مهمة، بل بأشياء "**غير مكتملة**" ويعتقد ديلاج أن كل الطاقة النفسية التي تكبت خلال النهار تظهر في الحلم خلال الليل، "ومن سوء الحظ يقول فروي دان ديلاج يقف بنظريته عند هذا الحد".

وينسب أصحاب النظريات الفئة الثالثة إلى الحلم نشاطا خاصا، فالحلم تبعا لهذه النظريات هو "النشاط الطبيعي للنفس، نشاط لا يقيده طغيان فردية ولا يعطله الشعور بالذات، ولا يوجهه الحلم الذاتي، وإنما هو الحيوية المراكز الحسية وقد خلت للعب الطريق" وفي الحلم ينطلق الخيال، ويتحرر من مقولات الفكر ولا يعود قادر على التعبير بلغة المفاهيم، لذا يلجأ الخيال إلى نمط تعبير قديم، ألا وهو الرمزية ويقول فرويد أن وراء محاولات التفسير هذه "يكمن جانب من الحق، وإن كان من المقطوع به أن هذا الجانب لا يدرك إلا على نحو غامض وأنه يفتقر إلى طابع العموم الذي لا تكون بغيره نظرية في الحلم جديرة بهذا الاسم".

ونلاحظ هكذا عدة تصورات متشابهة للتصور الذي صاغه فرويد حول الحلم والهستيريا، ونخلص من خلال العودة إلى العصور القديمة في تصور فرويد للحلم، ذلك أن فرويد سيؤكد تماما كالقدماء "وإن كان على مستوى آخر" إن للحلم دلالة وأنه يخضع للتفسير، ولكن نميل إلى الاعتقاد رغم كل أوجه الشبه التي يمكن أن ندركها بين أفكار فرويد وأفكار أسلافه ومعاصريه، تصور فرويد للحلم والهستيريا تصف بالجدة والتمايز.

صحيح أن كتابا كثيرين قبل فرويد قد تكلموا عن الأصل الجنسي للهستيريا، إلا أن فرويد وحده قد أدرج هذه الأقوال البسيطة في نظرية جديدة للنفس البشرية، عنينا بذلك نظرية التحليل النفسي، وبذلك قد اكتسبت هذه الأقوال البسيطة قيمتها العلمية وتحولت من مجرد أقوال إلى مفاهيم علمية، فالتعبير عن فكرة شيء وتأسيس علم شيء آخر، بقول فرويد في هذا الصدد: "أعلم جيدا أن التعبير عن فكرة على وجه السرعة مرة أو عدة مرات شيء، وأن تناول هذه الفكرة بجدية في معناها الحرفي، وتوسيعها، مرورا بكل التفاصيل التي غالبًا ما تتناقض مع هذه الفكرة أو الاستيلاء على موقع لها بين الحقائق الثابتة شيء آخر

3. التأويل:

لغة: جاء في لسان العرب لابن منظور:(في مادة أول : الرجوع آل الشيء يؤول أولا ومآلا: رجع وأول إليه الشيء: رجعه. وأول الكلام وتأوله: دبره وقدره، وأوبه وفسروه)[1]

اصطلاحا: أول ما ننطلق منه هو أن التأويل عند العرب ارتبط بالتفقه وتدبر نصوص القرآن، فالمراد بالتأويل نقل ظاهرة اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ.[2]

ويمكن إدراج في هذا الصدد تعريف ابن حزم للتأويل:(التأويل نقل اللفظ عما اقتضاه ظاهره وعما وضع له في اللغة إلى معنى آخر، فإن كان نقله قد صح ببرهان وكان ناقله واجب الطاعة فهو حق وإن كان ناقله بخلاف ذلك طرح ولم يلتفت إليه وحكم لذلك النقل أنه باطل)[3]

أما من وجهة نظر اللسانيين المعاصرين، مفهوما شديد التعقيد، نتيجة لتعدد دلالاته ولتشغيله في حقول معرفية مختلفة، فبالإضافة إلى العلوم الدينية التي جعلت منه مفهوما إشكاليا، وبعد الثورة الابستمولوجية التي أحدثتها العلوم الإنسانية والتي استلزمت منه التخلي عن الإشكالية المتمحورة حول الخطأ والصواب، عرف هذا المفهوم استعمالا مكثفا من طرف مجموعة من العلوم التي أغنته ونذكر على سبيل المثال لا الحصر، التحليل النفسي، الأنتروبولوجيا، علم الدلالة، الظاهراتية، الذكاء الاصطناعي والسيمياء بمختلف اتجاهاتها.[4]

والجدير بالذكر أن مفهوم التأويل شديد الارتباط بالتصور الذي نملكه عن الدلالة وعن شروطها وشروط وجودها وأشكال تحققها، فالمعطيات الأولية في مجال اللسان على الأقل تشير إلى أن الكلمة لا يمكن أن تقف عند حدود التعيين، فبالإضافة إلى حالة التعيين هذه تشتمل هذه الكلمة على مجموعة من السياقات المحتملة القابلة، ولعل أبسط التعابير الدالة على التأويل وضروراته هي الإجماع على القول بالتعددية الدلالية، سواء تعلق الأمر بالكلمة أو الوقائع غير اللسانية.

---

[1] -الحبيب الفقي، **التأويل أسسه ومعانيه**، سلسلة الدراسات الإسلامية، تونس، ص11.

[2] - سعيد بنكراد، **السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها**.

[3] - أحمد عبد المهيمن، م س ذ، ص30.

[4] - رشيد الإدريسي، **سيمياء التأويل**، شركة النشر والتوزيع مداس، المغرب، 2000، ص30.

4. الرمز:

ما دمنا أخذنا في هذه الدراسة زاوية توظيف الرمز في تأويل الأحلام، فإنه من الواجب أن نبين معنى الرمز، خصائصه ووظائفه.

مفهوم الرمز: المعلوم عند الباحثين أن كلمة **الرمز Symbole** مأخوذة من اليونانية (**Sun–bolon**)، وتعني قطعة من الخزف أو الخشب تقسم بين شخصين بيد كل واحد منهما قسم يدل على هويته ويثبت طبيعته صلته بالآخر، لذلك يتضمن تعريف الرمز معنيي الفصل والوصل في الوقت نفسه، إذ (**Sun**) تعني دائما فعل الجمع، وهي تأتي قبل الفعل (**Ballein**) وتدل حرفيا على: ألقى أو رمى مصافة، وقد استعملت الرموز في اليونان القديمة باعتبارها علامات يتسنى للآباء بواسطتها العثور على أبنائهم المعروضين للبيع.[1]

وينقل الباحث بسام الجمل في معرض حديثه عن المعنى الرمز ودلائله قراءة (**Gilbert Durant**) معتمدا في ذلك على كتابه « **L'imagination symbolique** » أن الرمز في اللغة الألمانية (**Sunnbild**) يمثل "الجامع بين الأزواج المتقابلة".

ومن ثمة أن الرمز يعني أمرين متلازمين هما:[2]

- الحس (**Sunn=sens**) الوعي الذي يدرك الأشياء ويجزئها بدقة.
- المادة الأولى أي الصورة(**Bind = image**) التي تنبعث من عمق اللاوعي (**L'inconscient**).

وحقيقة الأمر أن هذا التقسيم يعود إلى (كارل غوستاف يونغ) (**C.G .Jung**)، فهو يعتبر الرمز مؤلفا من وعي يكون في قسم مهم منه جمعيّا بما أنه متشكل من العادات والقيم ومناهج المعرفة واللغة التي يتعلمها المرء، ومن لاوعي ليس في نهاية الأمر سوى اللبيدو *(**libido**)في اصطلاح علم النفس.

ولأن العلامات المرئية التي يزخر بها الحلم لا تخرج بالأساس عن عادات وقيم الحالم ولغته، وكذا حالته النفسية إجمالا، فإنه هنا يبدأ يظهر لنا جليا شيئا فشيئا الرمز في الحلم، لكن هل يقتصر معنى الرمز على أصله الاشتقاقي في اللغات الهندوأوروبية فقط؟

والحقيقة أن الأمر ليس كذلك بل هنا تصوران آخران للرمز، هما:[3]

الأول: التماثل الرمزي (**L'analogie emblématique**) من قبل اعتبار الحمام رمزا للسلام والأسد رمزا للشجاعة.

الثاني: الرمز المنطقي الرياضي وهذا ما نجده في العلوم الفيزيائية.

والفرق بين التصورين أن الأول له علاقة بالمعاني الحسية (**Concrétisation**)، والثاني له علاقة بالمعاني التجريدية (**Abstraction**).

---

[1] – بسام الجمل، **من الرمز إلى الرمز الديني**، رؤية للنشر والتوزيع، ط1/ القاهرة، 2011، ص18.

[2] – المرجع نفسه، ص21.

* اللبيدو: المقصود به الطاقة النفسية.

[3] – بسام الجمل، م س ذ، ص22.

الرمز سيميولوجيا:

يقول كلود ليفي ستروس بأن الإنسان كان كلما انكفأ على استجلاء غوامض هذا الكون إلا ووجد نفسه حيال فائض من الدلالة الذي يوزعه على الأشياء وفق قوانين الفكر الرمزي.[1]

ومن منطلق التفاعل مع الرمز فقد استطاع أن يحول أجدادنا إلى أشخاص متفاعلين، نبعت من خلالها جميع الحضارات واستمرت، كما لعبت دورا كبيرا في تراكم التراث البشري وفي نمو الثقافة وتطورها، فالرموز عبارة عن أشياء تدل وهي تشتق معناها ووظيفتها الأساسية من إجماع الجماعة التي تستعملها على مدلولات معينة، أي أن التعابير الإجتماعية لدى الجماعة هي التي تحدد الأشياء والمعاني التي تدل عليها الرموز المستعملة لدى الجماعة.[2]

ولكن مفهوم الرمز سيميولوجيا سيكون التعامل معه، كنوع من أنواع الدلائل التي صنفتها كل من المدرستين الفرنسية والأمريكية، ولكن قبل الخوض في هذا التصنيف يجب التعرف على معنى الدليل في علم اللسان وكذا في السيميولوجيا:

الدليل في علم اللسان:

هو الذي أطلقه دي سوسير على التوليف بين المتصور الذهني والصورة الأكوستيكية (السمعية)، واستنتج منها احدى خواص اللغة المركزية وهي خاصية التقطيع المزدوج، وتفرع الدلالة اللغوية المستمر إلى دال (Signifiant)، ومدلول (Signifie) ليجمع بينهما رابط اعتباطي، أي علاقة متمثلة في كونها اصطلاحية وتعاقدية بين أعضاء الجماعة اللغوية.

الدليل في السميولوجيا:

إذا كان الدليل في علم اللسان اعتباطيا، فإن الأمر يختلف فيما يخص الصور البصرية والصوتية مثل الصورة الفوتوغرافية، الصورة المتحركة والضجيج بحيث أن علاقتها بالواقع ليست كلها اعتباطية وإنما قد تكون جزئيا أو كليا معللة، كإشارات قانون المرور مثلا، التي يمكنها أن تكون إما اعتباطية بأضوائها الثلاثة (الأحمر، الأخضر، الأصفر)، أو جزئية معللة.[3]

وانطلاقا مما سبق ذكره نتطرق إلى التعرف على مفهوم الرمز من خلال تصنيفه في كل من المدرستين الفرنسية والأمريكية:

ففي التصنيف الفرنسي يعرف الرمز بأنه الاشارة الاتصالية التي تسجل علاقة قياس ثابتة داخل ثقافة معينة مع العنصر الذي تمثله.[4]

---

[1] – مُحَمَّد بن حمودة، **الأنتروبولوجيا البنيوية أو الحق في الإختلاف من خلال أبحاث كـ–ل–س**، دار مُحَمَّد على الحامي للنشر، تونس، بدون تاريخ، ص103.

[2] – ثريا نصر، **تاريخ أزياء الشعوب**، عالم الكتب، مصر، 1998، ص29.

[3] – محمود ابراقن، اللسانيات والسيميولوجيا (علم السيمياء) والسيميوطيقا، دراسة ابستيمولوجية وتصنيف مختلف الدلائل، **حوليات جامعة الجزائر**، العدد 09، ج2، 1996، ص90.

[4] – المرجع نفسه، ص88.

كشكل (Z) الذي تتضمنه لافتة المرور (المنعطف الخطير)، والذي يعبر عن وجود خطر محتمل، فيكون بذلك بين العنصر (أ) شكل اللافتة والعنصر (ب) المنعرج الطريق، علاقة طبيعية وطيدة، ففي هذه الحالة يعتبر الشكل (Z) رمزا عكس الدليل السيميولوجي الفرنسي الذي لا تجمع بين طرفيه علاقة قياسية تشابهية.

أما مفهوم الرمز في التصنيف الأمريكي، فهو عكس ما نصت عليه المدرسة الفرنسية، فهو اعتباطي أو عرفي غير معلل ولا يستند إلى أي علاقة قياسية أو أيقونية تربطه مع الواقع، ليعادل بذلك الدليل اللساني السوسوري.[1]

وبناءاً على طبيعة العلاقة القياسية بين الرمز والواقع في التصنيف الفرنسي فلا بأس أن نشير إلى ما يعادله في التصنيف الأمريكي، ألا وهو الأيقونة، التي تدخل بدورها في علاقة تشابه مع الواقع الخارجي وتظهر نفس خصائص الشيء المشار إليه.

خصائص الرمز قد ارتأينا ذكر خصائص الرمز من المنظورين الأنثروبولوجي والفينومينولوجي، ورصدنا خمس خصائص كبرى يمكن أن تتصف بها الرموز، وتتمثل هذه الخصائص في ما يلي:

أولا: التلبس بالوجود الإنساني:

إذ لا سبيل إلى الكلام على الرموز خارج الحياة الإنسانية*، لذا يستحيل غياب الرموز عن أيّة وضعية وجودية للإنسان في الكون.

ثانيا: قد تكون العلاقة في الرمز بين الرامز (Le symbolisant) والمرموز إليه (L symbolisé) نازعة إلى شيء من الثبات، من ذلك القبة في المسجد أو الخيمة لدى البدو الرحل ترمز دائما إلى السماء، ولكن الثبات المشار إليه في العلاقة بين مكوني الرمز ليس ثابتا مطلقا، بمعنى أن للرمز معنًى بديهيا ومتفقا عليه ولكن بالإمكان أن تضاف إلى ذلك المعنى الأصلي معاني أخرى.[2]

ثالثا: للرمز معقوليته الخاصة ومنطقه المميز له: فرمزية الألوان (في قانون المرور) ليست محايدة أو اعتباطية، (اللون الأحمر يرمز إلى الخطر، بينما يرمز اللون الأخضر إلى الأمان)، ومن ثمة فإن الرمز لا يقوم دائما على الاعتباط مهما تعددت دلالاته.[3]

رابعا: خضوع الرمز لمبدأ التصنيف: فهي تتوزع على مراتب عديدة أهمها:

- **الرمز الحي والرمز الميت:** ذلك أن الرمز الحي هو الذي يمد المرء بمعنى يحسه دون أن يدركه بدقة ودون أن يتمكن منه تمكنا، وهذا ما يستدعي، مثلما يرى "يونغ"، وجود تلازم بين الرمز واللاوعي، وحينئذ يبقى الرمز حيا ما بقيت الإحاطة بمعناه الكلي إحاطة جزئية، حيث يقول:

---

[1] – المرجع نفسه، ص90.

* التواصل الرمزي ممكن أو حاصل بين البشر، ولكنه متعذر بين سائر الحيوانات، إذ التواصل بينها إشاريّ بالأساس.

[2] – بسام الجمل، م س ذ، ص33.

[3] – المرجع نفسه، ص34.

« Le symbole traduit un fragment essentiel de l'inconscient, et plus ce fragment est répandu, plus est général aussi l'effet du symbole, puisqu'il fait vibrer en chacun la corde commune » [1]

أما الرمز الميت فهو يصبح كذلك حين يعثر مستعمله على العبارة الدالة على شيء يبحث عنه، وعندئذ يموت الرمز ولا تكون له إلا قيمة تاريخية.

- توزع الرموز بين أن تكون **كونية** وبين ألا تكون كذلك، فكلما كان الرمز قديما وأصيلا نزع إلى أن يكون جمعيّا وكونيّا.
- **الرمز البسيط والرمز الصميم** (**Le symbole authentique**)، فالرمز البسيط هو الرمز الميت كما ذكرنا سابقا، أما الرمز "الصميم" فإنه يتوفر على ثلاثة أبعاد حسب (**Paul Ricoeur**) ، فهو في الوقت نفسه:
  - **كوني** (**Cosmique**) لأنه يتجلى في العالم المرئي المحيط بنا.
  - **حلمي** (**Onirique**) أي أنه ينتمي إلى عالم الأحلام، إذ الرمز متجذر في الذكريات والحركات التي تظهر في أحلامنا معبرة عن سيرتنا الحميمة تعبيرا واضحا.
  - **شاعري** (**Poétique**) لأنه يُتوسل إليه بواسطة اللغة.

خامسا: قابلية الرمز للتأويل:

بمعنى أن الرمز لا معنى له ما لم يخضع لعملية تأويلية حسب معايير دقيقة تختلف باختلاف منطلقات المؤولين الفكرية والمنهجية.[2]

وظائف الرمز: لقد حدد (**J.Chevallier**) في مؤلفه « **Dictionnaire des symboles** » تسعة وظائف نعرضها كالتالي:[3]

الوظيفة الاستكشافية (**F. Exploratoire**): يكشف الرمز عن المغامرة الروحية للفرد أو للمجموعة، ويوسع من مجال الوعي ومداه، حيث أن الإنسان يستعمل التعابير الرمزية كلما عجز عن صوغ تعريفات أو حدود لمتصورات عديدة، أي إنّه يلوذ بالرمز للتعبير عما لا يرى أو عما يخرج عن حدود الرمز.

الوظيفة الاستبدالية (**F. de substitut**):إن الرمز من خلال شكل مجازي معين يحل محل سؤال أو صراع أو رغبة يبقى جميعها معلقا في اللاوعي، ويحقق الرمز عبر هذه الوظيفة إشباعا أو يوفر جوابا يستبدل به سؤالا أو رغبة دفينة في اللاوعي.

الوظيفة الوسائطية (**F. Médiatrice**): يعيد الرمز جمع عناصر الوجود أو النفس المنفصلة والمتنافرة، فيمد جسورا بينها إنه يصل بين السماء والأرض، وبين المادة والروح، وبين الطبيعة والثقافة، وبين الواقع والحلم، وبين الوعي واللاوعي.

ومن ثم يمثل الرمز عاملا من عوامل التوازن، هو عند الفحص توازن نفسي، بل إنه توازن الشخصية الإنسانية.

---

[1] – المرجع نفسه، ص 34.

[2] – المرجع نفسه، ص37.

[3] – المرجع نفسه، ص 64.

وظيفة توحيد: للرموز قوى توحيدية، ذلك أن الرموز الأساسية تختزل التجارب الإنسانية برمتها، ثم إن الرموز تحقق تأليفا للعالم بأن تظهر وحدته الأساسية في مختلف أبعاده، كما أن الرموز تصل الإنسان بالعالم، فلا ينتابه شعور بكونه إنسانا غريبا في الوجود.

الوظيفة البيداغوجية والعلاجية: يوجد المرض لدى الإنسان بأن قوى فوق فردية (Force sur-individuelle) تشاركه حياته، إذ الرمز يجعل الطفل أو الرجل يحسان بأنهما ليسا كائنين معزولين عن المجموعة أو تائهين في الوجود الفسيح، ومن ثمة يعبر الرمز عن واقع يستجيب لرغبات مختلفة من حب المعرفة وطلب الأمان، ففي الرمز حقيقة يعسر تعريفها ولكن المرء يحس بها، إنها بمثابة الطاقة النفسية التي تؤكد للفرد انتماءه للمجموعة.

وظيفة اندماج اجتماعي: لما كانت لكل مجموعة بشرية ولكل حقبة تاريخية رموزها المحددة، فإن التفاعل مع تلك الرموز يعني مشاركة المجموعة في مشاغلها وأحلامها وقيمها، ولذلك يمكن القول إن الحقبة التاريخية الميتة هي حقبة بلا رموز، باعتبار أن المجتمع العاري من الرموز هو مجتمع ميت، بل إن كل حضارة ليس لها رموز مآلها الموت الحتمي، وإزاء هذا يمثل الرمز وسيلة فعالة ومجدية لتحقيق التفاهم والتواصل بين الأفراد والجماعات، لذلك فإن كل من يدرك المعاني الرمزية عند فرد أو جماعة يتمكن لا محالة من معرفة أعماق ذلك الفرد أو تلك الجماعة.

وظيفة رجع الصدى (F. de résonance):إن مقصد علم الاجتماع من التمييز بين الرموز الحية والرموز الميتة هو التنبيه إلى أن الرموز الميتة ليس لها صدى في الوعي الفردي أو الجمعي، لذلك أن الصورة عامة تكون ميتة أو حية حسب رجع صداها في نفس المتقبل الفرد أو الجمهور العريض في ضوء القيم التي يدين بها.

وظيفة تعالٍ (F. Transcendante): إن الصلة المتوازنة بين الاجتماعي والفردي لا تتحقق إلا في ضوء تأليف منسجم بين المتطلبات التي غالبا ما تكون متباينة لدى الفرد أو الجماعة، وهنا تكون للرمز قدرة فائقة على التأليف وخلق التناغم بين العناصر المختلفة وحتى المتقابلة منها، ومن ثم ينهض الرمز بوظيفة التعالي بالمعنى الإصطلاحي للكلمة في تفكير "يونغ"، إذ يعني التعالي في هذا السياق تحديدا المرور من موقف إلى آخر بتأثير هذه الوظيفة (أي أن الرمز يمد جسور التواصل بين القوى المتعاكسة من أجل تجاوز ما بينها من تقابل).

وظيفة محول للطاقة النفسية: باستطاعة الرمز التعبير عن أعماق الأنا (**Le moi**) وترجمة صورتها وتحديد شكلها، إنه ينمي السيرورات النفسية بواسطة الطاقة التأثيرية للصور.

إن الملاحظ لهذه الوظائف يدرك أهمية الأدوار التي يؤمنها الرمز في حياة الفرد أو المجموعة قي مختلف الأبعاد النفسية، الاجتماعية والدينية، ومن شأن ذلك أن يعزز صحة الأطروحة القائلة بأن التفكير الرمزي خاصية مركزية في حياة الإنسان عامة ومكون محوري من مكونات ذاته من وجهة نظر أنتروبولوحية.

5- **تحليل الحلم حسب تقسيمات بيير قيرو للشفرات :**

يحكى أن رجلا أتى ابن سيرين، فقال: رأيت كأني أؤذن.

فقال: تحج.

وأتاه آخر، فقال: رأيت كأني أؤذن.

فقال: تقطع يدك.

قيل له كيف فرقت بينهما؟

قال: رأيت الأول سيما حسنة فأولت: "وأَذَّن في الناس بالحج"، ورأيت في الثاني سيما غير صالحة فأولت: "وأَذَن مُؤذن أيتها العير إنكم لسارقون".

- **الشفرات المنطقية:**

تهدف هذه الشفرات إلى إبراز العلاقة التي تربط الإنسان بالعالم وهي كثيرة: لدينا الرموز **المساعدة للغة auxiliaires du langage**، فكل اتصال لفظي يصحب معه دائما رموز غير لفظية، منها مثلا الإيماءات، وفي هذه الرؤية هناك دليل على وجود هذه الرموز في قول ابن سرين في الراوي "أسماء حسنة" وفي الراوي الثاني "سيّما غير صالحة" وقوله رأيت يعني أنه شاهدها واستنبطها من حال الراويان وليس من مقالهما، وهذا فيه دليل آخر أنها قرينة Indice والتي صنفها "غيرو" في "الرموز الجسدية" أما **الرموز البونية le code proxémique** تظهر في المسافة بين الراوي والمؤول، وتدرس تموقع الأفراد داخل المكان، وكيفية شغله له والمسافة قريبة لأن الكلام شفوي مما يدل على السماع، وهذا يتناسب والثقافة الإسلامية، وهذه المسافة مهمة وكافية لمعرفة الرموز الجسدية.

- **الشفرات الجماليةles codes esthétiques** :

الشفرات الجمالية تكمن أولا في كون شخصية ابن سيرين لدى الجميع أنه مؤوّل بل إمام المؤوّلين في زمانه والأمر الثاني يتمثل في جمالية اللغة في حدِّ ذاتها، وفصاحتها وسلاماتها، وكذلك لأن العرب تقول "خير الكلام ما قلّ ودلّ"، وأيضا جمالية القرآن الكريم وكيفية توظيفه.

- **الشفرات الاجتماعية les codes soucieux** :

الشفرة الاجتماعية علاقة بالإنسان حيث من خلالها يعبر عن هويته وانتمائه، فهناك وحدات سيميائية دالّة على هذه الشفرات، جملة "يحكى أن رجلا أتى "ابن سيرين" و أتاه آخر" دليل على أن هذا المجلس يحوي رجالاً، وهذا فيه إشارة واضحة على أهمية ومكانة شخصية ابن سيرين حيث يأتوه الناس بكثرة، والأمر الآخر اللغة المستعملة هي العربية تدّل على أن المجتمع عربي إسلامي، حيث يعتبر الآذان من رموز المسلمين، وقبله القرآن الكريم فالاستشهاد به وتوظيف رمزيته كلها دلالات وعلامات على حضور الشفرة الاجتماعية

الاستنتاجات العامة:

إن دراسة الأحلام بشكل عام تتطلب الحذر والحيطة لطبيعة الأحلام واللغة الرمزية التي تتمتع بها، غير أن المعالجة السيميائية للأحلام تكشف الكثير من الجوانب الغامضة في هذه الأحلام، بل وتفكك ولو بجزء بسيط تلك الرمزية وفي المقابل هذه الدراسة تعطي المتعة العلمية للباحث الذي يريد كشف أغوار هذا العلم.

خاصة وأن التراث العربي الإسلامي يزخر بدُرَرٍ نفيسة في هذا المجال من الدراسات، فإنه مازال بحاجة إلى الدراسات السيميائية الجادة التي تخرجه إلى النور من خلال وضعه في الاطار العلمي الأكاديمي، والحقيقة أنَّ تناولنا لكتاب "تفسير الأحلام" لابن سيرين يعد خطوة في هذا المسار، فقد رأينا من خلال هذه المحاولة القوة العلمية الموجودة في التراث وكذا الجهاز المفاهيمي الغني الذي تزخر به تلك المؤلفات.

إذن لاحظنا وبشكل علمي كيف أن الأحلام يمكن دراستها سيميولوجيا والوصول إلى أغوار دلائلها من خلال الكشف عن التوظيف الذي قام به ابن سيرين للرمز واستخدام الدلالة وأخذ الحلم كعلامة وهكذا ...

بل ورأينا أنه هنالك فعلا منظورا سيميائيا للأحلام في التراث العربي من خلال مجموع المفاهيم والمصطلحات التي عالجنا بها الأحلام سيميائيا وتطبيقها على ما جاء في عينة الأحلام المأخوذة من الكتاب المدروس ، ومن جهة أخرى توصلنا إلى الكيفية التي وظف بها ابن سيرين هذا المنظور خاصة من خلال تطبيقنا لمقاربة رومان جاكبسون وبيارقيرو.

ولتوضيح ذالك كله بشكل دقيق يمكن سرد النتائج المتوصل إليها على النحو التالي :

. أهمية الحلم للفرد والتوازن النفسي الذي يحدثه ما يعطي مزيدا من التبرير لدراسة الحلم دراسة سيميوليجية .

. ومنها إرتباط الأحلام بالحضارات القديمة والحديثة ما يدل على أنها كانت محل إهتمام الناس منذ القدم .

. ومنها أهمية الدراسات النفسية للأحلام لفهم الرمزية الحلمية كما يسميها فرويد ، وكذا المعاني الظاهرة والكامنة للأحلام عموما .

.ومنها التميز العربي الإسلامي في فهم الأحلام وتأويلها ، وهذا ما يظهر الدرر العلمية التي يحتويهاالتراث العربي الإسلامي ، والتي تحتاج بطبيعة الحال إلى وضعها في الإطار العلمي الأكاديمي .

1) أهمية الحلم في حياة الفرد بشكل عام، وعدم انفصاله عنه، وفائدة التوازن النفسي التي يحدثها في النفس البشرية، فهو بحق كما قال يونغ حياة ثانية.

2) ارتباط الأحلام بالحضارات القديمة والحديثة واهتمامهم بها منذ القدم، وتفاوت الناس في تعاملهم معها، واختلاف تصوراتهم عنها لاختلاف مشاربهم ومنطلقاتهم.

3) أهمية الدراسات النفسية للأحلام وتذليل الطريق للعلوم الأخرى من أجل تناولها، والسيميولوجيا بشكل خاص وذلك من أجل فك لغز الأحلام.

4) الخصوصية العربية الإسلامية في فهم الأحلام وتأويلها.

5) اعتماده على نسق سيميولوجي في تناول الأحلام وتأويله

قائمة المراجع

1. ابن منظور، **لسان العرب**، المجلد4، دار صادر،ط1، بيروت، 2000
2. أومبيرتو إيكو، ترجمة سعيد بنكراد، **التأويل بين السيميائيات والتفكيكية**، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب، 2000
3. الآية 100 من نفس السورة.
4. الآية 43 من سورة يوسف.
5. بسام الجمل، **من الرمز إلى الرمز الديني**، رؤية للنشر والتوزيع، ط1/ القاهرة، 2011
6. ثريا نصر، **تاريخ أزياء الشعوب**، عالم الكتب، مصر، 1998
7. الحبيب الفقي، **التأويل أسسه ومعانيه**، سلسلة الدراسات الإسلامية، تونس
8. رشيد الإدريسي، **سيمياء التأويل**، شركة النشر والتوزيع مداس، المغرب، 2000
9. سعيد بنكراد، التأويل بين الكشف والتعدد ولانهاية الدلالات، **مجلة العلامات**
10. سعيد يقطين، **السرد العربي مفاهيم وتجليات**، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2006
11. سيغموند فرويد، ترجمة مصطفى صفوان، **تفسير الأحلام**، دار الغرابي، ط1، بيروت، 2003
12. الشهاب العابر، **قواعد تفسير الأحلام**، تحقيق حسين بن مُحَّد جمعة، مؤسسة الريان، ط2، بيروت، 2007
13. عبد الحميد شاكر، **الحلم والرمز والأسطورة**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، مصر، 1998
14. عبد الرحمان ابن خلدون، **مقدمة العلامة ابن خلدون**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2007
15. فراداي أن، ترجمة عبد العلي الجسماني، **الأحلام وقواها الخفية**، الدار العربية للعلوم، بيروت، 1955
16. مجموعة مؤلفين ، **ثورة المشهد الإعلامي وفضاء الواقع** ،مركز دراسات الوحدة العربية ، ط1، بيروت، 2008
17. مُحَّد بن حمودة، **الأنتروبولوجيا البنيوية أو الحق في الإختلاف من خلال أبحاث ك–ل–س**، دار مُحَّد على الحامي للنشر، تونس، بدون تاريخ
18. محمود ابراقن، اللسانيات والسيميولوجيا (علم السيمياء) والسيميوطيقا، دراسة ابستيمولوجية وتصنيف مختلف الدلائل، **حوليات جامعة الجزائر**، العدد 09، ج2، 1996
19. ميشال أريفيه:**اللساني واللاوعي**، ترجمة مُحَّد خير محمود البقاعي ، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، بيروت
20. Ficili.H, Le **message des rêves**, ed Devecchi, S.A, Paris, 1987
21. Freud.S, **Le mot d'ésprit et sa relation à l'inconscient**, ed Gallimart, Paris, 1988
22. L.Uyttenhove , **Dictionnaire des rêves**, Belgique, Marabout, 1982
23. Mucchielli.A, **l'analyse formelle des réves et des récits d'imagination** ,PUF, Paris, 1993.

المؤتمر الدولي العلمي السادس للمركز الأوروبي للبحوث والاستشارات

في العلوم الإنسانية والاجتماعية تحت شعار " المستقبل بعين الحاضر والماضي"

تركيا – اسطنبول

جامعة مرمرة – كلية الإلهيات

3 - 4 / 5 / 2018

التحليل السيميو أنثروبولوجي كأفق جديد لبحوث ودراسات الإعلام والاتصال في العالم العربي

إعداد:

د / راشدي وردية

د/ بووزة باية

جامعة الدكتور يحي فارس- الجزائر

Email: rachaor2009@yahoo.fr

bayabououza@hotmail.com

Ref: 6/2018/124

ISBN 978-1-9996437-3-7

الملخص:

تسعى هذه الورقة البحثية للكشف عن التحليل السيميو أنثروبولوجي ، كأفق جديد للبحث يسعى للكشف عن دلالات ومضامين الأنساق الإعلامية، و يفكك بينية خطاب الرسائل الاتصالية متجاوزا حدود التكميم، إلى التعمق في ظروف إنتاجية المعاني والدوال بتأمل سيرورتها التأويلية، لفهم الخصوصية الاجتماعية والثقافية والإيديولوجية المتحكمة في تشكيل دوال الخطاب، مما يسمح بضبط خصوصيته، من خلال ربطه بمتغيرات الفضاء السيميائي المتحكم في تحديد علاماته ورموزه وشفراته.

ووفق هذا المنظور، يسمح التحليل السيميو أنثروبولوجي بتحديد هوية الخطاب الإعلامي، عبر فتح المجال لتحليل كيفي معمق، يحيط بكافة جوانب الظاهرة المدروسة محددا مضامينها كسيرورة متكاملة من الظروف والعوامل والمتغيرات التي أسهمت في توليد الدلالة، وتوجيهها. و هو ما سنحاول تحليله في إطار هذه المداخلة العلمية، التي تبحث في أسس و خصوصيات التحليل السيميو أنثروبولوجي، لتحديد مستويات تطبيقه في بحوث ودراسات الإعلام والاتصال في الوطن العربي، وعليه، تتحدد الكلمات المفتاحية في : **التحليل الكيفي، السيميو أنثروبولوجيا، الخطاب الإعلامي ، المضامين الاتصالية، السيرورة الدلالية**".

مقدمة

الظاهرة الإعلامية وليدة المتغيرات التي تؤطر أسس التفاعل الإنساني وتحدد أنماط العلاقات الاجتماعية الانسانية، كما تحوي علامات تحيل إلى مرجعية الذات البشرية، وتترجم خصوصيتها الثقافية والاجتماعية، مكوّنة أنماطا علاماتية تتغذى بالمرجع ، وتتشبع برمزية المتغيرات المشكلة للفضاء السيميائي الذي يحتضنها.

واستحضار ما ذكرناه بالفضاء السيميائي يوحي إلى سياق إنتاجية العلامة، ولو أسقطنا ذلك على الظاهرة الإعلامية، سنجد ذلك يتجاوز حدود المرجع ليستقطب إلى حقله الدلالي كل المتغيرات المحيطة بالحدث ، والمساهمة في إنتاجيته، ولا تتوقف هذه المتغيرات عند حدود ما يمكن تسميته بـ :" **فواعل الخطاب الإعلامي**"، ليستوفي بشموليته السياق المكاني والزماني و وضعية إنتاجية الأحداث، وطبيعتها و سوابقها و ما نجم عنها.

كما يستوفي هذا المفهوم ما هو وثيق الصلة بالفضاء السوسيو ثقافي والسياسي والإيديولوجي، ليشكل بتناص هذه الفضاءات خلفية الحدث، والفضاء السيميائي المغذي لإيديولوجيته، فتكون الوسيلة الإعلامية بذلك ركيزة أساسية في بلورة المعاني وإنتاجية الدوال عند حدود ما هو تقني، لتمكين التلقي وتفعيله، و قد تتجاوزه فتتحول الوسيلة إلى لعبة إيديولوجية توسّع الحقل الدلالي للخطاب الإعلامي و تتحكم في سيرورة إنتاجية المعاني، وهنا، نتجاوز الوسيلة إلى استحضار للقائم بالاتصال، والمتحكم في تمويلها و رسم خطها الافتتاحي.

بموجب ذلك يتحول الفضاء من بعده الجغرافي إلى البعد الإيديولوجي الأوسع، الذي يتحول بدوره إلى مفتاح دلالي هام وفعال في تأويل إنتاجية المعاني، وفق أسس معرفية تستحضر ظروف الخطاب الإعلامي. وفق هذا الطرح يصبح الخطاب الإعلامي وليد فضائه السيميائي، ومنتج لكل المتغيرات المشكلة له، ولتحليله لا بد من مقاربة شمولية تراعي هذه الخصوصية، لاسيما وأنه خطاب يتغير بتعدد المتغيرات ،و آليات التأويل، ومن شأن هذه المقاربة أن تنطلق من البعد الشمولي كقاعدة أساسية لتحليل الخطاب ،وتستوفي في الوقت ذاته تناصه السيميائي مع الخطابات الأخرى، بفعل ما يمكن تسميته ب:" المحاكاة والتقليد" .

وهنا، يجد الباحث نفسه أمام إلزامية معايشة ظروف الإنتاجية للتمكن من المفاتيح التأويلية، ،وهو المسعى التحليلي الذي يتحقق بفعل:" **المقاربة السيميو أنثروبولوجية** "، التي يمكن أن تكون البديل المنهجي عن المقاربات التحليلية المرتبطة بفهم الظاهرة الإعلامية في العالم العربي،لارتكازها على الخصوصية الثقافية والإيديولوجية المحيطة بالخطاب الإعلامي والمتضمنة في ثناياه، لكن السؤال الذي يبقى مطروحا: **كيف يمكن تطبيق المقاربة السيميو أنثروبولوجية على الظاهرة الإعلامية في الوطن العربي؟**

أولا، الظاهرة الإعلامية وخصوصيتها في الوطن العربي:

تشكّل الظاهرة الإعلامية موضوعا أساسيا لبحوث الإعلام والاتصال، لدى ينبغي العودة إلى إبستومولوجيا علوم الإعلام والاتصال، للتحديد التدقيق المفاهيمي لكل منها لفهم الظاهرة الاعلامية. فلو حاكينا مفهوم الإعلام، ألفيناه يشير إلى مرادفه الأساسي المتمثل في الإخبار:" فالإعلام هو تزويد الناس بالأخبار الصحيحة والمعلومات السليمة والحقائق الثابتة". ولعل أهم ما يركز عليه هذا التعريف في تحديده للإعلام :" **الصدق والمصداقية والصحة " وهو ما يؤكده :" فرنان تيرو" بقوله:" الإعلام هو نشر الحقائق والآراء في صيغة مناسبة بواسطة ألفاظ أو أصوات أو صور، أو بصفة عامة بواسطة جميع العلامات التي يفهمها الجمهور**"(**1**). و وفقا لـ :" **زهير إحدادن**" فعلى الرغم من تداولية المصطلح منذ عصور غابرة، إلا أن المفهوم العلمي له يرتبط باستعمال الوسائل العصرية من إذاعة وتلفزيون ، وهو الشق الأول من الاتصال، حيث يراد به الإيصال والإخبار، بينما يستوفى الشق الثاني من خلال آلية رجع الصدى، والتي تفعّل دور المستقبل في هذه العملية (**02**).

فالظاهرة الإعلامية هي التي يتم تسويقها عبر خطاب مفعلا مضمونا وتقنية و أداء للإجابة عن الأسئلة الستة، التي تحيل إلى المتغيرات المشكلة لهذه الظاهرة، ويتعلق الأمر بما يلي(03):

- **من ؟** : ويقصد به الفاعلون في الخطاب الإعلامي سواء كانوا جليين أو خفيين.
- **لمن ؟** و يقصد به الجمهور أو المتلقي على اعتباره المستهدف.
- **ماذا؟** : يراد به تقصي مضمون الظاهرة الإعلامية ككل، وتكون خلفه مجموعة من المتغيرات
- **لمن؟** : يتوجه الخطاب الإعلامي أي الجمهور المتلقي.
- **بأي وسيلة؟** : تتعدد الوسائل بتعدد تقنياتها و نوعية الوسيلة تمارس تأثيرا على متلقيها.
- **بأي تأثير؟**: يتوقف ذلك على نوع المضمون و خصوصية الوسيلة، و سيكولوجية المتلقي.

لذا فإن البحث في علوم الإعلام والاتصال يفرض التقيد بالأسس الإبستمولوجية لمناقشة الإشكاليات البحثية التي يولدها النسق المنبثق عنهما، مع الأخذ بعين الاعتبار خصوصية المعرفة العلمية في هذا المجال، باعتبارها:" **مسألة حيوية في فلسفة الاتصال، تحتل دورها الحقيقي و الفعال في العملية الاتصالية الإنسانية الهادفة إلى إنماء الإنسان وتعزيز تفاعلاته**"(**04**).

مما يستدعي وجود أسس ومناهج علمية خاصة بجوانب دراسة الظاهرة الإعلامية والاتصالية، ويستوفي كل منها قياس المؤشرات الوثيقة الصلة بها، على اعتبار أن ميدان علوم الإعلام والاتصال يشكل المجال الموسوعي الذي يستقطب كل المعارف، لا سيما مع اتساع دائرة الممارسات الإعلامية، مما يستلزم مقاربات معرفية متنوعة لعل أهمها ما يلي:

أولا، المقاربات الأمبريقية: تناشد العلمية بقياس الظاهرة الإعلامية عبر دراسات التأثير، كانت بدايتها مع أسطورة الدعاية والتي مارست حربا نفسية على الجماهير، لاعتناق سلوك أو مذهب أو اتجاه معين. ويعود ظهورها إلى عام **1927** بالتأكيد على القوة الهائلة لوسائل الإعلام باعتبارها المخدر السحري(05).

وهنا، لا بد من الإشارة إلى أن هذه الفكرة قد أيدها العديد من الباحثين والرواد، لعل أهمهم الكاتب **الروسي " تشيخوتين Tchakhotine** في كتابه المعروف " **الدعاية السياسية واغتصاب الجماهير le viol des foules par la propagande politique عام 1939** "، و قد تنامت الأبحاث ، وتعددت النظريات لتفرز تقنيات جديدة أهمها:" **تقنيات قياس الرأي العام، تحليل المضمون الأمبريقي، الدراسات الميدانية....**" وتولدت عنها العديد من النظريات التي عرفت بدراسات التأثير والتي تركز على تأثيرات الوسيلة الإعلامية عل المتلقي، مؤمنة بالسلطة المطلقة للوسيلة(06).

بيد أن الثمانينيات من القرن الماضي شكلت منعرجا حاسما في الدراسات الإعلامية ، حيث تجاوزت السؤال التقليدي ماذا تفعل الوسيلة الإعلامية بالجمهور، لتهتم بالإجابة عن سؤال جوهري :" **ماذا يفعل الجمهور بالوسيلة الإعلامية؟**.

و تحولت بؤرة الاهتمام من التأثير إلى التلقي، بتقصي خصائص الجمهور وأنماط تلقيه للمضامين الإعلامية، وكيفية تعامله مع وسائلها ،كما تم التركيز على الرسالة الإعلامية والاتصالية باعتبارها مضمونا اتصاليا مفعلا دلاليا بفعل العلامات المشكلة له.

وعلى الرغم من حداثة البحث الإعلامي المعاصر، إلا أنه يخطو نحو مستقبل يعطيه الأولوية بين البحوث الإنسانية حيث اقتبس تقنيات البحوث الإنسانية الأخرى ليؤكد شرعية ظل يفتقدها لفترة طويلة. والواقع أنه، ورغم تطور البحث الإعلامي إلا أن الظاهرة الإعلامية لم تستوف بدراستها كل الجوانب، نظرا لتعقدها و سرعة تغيرها، و تدفقها بصفة عالمية، إلا أن القوالب النظرية والأسس المنهجية التي تبنتها التيارات الكبرى لم تستوف خصوصية المجتمعات المستقبلة للبث الإعلامي الحر، لا سيما مع تفعيل الإعلام الجديد لظواهر جديدة تمس خصوصية المجتمعات، ويتعلق الأمر بكل من:" **الهوية الثقافية والمحلية، القيم الاجتماعية، العادات والتقاليد،**" التي تستدعي دراستها قوالب منهجية تأخذ بعين الاعتبار هذه خصوصيتها، كما أفرز التدفق الإعلامي الحر أنماطا

إعلامية كثيرة، و متنوعة ، ناهيك عن متغيرات أخرى مرتبطة بالمول، لذا صار البحث في مجال الإعلام والاتصال يتجاوز حدود الرسالة إلى البعد الشمولي المرتبط بالمتغيرات السوسيو ثقافية المحيطة بالمضمون الاتصالي، وسياق التلقي على حد سواء.

و هو ما يتطلب أسسا منهجية تركز على كل الجوانب، و تتسم بالمرونة الكفيلة لاستيفاء خصوصية الظاهرة الإعلامية العربية، و لا تكون مجرد قواعد للتدخل الإيديولوجي في هذه المجتمعات، على اعتبار أنها تقوم بإرساء الأسس الشرعية لهذا الأخير وفق قواعد علمية ومنهجية، لذلك، فتفسير الواقع الإعلامي في الوطن العربي يحتاج إلى أسس تستوفي خصوصية الواقع العربي، عبر **المقاربة السيميو أنثروبولوجية** . لتركيزها على معايشة الظاهرة الإعلامية كأنساق علاماتية تتشبع دلاليا بالفضاء السيميائي المؤطر له، وهو ما يمكن توضيحه من خلال ما يلي:

ثانيا، التحليل السيميو أنثروبولوجي، الأسس والمبادئ:

السيميوأنتروبولوجيا، ،أو la sémio,ethno-sémiotique مصطلحات مترادفة تدل على مقاربة جديدة في البحث السيميولوجي و الأنتروبولوجي في بحوث علوم الإعلام والاتصال، وهي المقاربة التي تعنى بتحليل سيرورة انتاجية الدلالة في مختلف الأنساق الاجتماعية والثقافية، بالتركيز على السلوكات اليومية، والتفاعل الرمزي الناتج عنها(07).

ويكون الخطاب الإعلامي و الاتصالي نسقا من ضمن هذه الأنساق، ينتجه الفاعلون على شكل علامات متكاملة،

أكثر من ذلك، تبحث المقاربة السيميوأنتروبولوجية في مجال بحثي خاص ،ويتعلق الأمر ببلورة أسس نظرية ومنهجية وتطبيقية من شأنها تحليل سيرورة الاتصال ، ومن ثم توسيع هذه الأسس المنهجية لدراسة الاتصال من خلال تفعيل آليات تحليل الاتصال والتواصل الاجتماعي والثقافي ،فالمقاربة تغوص في جوهر تحولات العلامات المشكلة للخطاب الإعلامي ،وتتعامل معها كعناصر في نسق وظيفي، اتصالي سيمنطيقي(08) ، هام في الحياة الاجتماعية، ، يؤثر على بقية الأنساق ويتأثر بها عبر عمليات عدة أهمها التناص الثقافي والإنتاجية الدلالية، وبفهم النسق الإعلامي والاتصالي يتمكن الباحث من فهم السيرورة التفاعلية للمجتمع ككل.

من أجل ذلك، يتحدد الموضوع الأساسي للمقاربة السيميوأنتروبولوجية في مقاربة الخطاب الإعلامي والاتصالي وتحليلهما وفق ما أسماه :" **إفنين قوفمان** " بالسياق التفاعلي الرمزي لذلك، تسمح هذه المقاربة بتتبع مضمون الخطاب، لفهم الظاهرة الإعلامية والاتصالية، في تفاعلاتها الرمزية مع الخطابات الأخرى في السياق الاجتماعي ، ويلعب الفضاء بأبعاده ومتغيراته دورا أساسيا في تحديد نوع الاتصال ،مضامين الرسالة الاتصالية ودرجة التفاعلية الرمزية المتاحة في مثل هذه العملية(09).

والجدير بالذكر أن المقاربة السيميوأنتروبولوجية تتقارب في أفكارها ومبادئها مع أفكار العديد من الرواد أمثال (**10**) **رولان بارث Roland Barthes** ، **بيير بورديو Pierre Bourdiau وكلود ليفي ستروس Claude Levi Strauss** وغيرهم، وتعرف بتحليلها الشمولي، على اعتبارها ترتكز على نقطتين أساسيتين هما بنية النسق الإعلامي و الاتصالي و السياق الاجتماعي والثقافي والسياسي والإيديولوجي له. فهي المقاربة التي تأخذ بعين الاعتبار التسلسل العلاماتي للخطاب الإعلامي ، والعلاقات التقابلية والتفاعلية الرمزية بين العلامات المشكلة لمضامين هذا الخطاب، وكذلك الفواعل المساهمة في الإنتاجية الدلالية لهذه المضامين، بالإضافة للفضاء الرمزي الذي ينتج الرسائل والمضامين الاتصالية، ويحتضن علاماتها ، ويبث فيه مضمونها وهو الفضاء الذي يشكل الحقل الرمزي للاشتغال الدلالي، ومن ثم إنتاج المعنى المفسر للظاهرة الإعلامية والاتصالية.

فخطاب الوسيلة الإعلامية من هذا المنظور ليس بالخطاب المستقل، بل هو نتاج العديد من المتغيرات، والتي يمكن تسميتها بفواعل الخطاب، وللولوج إلى الفهم العميق لهذا الأخير لا بد من الإلمام بالقراءة والتفسير والتأويل والنقد المعمق بكل المتغيرات المساهمة في انتاجه، ، بالإضافة إلى جل المتغيرات المساهمة في بناءه وبقاء سيرورته.

من هذا المنظور، يمكن القول أن المقاربة السيميوأنتروبولجية تأخذ بعين الاعتبار خصوصية النسق، والبيئة التي تشكل الفضاء الرمزي له، حيث تساهم هذه المضامين في تحديد حركية الحياة، وتفعيل العلاقات الإنسانية، وبناء المعنى الحقيقي للواقع الاجتماعي بصفة عامة.

ونظرا للتنوع العلاماتي الذي تنطوي عليه هذه الأنساق، فإن المقاربة التحليلية لها تستدعي إطارا متعدد المقاربات، وإطارا خاصا تستحضر فيه كل المعارف المجاورة لهذه الأنساق، **un cadre interdisciplinaire** وهي المقاربة التي تفرضها طبيعة هذه الأنساق باعتبارها متعددة العلامات،ناهيك عن الجمالية التي تنطوي عليها، والتي تستحضر في بلاغة رمزية خاصة،تستحضر وبشكل معايش في مختلف الممارسات والسلوكات اليومية.

فالمقاربة السيميوأنتروبولوجية من هذا المنظور تركز في الأساس على موضوعها، والمتمثل في الانسان كمنتج للعلامة ،و مشفر لها، ومفكك لرمزيتها وتشفيرها، وتشكل المضامين الإعلامية والاتصالية موضوعا أساسيا من مواضيعها على اعتبارها تأخذ بعين الاعتبار ديناميكية العلامة ،وحركيتها وتفاعلها الرمزي، وهي كلها أسس ومبادئ سيميو أنتروبولوجية، تسمح بالتكيف مع خصوصية العلامة الإعلامية والاتصالية،- من جهة- وتفتح المجال لمعايشة تطورها الدلالي وتفاعلها السيميائي من جهة أخرى.

والجدير بالذكر أن التحليل السيميوأنتروبولوجي قد ظهر تبعا للعديد من المتغيرات، والتي يمكن تسميتها بعوامل ظهور التحليل السيميوأنتروبولوجي، ويمكن تلخيصها فيما يلي(11):

- **تطور مفهوم الاتصال:** منذ عام 1973، حيث امتدت الدراسات المرتبطة به لتحليل أنماط أخرى أوسع، تستوعب أنساقا اتصالية أشمل،و يتضمن كموضوع له سيرورة اتصالية معقدة وهنا تبلور مفهوم شامل للاتصال، يتمثل في **الاتصال الديناميكي التفاعلي الرمزي** ، وقد سمح ذلك بتناول مفهوم الاتصال على ضوء مدخل جديد، يرتبط بخصائص النمط الجديد.

- **تطور أعمال وأبحاث مدرسة :" باولو ألطو" Palo Alto** " المرتبطة بالاتصال، حيث تم استثمارها في مقاربات خاصة، مبنية على أسس أنتروبولوجية، و هنا ينظر إلى الاتصال على أنه مرادف طبيعي وحتمي للتفاعلية الرمزية، يمكن من خلال تحليليه الولوج إلى طبيعة العلاقات الانسانية، ومضمونها ، وهنا، ينظر إلى السلوك الانساني كوحدة من الوحدات التعبيرية، الدلالية المشبعة بالمضامين العاكسة لهوية الجماعة البشرية.

- **تطور دراسات التفاعلية الرمزية:** عبر دراسة قوفمان للتفاعلات اليومية و الممارسات الطقوسية على اعتبارها تتضمن مضامين تعبيرية،بلاغية تعكس بنية الجماعة البشرية، وثقافتها، حيث تكشف هذه الطقوس عن تفاعل رمزي متكامل الأطراف.

تبين كل هذه المدارس تفاعلا رمزيا فعالا بين السيميولوجيا والأنتروبولوجيا ،لا سيما فيما يمكن تسميته بسيرورة الاتصال، والتي تقارب في إطارها كسيرورة دلالية، تتبلور هذه الدلالات أثناء تحليل حيثيات التفاعل الرمزي الذي يتولد عن هذه السيرورة.

- **تطور الأنتروبولوجيا والسيميووجيا:** هناك تداخل بين العلمين و تقارب من حيث النشأة، حيث تشكل الرموز نقطة تقارب وتقاطع بينهما، فالأنتروبولوجيا تنطلق من فكرة أن الانسان حيوان رمزي ينتج الرموز ويتفاعل بدوالها،بينما تتوقف السيميولوجيا عند حدود دلالة هذه الرموز لتتقفى معانيها بآلية التفكيك والتركيب، وبواسطة تقنية التعيين والتضمين(**12**) .

من هذا المنطلق، يمكن القول أن بين السيميولوجيا والأنتروبولوجيا تقارب منهجي وموضوعي، حيث أن الأنتروبولوجيا تركز في الأساس على دراسة العلامة في تفاعلها الدلالي، واستنتاج السمات الأنتروبولوجية للمعاني الناتجة عنها، والتي من شأنها أن تكشف الستار عن معالم الحضارة البشرية، كذلك الشأن بالنسبة للسيميولوجيا، والتي تركز هي الأخرى على العلامة، من خلال تحديد الأبعاد الضمنية المشكلة لها، والوقوف عند تحولاتها الدلالية والرمزية.

كما تشكل اللغة نقطة مشتركة أساسية بين السيميولوجيا والأنتروبولوجيا، نظرا للأهمية التي تحظى بها في كلا العلمين، حيث تسمح اللغة بتوفير الرموز والدلالات والعلامات والشفرات الثقافية،مما يسمح بالحفاظ على السيورة الدلالية لها، ومن ثم الحفاظ على الاتصال والتواصل الرمزي لها. حيث تلعب اللغة دور الوسيط الرمزي، الذي يستطيع الإنسان من خلاله إعطاء شكل خاص لحياته وعناصر ثقافته، لذلك، تتنوع العلامات والرموز والدوال والشفرات بتنوع اللغات و تعكس الأقليات في المجتمع.

تسمح هذه الخاصية بتحديد ديناميكية الخطاب الإعلامي والاتصالي، وتسطير المعالم الرمزية والتفاعلية فيه، وهي النقطة الأساسية التي أكدها :"**كلود ليفي ستروس**" بقوله أن اللغة تساهم في تفعيل حياة الرموز والعلامات الثقافية، وتعمل في الوقت ذاته على استحضار **التمثلات الاجتماعية والثقافية** والتي تفعّل العلاقة بين الفرد والجماعة البشرية التي يعيش فيها(13) .

من جهة أخرى ،تتحدد العلاقة بين اللغة والثقافة في الرمز، على اعتبارها الوسيط بين ما هو سيميولوجي وما هو أنتروبولوجي ،كما أنه عنصر تأسيسي لكل نسق أنتروبولوجي يسمح بتحديد رمزية المجتمع، والناتج عن رمزية الثقافة، التي هي في جوهرها جملة متناسقة، متكاملة، متتابعة من الرموز والدوال والعلامات والشفرات، وتفكيك هذه الأخيرة بواسطة المقاربة السيميو أنتروبولوجية يسمح بالغوص في جوهر هذه الخطاب الإعلامي كنسق منتج للثقافة وكجزء لا يتجزأ من هذه الأخيرة (14):

و من هذا المنظور فاللغة:" **نسق من الرموز تعبر عن الأفكار، وتهتم السيميولوجيا بتفكيك هذا النسق للولوج إلى الدلالات الخفية له ،كما تعمل الأنتروبولوجيا على الربط بين هذه الدلالات والفضاء السيميائي المؤطر لها، وتشمل بذلك مختلف الأنساق العلاماتية ،بما في ذلك من طقوس، عادات، تقاليد، والتي تعتبر هي الأخرى أنساقا رمزية**"(**15**).

من جهة أخرى، نجد أن دراسات :" **مالينوفسكي برونسلاو**" أسهمت في بلورة الأسس المفاهيمية والإجرائية للعلمين، فبالنسبة له، يعتبر فهم اللغة، وتفكيك ترميزيتها نقطة أساسية وجوهرية للولوج إلى الرموز والمعاني والدلالات والشفرات المؤطرة للثقافة ،والنسق الثقافي والاجتماعي بشكل عام، فاللغة من هذا المنظور تشكل العتبة الأولى والأساسية من عتبات القراءة(16):

من جهة أخرى، يمكن القول أن المقاربة السيميو- أنتروبولوجية تركز في الأساس على البنية الرمزية للأنساق الاجتماعية والثقافية ،لذلك، تتحدد البنيوية الوظيفية كنقطة تلاقي أساسية بين العلمين، حيث تبحث الأنتروبولوجيا عن قواعد النظام بين مختلف الأنساق ،وتسمح بشرح القواعد المتحكمة في علاماتها وشفراتها.

ثالثا، المحاور الأساسية والأسس المنهجية للمقاربة السيميو أنتروبولوجية:

تعتبر المقاربة السيميو أنتروبولوجية امتدادا منطقيا لسيميولوجيا الثقافة، و التي لا تبحث عن دلالة الرموز و الأنساق الثقافية – فحسب– بل نغوص أيضا في خصوصية الاتصال والتواصل الرمزي الذي يتم بفضل آلية التفاعل الرمزي بين مختلف الرموز والعلامات التي تنطوي عليها مختلف هذه الأنساق،بناء على ذلك، تشكل الأنساق الاجتماعية والثقافية بما في ذلك الخطاب الإعلامي والاتصالي الموضوع الأساسي للمقاربة السيميوأنتروبولوجية والتي تعتبرها نصوصا سيميائية تتكون من مجموعة من العلامات المترابطة والمتفاعلة فيما بينها، وفق وتيرة خاصة تؤدي إلى التدفق الدلالي لمختلف هذه الأنساق، ومن شأن هذا أن يستحضر الرموز والدوال والعلامات في السياق التفاعلي لها.

لذلك، تسعى المقاربة السيميوأنتروبولوجية إلى كشف الستار عن الأبعاد الإيديولوجية المختبئة وراء الاشتغال النصي للعلامات السيميولوجية، باعتبارها كائنات سيميوولوجية رمزية دالة، وكائنات أنتروبولوجية تفاعلية اتصالية ،تنشط في سيرورة دلالية خاصة، لتنتج مضامين أخرى، تعبر عن عملية سميأة العلامة، و نشاطها السيميائي في الفضاء المؤطر لها، بعناصره :" **اللغة، أنماط الاتصال، الإشارات والرموز والإماءات، العوامل الاجتماعية، الثقافية السياسية والإيديولوجية وغيرها**.

كما تعتبر العلامة محركا أساسيا من محركات البحث السيميوأنتروبولوجي، وهي في جوهرها علامة اتصالية، تفاعلية رمزية، فلا توجد علامة سيميولوجية مستقلة ومنعزلة، فكل العلامات السيميولوجية تشتغل في سيرورة دائمة للتفاعل والتأويل، الشيء الذي يؤدي إلى ديناميكية العلامة، وتحولها الدلالي المستمر. والجدير بالذكر أن هذه الفكرة قد استلهمت من خصوصية الكائن الحي، ويتحدد وجه التشابه في خصوصية العلامة في حد ذاتها، على اعتبارها كائنا رمزيا، متماثلا في حياته وعلاقته بمحيطه.

بناء على هذا، تركز المقاربة السيميوأنتروبولوجية على مجموعة من المحاور الأساسية، والتي تعتبر في الوقت ذاته، آليات تفكيكية تأويلية، تحليلية لهذه المقاربة، ويمكن إجمالها فيما يلي:

– **الدائرة التأويلية tournant interprétatif**: ومفاد هذا أن الخطاب الإعلامي والاتصالي جزء لا يتجزأ من الخطاب الاجتماعي والثقافي ويحلل باعتباره أنساق رمزية ،تشتغل في سيرورة دلالية تأويلية خاصة ،مما يؤدي إلى التدفق الدلالي لها ،والذي يتم استنتاجه وفق سيرورة تأويلية خاصة، تسمى:" **سيرورة التأويل" le processus d'interprétation** " وهي سيرورة مستمرة، متنامية للتدفق الدلالي.

ومفاد هذا أن الخطاب الإعلامي سلاسل علاماتية تتداعى كقيم رمزية ذات قيمة وقوة دلالية خاصة ،تتطور وتتحول، بتطور وتحول العلاقات التفاعلية الرمزية التي تستحضرها مع السياق ،ويتم ذلك عبر الزمان والمكان ،وهي الخاصية الأساسية التي تتقاطع مع أسس ومبادئ النظرية الوظيفية ،**لمالينوفسكي برونسلاو، وراد كليف براون،** والأعمال الفكرية لرواد التفاعلية الرمزية، أمثالهم أمثال:" **ماركس فيبر، جورج سيمون**"، حيث يركز هؤلاء على فكرة أساسية تتمثل في الرأسمال الرمزي .

– **التفاعل الرمزي:** يعتبر التفاعل الرمزي محورا هاما وأساسيا من محاور المقاربة السيميوأنتروبولوجية، وهي الآلية التبادلية التي تحدث داخل الخطاب الإعلامي ،فالعلامات الإعلامية والاتصالية هي في الواقع كائنات رمزية ،سيميولوجية ،تستلهم قوتها وفعاليتها من الاشتغال الرمزي لها، والطابع التشاركي لأفرادها ،وتدعم بمعانيها ومضامينها آليات الاتصال والتواصل الرمزي بين أفراد الجماعة البشرية، وهي الآلية التي تعزز فيما بعد ما يمكن تسميته بالاتصال والتواصل الثقافي.

– **اللغة، وتحليل الخطاب الإعلامي:** تعتبر المقاربة السيميوأنتروبولوجية اللغة كحامل أساسي للدلالة الأنتروبولوجية، فهي تتجاوز بمفهومها النسق الادراكي، لتستقطب إلى حقلها الدلالي مفاهيم أخرى تحدد أهميتها في هذا النوع من التحليل، فاللغة نظام اتصالي فعال، يتم من خلالها تدعيم وتسهيل آليات الاتصال والتواصل، أكثر من ذلك، يعتبر مفهوم اللغة أشمل من ذلك بكثير، حيث تدل على كل مضمون اتصالي، أو حامل للرموز والمضامين، وتشمل بمفهومها كل الأنساق العلاماتية، بما في ذلك الظواهر الإعلامية والاتصالية، والتي تحتل مركز الصدارة في الدراسات الأنتروبولوجية. فكل شيء لغة، يقودنا هذا كله، إلى التأكيد على حقيقة أن اللغة مفهوم منهجي هام في المقاربة السيميو أنتروبولوجية، وهو الذي يجعل كل من :" **اللباس، الديكور، السكوت، الموسيقى، حركات الكاميرا ، اللقطة، .....**" **عناصر دالة في الخطاب الإعلامي والاتصالي،** المهم أن تتضمن هذه اللغة على مضامين خاصة بها، تسمح بتأكيد الاتصال والتفاعل الرمزي لها.

– **الخطاب الإعلامي والاتصالي كتلة من المضامين الرمزية:** العلامة هي المحرك للتحليل السيميولوجي، و المضمون المحدد لكل نسق أنتروبولوجي، لذلك، نجد العديد من التصورات المنهجية الخاصة بالعلامة، وينطلق كل تصور من منطلق فكري محدد، ومن بينها نجد مقاربة **Ferdinand De Saussure** والمرتبطة باللسانيات،والتي تنطلق من النظرة المزدوجة للعلامة اللسانية، والتي تتكون من دال ومدلول، ونجد في ذلك خصائص الدليل اللساني . من جهة أخرى، نجد تصنيف **R Ogden** والذي ربط العلامة السيميولوجية بثلاث أبعاد أساسية (**الدال، المدلول، المرجع)** ويتناسب هذا مع التصنيف البيرسي للعلامة السيميولوجية، ومن جهة أخرى، ركز رولان بارث على العلامات التعبيرية، والعلامات التضمينية، وأصر على إمكانية تطبيق خصائص العلامة السيميولوجية على مختلف الأنساق غير اللفظية، فكل شيء علامة، المهم أن تستند هذه الأخيرة على اللغة، فهي التي تفكك ترميزية الأشياء، وتعمل في الوقت ذاته على تفعيل آليات التواصل والتفاعل.

من زاوية أخرى، تركز المقاربة السيميوأنتروبولوجية للخطاب الإعلامي على مقاربة الفضاء بعناصره ومتغيراته وأنساقه، على اعتبار أن الفضاء بنية معقدة، تتكون من جملة من المتغيرات التي من شأنها أن تحدد دلالة النسق السيميولوجي، ومن خلال التحليل السيميوأنتروبولوجي، يمكن التمييز بين العديد من أصناف الفضاء، والمتمثلة في:" **الفضاء الشخصي، الفضاء العمومي، الفضاء المنظم والفضاء الفوضوي، الفضاء المفتوح والفضاء المغلق، الفضاء الثابت والفضاء المتحول**....." فالفضاء يتداعى على شكل مسرح خاص للتفاعلات الرمزية، ويتمظهر من زاوية أخرى كمحرك للتفاعلات والسلوكات، وكسياق أساسي للاتصال، فهو يمثل المضمون من جهة، والديكور من جهة أخرى، فالفضاء نطاق رمزي لتعددية الدلالة(17).

– التناص الثقافي في إطار المقاربة السيميو أنتروبولوجية للخطاب الإعلامي والاتصالي

الخطاب الإعلامي ليس مضامين دلالية مستقرة، بل هو أنظمة علاماتية دائمة النشاط والحركية، الشيء الذي يستلزم تداخل النصوص السيميائية فيما بينها، والناتج عن التحاور العلاماتي بين العلامات المشكلة لها، لتحقيق الإنتاجية الدلالية، والتي تولد نصوصا أخرى تحاكي برمزيتها، بلاغيتها، واتصالها نصوصا سابقة وتفتح المجال بطاقاتها الدلالية، إلى إنتاج نصوص لاحقة.

من هذا المنظور، فالتحليل السيميو أنتروبولوجي للخطاب الإعلامي يتطلب الوقوف عند التناص الثقافي، لأن المضمون الإعلامي جزء من النظام الرمزي، ولا يمكن تحديد دلالته دون الغوص في خصوصية الفضاء المنتج له، والذي هو جملة من الفضاءات الفرعية المشتغلة دلاليا وفق آلية التناص الثقافي. وترادفه العديد من المعاني المتمثلة في :" **التفاعل، الاتصال، التلاحم** " وقد وردت كلمة:" **تناص**" قديما بمعان عدة **منها" الاتصال، الازدحام، ، التراكم، الجمع، الاستقصاء التحويل"(18)**. لذلك، يعتبر مفهوم **التحاور الثقافي** نقطة الانطلاق الأساسية لبلورة مفهوم التناص الثقافي ،وهو ما قامت به جوليا كريستيفا من خلال تعمقها فيه، وتحديدها لأشكاله وأبعاده ،وهو ما بلورته في كتابها عن السيميوطيقا، والموسوم بعنوان **sémiotiké** ، حيث أكدت على أن التناص هو في الواقع عملية سيميائية يتم من خلالها تحويل النصوص والأنساق الرمزية(19).

من هذا المنظور، نجد أن المفكر عمل على الربط بين مصطلحين أساسيين هما:" **الانتاجية الدلالية والتناص الثقافي**" ، ونجد ذلك من خلال قوله:" **يعتبر كل نص نمط من أنماط الانتاجية الدلالية، ولا يؤخذ مفهوم الانتاجية بمعناه اللغوي، بل بمعنى أوسع وأشمل يتسم بالرمزية"(20)**.

فالإنتاجية الدلالية هي عملية سيميائية مرافقة لكل تناص ثقافي، فالنص الإعلامي من هذا المنظور في إنتاجية مستمرة، أي في علاقة تفاعلية رمزية مع نصوص أخرى ويؤكد هذا حقيقة كون التناص الثقافي نتيجة حتمية للتفاعل الرمزي للعلامات المشكلة للخطاب الإعلامي ويؤدي هذا إلى تعددية الدلالة، وهو ما كده باكتين من خلال قوله:" يتكون النص كنتيجة حتمية لمجموعة من النصوص الفرعية المتنوعة ،فكل نص هو في الواقع ناتج عن تحول نص آخر ،وفق ما يمكن تسميته **بسيرورة التناص (21)**.

رابعا، الخطاب الإعلامي العربي من منظور المقاربة السيميوأنتروبولوجية:

البلاغة الرمزية خاصية أساسية من خصائص الخطاب الإعلامي ،وهي الخاصية السيميو أنتروبولوجية التي تمكن الباحث من الوقوف على ما هو جمالي في الخطاب، ومن ثم تفكيك تشفيره، والولوج إلى المعاني الخفية له.

إنها الفكرة التي أكدها **Paul Ricœur** عن البلاغة من خلال قوله:" **تعتبر البلاغة المفتاح الأساسي للعملية السيميائية**"، والجدير بالذكر أن البلاغة ترافق الخطاب الإعلامي في كل عناصره وأبعاده وتمثلاته والتحليل السيميو أنتروبولوجي لهذا الأخير يستدعي تفكيك التعبير البلاغي للولوج إلى المضمون، ويتم ذلك من خلال ما يلي:

- **النص الإعلامي**: يتمثل في الخطاب اللفظي أو المكتوب في شكله التعبيري اللفظي.
- **فواعل الخطاب**: تشتمل الشخصيات الإعلامية، الظاهرة والمستترة و هي أساسية لإنتاجية الدلالة وعبر أداء هذه الفواعل تستحضر الأبعاد الخفية المسماة إيديولوجية الخطاب، وترتبط قوة الخطاب وتأثيره بهوية الفواعل المحركة لأحداثه(22).
- **سياق الخطاب(الفضاء السيميائي)**: ففي ثناياه ،تتحقق كل أشكال التواصل ،و تتولد الدلالات التي تنبثق عن التفاعل الرمزي لهذه العلامات، مع متغيرات هذا الفضاء. فالفضاء الإعلامي **لغة صامتة سيميولوجية** تحتضن كل اللغات التعبيرية الأخرى، المشكلة لهوية النسق الأنتروبولوجي، وخصوصيته، وهي التي تسمى ب :" **السمات الأنتروبولوجية**" لذلك، تتحدد وظيفته السيميائية في تحديد هوية الرسالة الإعلامية، وتفكيك تشفيرها ، لذا، يستحيل تصور رسالة إعلامية دون فضاء.
- **الزمن في الخطاب الإعلامي**: يحدد دلالة الخطاب ، و أهمية الحدث، و علاقته بالزمن الاجتماعي، فالزمن الطقسي، مثله مثل الفضاء الطقسي، لغة صامتة تنطوي على معان خاصة ،نابعة من خصوصيته، وهي الدلالات التي تتولد عبر البعد التداولي للخطاب الإعلامي، وتدخل في تشكيله ظروف الحدث ، مدة عرضه ، توقيت بثه و مساحته الزمنية مقارنة بغيره
- **الحركات، الإيماءات والإشارات (اللغة الجسدية)** تدعم معنى الخطاب الإعلامي ، وتكشف عن عمقه الدلالي، الناتج عن التفاعل الرمزي مع بقية العناصر المحددة لعلامات الخطاب، **من لغة لفظية، ديكور، ومتغيرات :" ثقافية، سياسية وإيديولوجية**

خامسا، أهمية التحليل السيميو أنثروبولوجي لفهم واقع الإعلام العربي:

يعتبر التحليل السيميو أنثروبولوجي الأنسب لفهم واقع الإعلام العربي، في ظل التحولات الراهنة، حيث يسمح باستحضار خصوصية المجتمع الذي يشأ فيه الحدث ، وتتجه إليه المضامين الاتصالية، وتتفاعل في ظله الوسائل الإعلامية مع بقية المتغيرات

من أجل ذلك، وللتعمق في إيديولوجية هذا المتغير الهام، لا بد من معايشة هذا الخطاب في كل مراحله الإنتاجية، ويتعلق الأمر بالإنتاج، البث والتلقي، للإجابة عن سؤال جوهري يتحدد في :" **كيف؟ لماذا؟، ثم ماذا؟** وهي المفاتيح التأويلية لهذه المقاربة، حيث أن الإجابة عن السؤال الأول تسمح بفهم الظاهرة الإعلامية بالوصول إلى حيثيات إنتاجيتها وظروف هذه الإنتاجية، والإجابة عن السؤال الثاني يؤدي لفهم المسببات الأساسية للظاهرة، بينما يعتبر السؤال الأخير لغز هذه المقاربة، إذ تمكن الباحث من معرفة تأثير الخطاب موضوع التحليل على الخطابات الأخرى، وما يمكن أن يفرزه من تأثيرات على الجوانب المختلفة للحياة.

وهنا، يمكن القول أن التحليل السيميو أنتروبولوجي يتيح للباحث الإعلامي فرصة فهم واقع الإعلام العربي وحيثياته، والتي أجملها:" **عزي عبد الرحمن " في كتابه الموسوم ب:" الإعلام وتفكك البنيات القيمية في المنطقة العربية"**، إذ أكد من خلاله أن الإعلام ساهم في تفكك البنيات القيمية في هذه المجتمعات ويتجلى ذلك من خلال(23):

– **تحطيم الزمن الإعلامي لخصوصية وقدسية الزمن الاجتماعي**: إذ يعتبر الإعلام العربي تقليدا أعمى للإعلام الغربي، وساهم هذا التقليد في تنميط القيم وعولمة الرواسب الثقافية في المجتمعات البسيطة منها والمعقدة، وتشجيع الإفلات والتحرر من القيود الثقافية والقيمية، وإلغاء قدسية الماضي الذي يتحول إلى عنصر من عناصر هذه الرواسب، وكذلك الشأن بالنسبة للزمن الديني الذي أفقده الإعلام قدسيته، وانحصر مسعاه الأساسي في إنتاج الترفيه والترويج له، كما حصر الزمن الاجتماعي بفعل امتداد الزمن الإعلامي وممارسته السلطة الرمزية على الأفراد مما قلّص التفاعلات الاجتماعية البناءة، وشجع على:" **العزلة ، الاغتراب النفسي والاجتماعي**.

– كما فقد الفضاء قيمته وقدسيته، خاصة الفضاء المقدس، واسترجع المدنس منه تداولته في السياق الاجتماعي دون الاخذ بعين الاعتبار المعايير القيمية وخصوصية المجتمعات، الشيء الذي يعزز الاغتراب الثقافي والبعد عن التمثلات الاجتماعية والثقافية.

– **قلب المفاهيم المرتبطة باللغة والقيم**: أحدث الإعلام العربي انزياحات دلالية كثيرة لا سيما فيما يتعلق بالقيم والمبادئ، حيث دعم التماهي ، و قلب المفاهيم و ولّد الغموض بشأنها، و فاختلطت المعاني المتعلقة بـ:" الحلال والحرام، المقدس والمدنس وغيرها.." مما فرض نمطا للهيمنة الرمزية حول الخطاب الإعلامي إلى خطاب الهيمنة الثقافية، وغالبا ما يكون هذا على حساب خصوصية المجتمع.

من خلال ما تم ذكره، يمكن القول أن التحليل السيميو أنثروبولوجي يسمح للباحث الإعلامي بتفسير كل هذه العناصر وغيرها، والتي تتعلق بالخطاب الإعلامي العربي، لا سيما في ظل التحولات السياسية والإيديولوجية الراهنة، ويتم ذلك من خلال إرجاع الخطاب إلى سياق إنتاجيته، ومعايشة التحولات الدلالية في علاماته، ومن ثم الولوج إلى التفسير المعمق لأبعاده، ويتحقق ذلك من خلال تحليل العناصر الداخلة في تشكيل هذا الخطاب بما فيها **اللغة اللفظية وغير اللفظية، ، البنية الزمانية، التناص الثقافي...**، كما يسمح هذا النمط بدراسة خصوصية المجتمع وبناء إعلام محلي فعال من شأنه أن ينطلق بمضمونه ومحتواه وشكله من هذه الخصوصية، و يقلص درجات التأثير والتبعية للإعلام الغربي. وهنا، لا بد من الإشارة أن تطبيق هذا التحليل يتم عبر أدوات منهجية خاصة بكل من السيميولوجيا والأنثروبولوجيا، ويتعلق الأمر بكل من:" **القراءة، التفسير، التأويل والنقد، التفكيك والتركيب**" و كذا الملاحظة المعمقة لإنتاجية الخطاب ومعايشة كل تحولاته ، وهي الأدوات التي تمكن الباحث من استقراء دلالة الخطاب وفهم جميع جوانبه.

خلاصة:

يمكن القول أن التحليل السيميو أنثروبولوجي للخطاب الإعلامي تمكن الباحث من فهم واستقراء واقع الإعلام العربي، واتجاهات التحول فيه، على اعتبار أن هذا التحليل يسمح بالغوص في خصوصية الخطاب واستنطاق كل جوانبه، ومعايشه سيرورته الدلالية، وهو التحليل الذي يناشد حقيقة كون الخطاب الإعلامي لا ينفصل في شكله ومضمونه عن الخطاب الاجتماعي، فهو جزء أساسي منه، باعتباره نتاج المجتمع، ينتج فيه ، ويتجه إليه، ويمارس تأثيراته على جوانب متعددة من الحياة الاجتماعية للأفراد والجماعات، **كالجانب الاقتصادي، الثقافي، السياسي، الديني** و تغذي هذه الجوانب بدورها الدائرة التأويلية لهذا الخطاب.

قائمة المراجع:

1- زهير إحدادن، المدخل إلى علوم الإعلام والاتصال،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر، 1991 ، ص 14

2- المرجع نفسه، ص الصفحة نفسها

3- المرجع نفسه ، ص 15

4- كريمة احسن شعبان، الاتصال الخطابي وفن الإقناع، دار أسامة / نبلاء ناشرون وموزعون، ط1 ، الأردن، 2015 ، ص 69

5- المرجع نفسه، ص 70.

6- نعيمة واكد، مقدمة في علم الإعلام، تاكسيج كوم للدراسات والنشر والتوزيع،الجزائر، 2011، ص 31

7- Jean Jacues Boutaud et Pascal Lardellier, pour une sémio – anthropologie des manières de table, médiation et information,n ° 15, université de Bourgogne , 2001, p 25

8- J J Boutand, sémiotique et communication, du signe aux sens, ed Harmattan ,Paris, 1998, p 43

9- Guy Barrier, la communication,ed ES F, Paris,s date, p 132

10- Pascal Lardellier, anthropologie et communication, ed L'armattan, Paris, 1973, p 02

11- Rodolphe Ghiglione, l'homme cammuniquant,Armond Collin ,collection U, Paris ,1989, p 114

12- Ibiem

13- Ibidem

14- Claude Lévi Strauss, anthropologie structurale, op cit, p 63

15- Ibidem

16- Foudhil Cheriguen, essai sur la sémiotique du nom propre, office des publications universitaire, Algérie,2008 ,p167.

17- ليون سومفيل، الثقافة والنقد الجديد،ترجمة وائل بركات،مجلة علامات،1996 ،السعودية،ص 236

18- المرجع نفسه، الصفحة نفسها

19- Khana Bassili Tolo, l'intertextualité chez Mérimée, l'étude des sauvages, d edition,Amérique,1998, p 06

20- رولان بارث، درس في السيميولوجيا، ترجمة عبد السلام بن عبد العلي،دار توبقال للنشر، 1982، ص ص 62-63

21- Julia Kréstiva,sémiotiké ,recherche pour une sémanalyse, ed du Seuil,Paris,1969,p144

22- Philippe Hamon,pour un statut sémiologique du personnage poétique du récit,ed du Seuil,Paris,1977,p 10

23- عبد الرحمن عزي، الإعلام وتفكك البنيات القيمية في المنطقة العربية، قراءة معرفية في الرواسب الثقافية، الدار المتوسطية للنشر، ط01، 2009 ، بتصرف.

المؤتمر الدولي العلمي السادس للمركز الأوروبي للبحوث والاستشارات

في العلوم الإنسانية والاجتماعية تحت شعار " المستقبل بعين الحاضر والماضي"

تركيا – اسطنبول

جامعة مرمرة – كلية الإلهيات

3 - 4 / 5 / 2018

مستخدمي موقع الفايسبوك بين البحث عن الحرية وحماية الخصوصية

إعداد:

أ/ إيمان سكور

جامعة الجزائر 3 - الجزائر

Email: imanesekkourdoc@gmail.com

Ref: 6/2018/125

ISBN 978-1-9996437-3-7

Abstract:

In this paper we're focusing on the topic of "Privacy" which is threatened and unrespected especially with the increasing use of social networking sites, and the ability of accessing other users' personal information. We focus more on Facebook because it is the most widely used social networking site in Algeria and by different categories.

المقدمة:

في السنوات الأخيرة ، أصبحت مواقع التواصل الاجتماعي مهمة, فهي تمثل جزءا من الحياة اليومية للكثيرين, حيث وفرت لمستخدميها العديد من الخدمات أهمها تلك المساحة التي تمنحها لهم من الحرية, في إبداء آراءهم بحرية, والتعبير عن ما يدور في أذهانهم, وكذا اختيار الشخصية والاسم والهيئة التي يريدون الظهور بها من خلالها, كذلك اختيار الأشخاص اللذين يريدون أن يتعاملوا معهم سواء كانوا موجودين في حياتهم اليومية أو من خلال المواقع فقط. اختلفت استخدامات الأفراد لهذه المواقع, لكن غالبًا ما يقوم المستخدمون بمشاركة مجموعة كبيرة من المعلومات المتعلقة بحياتهم الشخصية, وهنا تبرز مخاطر الخصوصية المحتملة لمثل هذا السلوك, وغالباً ما يتم التقليل من أهميتها أو تجاهلها, كما يمكن للمستخدمين نشر معلومات حول الآخرين دون موافقتهم, فغياب الخبرة وخاصة الوعي لدى المستخدمين مع قلة الاهتمام بنقص الرقابة المحيطة بالوصول إلى المعلومات والكشف عنها، أصبح المستخدمون يطالبون الآن بشكل متزايد بحماية بياناتهم.

الإشكالية:

يمثل اليوم موضوع الخصوصية قضية مهمة خاصة مع تنامي استخدام مواقع التواصل الاجتماعي, حيث اصبح من السهل الحصول على اي معلومة تخص شخص معين, وقد تستخدم تلك المعلومة أو البيانات بدون الرجوع إلى صاحبها, فعند استخدام الافراد لمواقع التواصل الاجتماعي يتشاركون في بيانات شخصية من صور وأخبار ومعلومات, هذه الأخيرة قد تتعرض لانتهاك وهذا ما يعتبر تعدي على خصوصية المستخدم, فبالرغم من وجود خدمات لإخفاء وحجب محتوى الصفحات الشخصية وخاصة في موقع الفايسبوك, إلا انه يبقى سؤال الخصوصية مطروحا طالما هناك اختراقات, وتطورات مستمرة على مستوى الموقع, قد تسمح للآخرين باستخدام بيانات شخص أخر.

من هنا تنطلق دراستنا, حيث تسعى إلى الكشف عن مدى خطورة الحرية الممنوحة للمستخدمين في موقع الفايسبوك على خصوصيتهم. وعليه تمثلت اشكاليتنا في تسليط الضوء على مساحة الحرية التي يجدها المستخدم في موقع الفايسبوك و تأثير هذه الاخيرة على خصوصيتهم حريتهم في ظل خطر عدم وجود حماية؟

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على نقطتين مهمتين:

- معرفة مدى خطورة الحرية التي توفرها مواقع التواصل الاجتماعي (الفايسبوك) للمستخدمين خاصة اللذين ليس لديهم وعي بالموقع وبخصائصه.
- تأثير هذه الحرية على خصوصية المستخدم.

تحديد المفاهيم:

مواقع التواصل الاجتماعي:

تعتبر مواقع التواصل الاجتماعي وسيلة متنامية للاتصال حيث تعطي إمكانية الوصول إلى الشبكات الاجتماعية عبر الانترنت, والشبكة الاجتماعية هي مجموعة من الأشخاص تربطهم مجموعة من العلاقات الاجتماعية مثل الصداقة، أو العمل المشترك، أو تبادل المعلومات, حيث حدد "Boyed and Ellison" 2008 أهم خدمات توفرها مواقع التواصل الاجتماعي:

- إنشاء صورة عامة أو شبه عامة ضمن إطار منظم.
- إنشاء قائمة بمستخدمين آخرين يتشاركون في الموقع والمستخدم.
- التنقل في قائمة الاتصالات الخاصة بهم.
- مشاركة الأصدقاء أنشطتهم من خلال الموقع.

مواقع مثل MySpace و Facebook و Twitter, هي أمثلة لمواقع الشبكات الاجتماعية, حيث تسمح هذه المواقع للأفراد بتقديم أنفسهم عبر الإنترنت وتشكيل علاقات مع الآخرين.

في يونيو 2011، أعلن موقع الفايسبوك عن وجود 700 مليون عضو في جميع أنحاء العالم. اعتبارًا من ديسمبر 2011، سجل الفايسبوك 845 مليون مستخدم نشط مع نمو مستمر يومي.

يعتبر موقع الفايسبوك واحدا من أسرع مواقع الشبكات الاجتماعية نمواً, تم إنشاؤه في عام 2004 من قبل مارك زوكربيرج, وهو طالب في جامعة هارفارد. وبدأ العمل به كدليل عبر الإنترنت يربط الطلاب في جامعة هارفارد، وطلب من المستخدمين الحصول على عنوان بريد إلكتروني خاص بـ harvard.edu، مما أدى إلى خلق شعور خاص بالمجتمع, ثم تطور ليشمل كل العالم.[1]

مفهوم الخصوصية:

أصل كلمة خصوصية من خصه بالشيء يخصه خصا وخصوصا وخصوصية, حيث عرفها Padinter, "كل ما ليس له علاقة بالحياة العامة أو هي كل ما لا يعتبر من الحياة العامة".[2]

أي أن الخصوصية هي حق الحفاظ على الأمور الشخصية للفرد نفسه, ولا يمكن أن يتصرف فيها شخص آخر.

---

[1] Laurie Dickstein-Fischer, MS: Facebook Use in Relation To Gender, Introversion-Extroversion,
and Sense of Belonging Among College Students, Northeastern University, Boston, Massachusetts
June 2012, p4.

[2] سليم جلاد: الحق في الخصوصية بين الضمانات والضوابط, مذكرة لنيل ماجستير, جامعة وهران. 2012-2013, ص13.

حتمية استخدام مواقع التواصل الاجتماعي:

بفضل تطور تكنولوجيات الإعلام والاتصال وانتشارها الهائل أصبحت تغزو حياتنا اليومية وخاصة ما اصطلح عليه بشبكات التواصل الاجتماعي التي تعد ظاهرة حديثة في وقتنا تستقطب جميع أفراد المجتمع وهذا نظرا لأنها تمنحُ الإنسان الفرصة للتّعبير عن نفسه واهتماماته، ومُشاركة أفكاره ومشاعره مع من يُشاطرونه الاهتمام والأفكار نفسها؛ حيثُ إنّ الإنسان اجتماعيّ بطبعه ولا يُمكنه العيشَ بمعزلٍ عن البشريّة [1] ، تتيحُ إمكانية التّواصل السّريع مع الأشخاص الذين لا تسمحُ الفرصة بالتّواصل معهم على أرض الواقع سواءً لأسبابٍ اعتياديّة ككثرة الانشغالات وضيق الوقت، أو لأسبابٍ طارئة كالأزمات والحروب، فقد ساعدت هذه الشّبكات على تواصُل العائلات التي تشرّد أفرادها فكانت بَلسماً ودواءً لكثيرٍ من القلوب والأحبّة، إضافةً إلى أنّها كانت حلّاً سهلاً ليتواصل المغتربون عن أوطانهم مع أهلهم وأحبابهم، تنقلُ الأحداث والأخبار سواءً كانت سياسيّة أو اقتصاديّة أو اجتماعية أو رياضيّة أو فنيّة حال وقوعها؛ إذ يمكنُ تبادلُ المعلومات والصّور ومقاطع الفيديو بشكلٍ سريعٍ، حيثُ لم تتمكّن وسائل الإعلام الحديثة من مجاراتها، ومن أشهر مواقع التواصل الاجتماعي نذكر الفايسبوك الذي يعد موقع ويب لتواصل الاجتماعي يمكن الدخول إليه مجانا وتديره شركة فايسبوك محدود المسؤولية كملكية خاصة لها ، فالمستخدمون بإمكانهم الانضمام إلى الشبكات التي تنظمها المدينة أو جهة العمل أو المدرسة أو الإقليم ، وذلك من أجل الاتصال بالآخرين والتفاعل معهم ، كذلك يمكن للمستخدمين إضافة إلى قائمة أصدقائهم وإرسال الرسائل إليهم وأيضا تحديث ملفاتهم الشخصية وتعريف الأصدقاء بأنفسهم ويشير اسم الموقع إلى دليل الصور التي تقدمه الكليات والمدارس التمهيدية في الولايات المتحدة الأمريكية إلى أعضاء هيئة التدريس والطلبة الجدد ، والذي يتضمن وصفا لأعضاء الحرم الجامعي كوسيلة للتعرف إليهم[2].

وعليه أصبح التواجد في موقع الفايس بوك ضرورة أملتها علينا التطورات المتلاحقة و السريعة التي عرفتها البشرية فالعالم أصبح قرية صغيرة نتعارف فيها بسهولة و نتبادل معلومات عن بعضنا البعض ، و نعبر من خلال الفايسبوك عن اهتماماتنا و عن ما يزعجنا كما نشارك غيرنا في إعجابنا بمواضيع معينة و يمكننا الولوج لصفحات و بروفايلات غيرنا بعلمهم أو من دون علمهم كما يمكن لغيرنا من أصدقاء من مشاركة مضامين في بروفايلنا الخاص بإرادتنا أو غصبا عنا ، فيمكن لمستخدم أن يبث فكرة ما في الموقع و لا يلبث إلا و يراها تكتسح جميع الصفحات وتعرف مشاركات واعجابات وتعليقات كثيرة، حتى أصبحنا نستقي الأخبار

[1] حمزة إسماعيل أبو شنب ، "تقنيات التواصل الاجتماعي .. الاستخدامات والمميزات"،شبكة الألوكة .

[2] فتحي حسين عامر ، وسائل الإتصال الحديثة من الجريدة إلى الفيس بوك ،دار العربي ،دط ،القاهرة ،2011،ص2

والمعلومات من الفايسبوك ،كما يمكن عن طريق الفايسبوك تغيير قناعات وتعديل أفكار والتأثير في الرأي العام وبالتالي أصبح لموقع الفايسبوك اثر كبير على حياتنا وتختلف عادات تصفحه من فرد إلى آخر أما الشائع فهو الدخول إليه من الحواسيب والهواتف الذكية نظرا للتطورات التي عرفها الموقع لسهولة استخدامه .ولكن رغم كل هذا التطور لا يمكننا إغفال فكرة عرض البيانات الشخصية من طرف الأخر صديقا كان أم غريبا وهذا ما ينص عليه موقع الفايسبوك للبقاء كعضو فيه وعليه يمكننا القول أن الحياة الشخصية أصبحت في خطر ولم تعد ملكنا وحدنا بل يتشاطرها معنا غيرنا على موقع الفايسبوك وهذا ما يمكن تسميته انتهاك للحياة الشخصية .

الخصوصية في أدبيات مواقع التواصل الاجتماعي:

إن التأكد من قدرة مواقع التواصل الاجتماعي على القيام بالسلوك المرغوب هو شيء واحد ، ولكن عند مشاركة ثروة من البيانات (الشخصية) ، يجب على المستخدم أن ينظر أيضا في السلوك غير المرغوب فيه الذي قد يحدث, هنا سنتطرق إلى الحرية التي يتمتع بها المستخدم في موقع الفايسبوك والتهديدات المحتملة لخصوصيته.

هناك حاجة دائمة للإبداع في تقديم الذات وبعض الذكاء في التواصل الرقمي، لذا يجب علينا أن نفكر في مسألة الخصوصية بالتزامن مع "التعمد" في عرض ذواتنا تارة والاختباء وراء جدران الحياة الخاصة تارة أخرى، كما يعبر عن ذلك .Dominique CARDONبقوله "على شبكة الإنترنت نلعب على إخفاء وكشف عن أجزاء من أنفسنا بالتناوب ونرسم هوياتنا بوضوح وغموض" [1]

إن مبدأ الحق في الخصوصية الفردية في معناه التقليدي هو حق الفرد في أن يقرر بنفسه متى والى أي حد يمكن للغير أن يطلع على شؤونه الخاصة، وفي ظل الاعتداءات التي أصبحت تطال حياته الخاصة بواسطة التقنيات المعلوماتية، أصبح من الضروري إعادة النظر في هذا المفهوم ، بل و قد زاد الاهتمام بهذا الحق نظرا لما يتعرض له من مخاطر تحيط به وتهدده أبرزها التقدم التكنولوجي و المعلوماتي الذي كان له دور اقتحام حصون هذا الحق .[2]

تحتوي كلمة الخصوصية على معان مختلفة، تتراوح من الخصوصية الشخصية (التي تشمل العزل والخصوصية الجسدية) إلى خصوصية المعلومات، وكل منها له تعريفه الخاص, تدور الخصوصية على الويب بشكل عام حول خصوصية المعلومات, يقول Kang: إن الخصوصية هي "مطالبة الفرد بالتحكم في الشروط التي بموجبها يتم الحصول على المعلومات الشخصية – المعلومات التي يمكن تعريفها للفرد – أو الكشف عنها أو استخدامها ".

وفرت خدمة الويب 0.2, ميزة مهمة جدا تتمثل في التفاعل, حيث يتشارك المستخدمون الكثير من المعلومات والبيانات من خلال مواقع التواصل الاجتماعي, وتصبح خصوصية المعلومات الشخصية ذات أهمية كبيرة, يضع المستخدمون في الاعتبار نطاقًا عند تحميلهم للمعلومات, الخصوصية تشمل الاحتفاظ بالمعلومات في نطاقها المقصود, يتم تعريف هذا النطاق من خلال حجم

---

[1] عبد القادر بودربالة , تحديات الخصوصية عبر الفيسبوك المستخدمون، بين حماية الحياة الخاصة وحرية عرض الذات جامعة قاصدي مرباح ورقلة مجلة العلوم الانسانية و الاجتماعية العدد 27/ ديسمبر 2016((الجزائر

[2] بن قارة مصطفى عائشة، الحق في الخصوصية المعلوماتية بين تحديات التقنية وواقع الحماية القانونية ، موقع المنهل ،تصفح في 2018/03/28 https://platform.almanhal.com/Reader/2/84732

الجمهور (اتساع)، حسب مدى الاستخدام المسموح به (العمق)، والمدة (مدى الاستخدام). عندما يتم نقل المعلومات خارج النطاق المقصود (سواء كان ذلك عن طريق الخطأ)، يتم اختراق الخصوصية, يمكن أن يحدث الانتهاك عندما يتم مشاركة المعلومات مع الطرف الذي لم يقصده, ويمكن أن يحدث أيضًا عند إساءة استخدام المعلومات لغرض مختلف عن الغرض المقصود, كما نرى ذلك ينعكس في قوانين حماية البيانات، مثل قانون حماية البيانات لعام 1998 في المملكة المتحدة ، حيث يتم فرض قيود على نطاق ومدة استخدام البيانات الشخصية.

تصنف بالين ودريش Palen and Dourish ثلاث حدود للخصوصية التي يعاني منها الأفراد:

1. حدود الكشف (إدارة التوتر بين القطاعين العام والخاص).
2. حدود الهوية (إدارة التمثيل الذاتي مع جمهور معين، على سبيل المثال، يتصرف المرء في العمل بشكل أفضل مما يحدث مع الأصدقاء) ،
3. الحدود الزمنية (إدارة الأعمال السابقة مع التوقعات المستقبلية؛ قد يتغير سلوك المستخدم بمرور الوقت).

يقارن Weiss المنهج التقليدي للخصوصية مع متطلبات الخصوصية الجديدة التي أنشأتها مواقع التواصل الاجتماعي على الإنترنت, في شبكة الويب التقليدية، يتم الحفاظ على الخصوصية من خلال الحد من جمع البيانات، وإخفاء هويات المستخدمين، ومنح حق الوصول إلى الأطراف المخولة فقط, إن واقع الشبكات الاجتماعية على الإنترنت هو أن البيانات والهوية مرتبطة بشكل وثيق، غالبا ما تكون مرئية لمجموعات كبيرة من الناس, وهذا يجعل الخصوصية وإدارة المعلومات أكثر صعوبة ويثير قضايا الخصوصية. ضمن خصوصية مواقع التواصل الاجتماعي, هو التوازن بين التحكم في المعلومات وأداء وظائف الشبكة الاجتماعية عبرها, مع توفر المزيد من معلومات المستخدمين عبر الإنترنت، يصبح من الصعب على المستخدم مراقبة هذا الأمر والتحكم فيه.

أظهر Gross and Acquisti في دراسة حالة أن معظم المستخدمين لا يغيرون إعدادات الخصوصية الافتراضية كما هو منصوص عليه من قبل مواقع التواصل الاجتماعي. علاوة على ذلك يشترك هؤلاء المستخدمون في كمية كبيرة من المعلومات في ملفهم الشخصي. يختتم Tufecki في دراسة الحالة الخاصة به أن المستخدمين المهتمين بالخصوصية أكثر ترددًا للانضمام إلى مواقع التواصل الاجتماعي, ولكن بمجرد انضمام المستخدم المدرك للخصوصية، فإنه يرغب في الكشف عن الكثير من المعلومات وينظم خصوصية المستخدم في الغالب من خلال الرؤية، أي إعدادات الخصوصية للشبكة الاجتماعية عبر الإنترنت. ويهدف هذا المستخدم الواعي للخصوصية إلى المراقبة الدائمة, علاوة على ذلك ، فإن المستخدمين أكثر انشغالًا بالظهور الحالي لمعلوماتهم ولا ينظرون إلى النتائج المستقبلية, يبدو أن المستخدمين يثقون ضمنيًا بمزودي الشبكات الاجتماعية للتعامل مع بياناتهم بطريقة عادلة ومضمونة.

لا توجد حاليًا لوائح محددة للشبكات الاجتماعية على الإنترنت ويتم التعامل معها كخدمة معلومات، وقاعدة بيانات على الإنترنت. تقوم فرقة العمل المعنية بحماية البيانات بموجب المادة 29 من الاتحاد الأوروبي رؤية هذا التغيير، بحيث يتم التعامل مع مزودي خدمة الشبكة الاجتماعية كجهاز تحكم في البيانات بموجب توجيه حماية البيانات, سيؤدي ذلك إلى فرض التزامات إضافية عند معالجة بيانات المستخدم, والالتزام بها يجب أن يجعل الشبكة الاجتماعية عبر الإنترنت أكثر خصوصية، وبشكل مثالي دون إعاقة الخدمات المرتبطة بالمستخدمين.[1]

[1]Michael Beye and others, Literature Overview - Privacy in Online Social Networks, Information Security and Privacy Lab, Faculty of EEMCS, Delft University of Technology, Distributed and Embedded Security, Faculty of EEMCS, University of Twente,p 6.7.8.

مواقع التواصل الاجتماعي وخصوصية المستخدم:

Privacy needs inside and outside social networks are quite different and should be tackled using specifically tailored technologies. Antoine Fressancourt

ونقصد بالخصوصية في مواقع التواصل الاجتماعي (الفايسبوك) تعني سرية الحياة الخاصة لمستخدمي الفايسبوك، أي أن المستخدم وحده له الحق في إظهار معلوماته الشخصية أو إخفاءها متى أراد وحيثما كان، وهو فقط من يقرر الأشخاص التي تطلع على بياناته وتتصفح بروفيله، ولا يحق لأي كان مستخدما للموقع أو قائما عليه بانتهاك هذا الحق .

تجري حاليًا دراسة قضية الخصوصية الداخلية من قِبل العديد من فرق البحث التي غالبًا ما تستخدم Facebook كشبكة اجتماعية مرجعية لتوضيح المفاهيم التي تطورها, من بين المشاريع البحثية المتعددة التي تم نشرها أو التي يجري تنفيذها، يتم تبني نوعين من المناهج, يتكون الأول من تطوير تطبيقات الجهات الخارجية التي تتضمن آليات تشفير متقدمة باستخدام البنية الأساسية لـ Facebook لخدماتها الأساسية وتشفير المعلومات في ملفات تعريف المستخدمين لمنع تسربها بشكل غير مقصود أو الوصول إليها, أما الآخر أكثر راديكالية لأنه يدعو إلى إعادة بناء منصة التواصل الاجتماعي مع مراعاة الخصوصية في المراحل الأولى من تصميم الهندسة المعمارية.

تأثير الحرية في مواقع التواصل الاجتماعي على خصوصية المستخدم:

أدت الحرية الممنوحة لمستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي إلى مجموعة من المشاكل, التي صنفها العديد من الباحثين إلى سلبيات مواقع التواصل الاجتماعي, التي خلفتها الحرية الكبيرة في تحميل البيانات الشخصية من صور ومعلومات, ومشاركتها مع الأصدقاء وكذا استخدامها من طرف أشخاص آخرين, نذكر من بين هذه التبعات:

- **غموض الهوية:**

تلعب الهوية دورا رئيسيا على مواقع التواصل الاجتماعي, فهي الخطوة الأولى التي تمكن المستخدمين من معرفة الأشخاص اللذين يتواصلون معهم, وتعتبر الهوية من بين أهم القضايا التي يطرحها استخدام مواقع التواصل الاجتماعي ذلك أنها تعتبر غامضة نوعا ما إذا ما عدنا إلى محددات الهوية التي اعتدنا عليها في العالم الفيزيائي, وتعتبر الصفحات الشخصية وشبكات الأصدقاء التي يقوم المستخدم بإنشائها جوهر مواقع التواصل الاجتماعي, فبعد التسجيل فيها عبر الانترنت يكون المستخدم مطالبا بخلق صفحته الشخصية التي تحدد هويته والتي تتنوع حسب طبيعة الموقع.[1]

ويوفر الفايسبوك على سبيل المثال نظام يسمح للمستخدمين بإنشاء معلومات مفصلة جدا عنهم وفي نفس الوقت يتيح للمستخدم اختيار ما إذا كانت هذه المعلومات ستكون عامة أو خاصة, وعادة ما يشتمل هذا الملف على صورة فوتوغرافية للمستخدم وتتألف من معلومات مثل العمر, مكان الإقامة, الاهتمامات الشخصية إلى جانب بعض التفاصيل مثل "عني" لتقديم تفاصيل أكثر, ومباشرة بعد إنشاء الملف الخاص يصبح المستخدم عضوا في المجتمع ويقوم بإنشاء قائمة الأصدقاء التي ستكون أساسا لهذه الشبكة.

يشير مصطلح "الهوية عبر الإنترنت" إلى وجود تمييز بين كيفية تقديم الأشخاص أنفسهم عبر الانترنت وهويتهم الحقيقية في الواقع، على النقيض من الإنترنت في التسعينيات، يستخدم الناس اليوم وسائل التواصل الاجتماعي في المقام الأول للتواصل مع الأشخاص الذين يعرفونهم في سياقات "الحياة الحقيقية" مثل المنزل؛ العمل والمدرسة, تعمل الأجهزة المحمولة مثل الهواتف الذكية والأجهزة اللوحية على تسهيل الوصول إلى الوسائط الاجتماعية كجزء من الحياة اليومية؛ بدلاً من الاضطرار إلى " تسجيل الدخول" رسميًا إلى الإنترنت. وغالبًا ما يستخدم الأشخاص مواقع تواصل اجتماعية متعددة في وقت واحد، مما يؤدي إلى إنشاء أنظمة بيئية، حيث يحتفظون بنفس اسم المستخدم ومعلوماته الأساسية عبر الأنظمة الاجتماعية؛ مما يزيد من تعقيد تقديم ذاته على كل موقع, في ضوء كل هذه المضاعفات ما الذي يمكن قوله عن كيفية تأثير الحرية في مواقع التواصل الاجتماعي على الهوية؟[2]

---

[1] محمد بن عبد القحطاني: حماية الشخصية لمستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي, رسالة ماجستير, جامعة نايف العربية للعلوم الامنية, الرياض, 2015, ص 88.

[2] Marwick Alice E: online identity in companion to new media dynamics, Fordham university, 2013,p6.

- **اختراق الخصوصية:**

إن السهولة التي قد تتواجد بها قواعد البيانات وخطوط الاتصال جعلت من السهولة اختراق تلك المعلومات ومعرفة فحواها, ومن ثم اختراق خصوصية الأفراد.

وتعتبر الخصوصية من بين القضايا التي أثارها استخدام مواقع التواصل الاجتماعي, فالأمان والخصوصية لم تكن الأولوية الأولى لمالكي هذه المواقع, ونتيجة لذلك تعددت المخاطر التي قد لا يدرك المستخدم مدى تأثيرها حيث لا يدركون حجم الجمهور الذي يستطيع الوصول لمعلوماتهم بكل سهولة ويسر, ونتيجة لشعور مستخدمي الشبكات الاجتماعية بالألفة واليقة مه من يتشاركون معهم فأنهم قد يتشاركون بأكثر مما يجب, سواء في الأمور الشخصية أو ما يتعلق بأماكن عملهم, وما يتسبب في مشاكل كثيرة بدءا من الاحراجات الاجتماعية وانتهاء بالملاحقات القانونية.[1]

أكدت دراسة حديثة لجامعة واشنطن أن الأطفال يشعرون بقلق متزايد بخصوص الصور المنشورة عنهم من قبل أوليائهم، فهم يشعرون بقضاء وقت جيد على الشبكات الاجتماعية، غير أن هذا لا يعني أن لأوليائهم الحق في "نشر" صور لهم، سواء عبر الفيسبوك أو مواقع أخرى، وتشكل هذه المسألة بالفعل قضية قانونية خطيرة في بعض البلدان، مثل فرنسا، بلجيكا وألمانيا التي تحذر فيها السلطات الأولياء من أمكانية أن يتابعهم أطفالهم قضائيا في مرحلة البلوغ لانتهاكهم خصوصيتهم وتعريض سلامتهم للخطر.

يمكن اتخاذ عدد من التدابير لمنع الأخطار عن طريق تعديل إعدادات الخصوصية لتحديد الأفراد الذين بإمكانهم الاطلاع على صورنا على سبيل المثال،كما يمكننا القول إن استخدام الأفراد للشبكات الاجتماعية يتم على النحو الذي يرونه مناسبا، فمن الصعب تحديد تصرفاتهم أو الرجوع دائما إلى المستوى القانوني للقضايا التي تثيرها الشبكات الاجتماعية[2].

سوف يتفاجأ مستخدمي الإنترنت لمعرفة أن المعلومات التي يريدون حصرها في دائرة محددة من الأصدقاء قد توجد منتشرة رغم إرادتهم على الشبكة، مما يؤدي إلى أكثر من انزعاج، بل يمكن أن يسبب مشاكل حقيقية لهوية المستخدم عبر موقع الفيسبوك مثلا، وعلى الرغم من الاحتياطات التي يبدو أن العديد يتخذونها خلال ممارساتهم ومحادثهم الرقمية إلا أن الأخطار تبقى قائمة، يقر المستخدمون أن ممارستهم على الفيسبوك تبدو سريعة على الأقل أكثر مما كانت عليه على شبكة الإنترنت قبل ظهور

[1] محمد بن عبد القحطاني: مرجع سبق ذكره, ص90.

[2] عبد القادر بودربالة مرجع سابق

الفيسبوك أو حتى مقارنة بالمواقع الأخرى، إن الفيسبوك يشجع على الاسترسال والمشاركة ويحفز تقديم المزيد والمزيد من المعلومات التي يمكن أن تشكل خطرا عندما تقع بين الأيدي الخطأ، تحفز الشبكات الاجتماعية عبر الانترنت على "إظهار " الذات ونشر البيانات الشخصية، ليبقى التحدي هنا في تعريف حدود الخصوصية، وتقديم حدود حرية واستقلالية الأفراد في المراقبة البينية داخل المجتمع[1].

يقول GRANJON "إن مواقع الشبكات الاجتماعية هي تحفيز واضح لقبولنا الكشف عن معلوماتنا الشخصية" ، حيث لا يجبر موقع الفايسبوك الأفراد على تقديم معلوماتهم الشخصية إنما هم مخيرون في ذلك بل و يعمدون إلى نشرها في منصة حرة و نشطة و هذا لان الفايسبوك أصبح أداة اتصالية و تواصلية لا نستطيع الاستغناء عنها و هو وسيلة لتكوين شبكات علائقية مع الآخرين و في نفس الوقت يعتبر وسيلة للتعريف بالذات في عالم مفتوح على الأخر نتواصل و نتفاعل معه و نتشارك اهتماماتنا معا.

وعليه فمستخدم الفايسبوك يقع بين المطرقة والسندان فلا هو مرتاح من الحرية المتاحة له في الكشف عن بياناته و معلوماته الشخصية التي تعبر عن هويته و خصوصيته التي قد تعرضه لمخاطر ربما في المستقبل و لا هو يملك الثقة التامة في مواقع التواصل الاجتماعي (الفايسبوك) في حماية خصوصيته ،فبالرغم من هذه المخاوف التي تطال الحياة الخاصة للمستخدمين حيال خصوصية بياناتهم إلا أنهم يبحرون في عالم الفايسبوك و يقيمون علاقات اجتماعية فيه يمارسون صفة التنميط الذي ينادى بها الفايسبوك حيث يقول Fabrice انه " حتى عندما يكون المستخدم أكثر اطلاعا ودراية بالمخاطر الحقيقية فمن الصعب جدا أن يكون واثقا في قدرته على اتخاذ القرارات بما يتفق مع مصالحه فيما يتعلق بخصوصيته"، ويتساءل قائلا "هل ينبغي أن نحمي المستخدم ضد نفسه؟ دون حتى أن يشعر هو بحاجته إلى هذه الحماية؟[2]

[1] عبد القادر بو دربالة مرجع سابق .

[2] -ROCHELANDET. Fabrice, Économie des données personnelles et de la vie privée, Éd, La Découverte, coll. Repères, Paris, 2010.

حماية الخصوصية في موقع الفايسبوك:

"إن المعلوماتية يجب أن تكون في خدمة الإنسان، وان لا تؤدي إلى الاعتداء على الهوية الإنسانية، ولا إلى انتهاك حقوق وحريات الإنسان أو حياته الخاصة " [1]

لا يدرك الكثير من المستخدمين أن اتفاقيات الخصوصية يتم تعديلها بشكل مستمر، وهي تشتمل على موافقة المستخدم بأن يقوم مزودو الخدمة أو الشبكة الاجتماعية باستخدام بياناته الشخصية والمسجلة لديها لأغراض تجارية أو بما يخدم أهدافها الخاصة دون الحاجة لإعادة طلب الإذن من المستخدم نفسه! فهو قد وافق على ذلك ابتداء عند اشتراكه في الخدمة أو إنشائه للحساب الإلكتروني لديها، وهذا موجود في الكثير من الشبكات مثل فيسبوك وتويتر وجوجل بلس وغيرها الكثير.

بل إن شركة جوجل في ''سياسة الخصوصية'' والتي يجب أن تتم الموافقة عليها لاستخدام أي من خدمات جوجل –بما فيها يوتيوب– تصرح بأن ''تعمل الأنظمة التلقائية لدينا على تحليل المحتوى التابع لك (بما في ذلك الرسائل الإلكترونية) بغرض توفير ميزات منتجات ذات صلة بطابعك الشخصي، مثل نتائج بحث مخصصة، وإعلانات مناسبة، وحماية من الرسائل غير المرغوب فيها والبرامج الضارة'' وتنص أيضاً أنه ''يجوز لنا جمع ومعالجة معلومات عن موقعك الفعلي. نستخدم تقنيات عدة لتحديد الموقع، بما في ذلك عنوان IP وتقنية نظام تحديد المواقع GPS ومستشعرات أخرى قد توفر لجوجل مثلاً معلومات حول الأجهزة المجاورة ونقاط دخول Wi-Fi وأبراج الهاتف الجوّال القريبة'' والكثير الكثير مما تجبرنا تلك الشركات على الموافقة عليه من أجل أن تتمتع بخدماتها! [2]

و تمثلت الحماية القانونية للحق في الخصوصية المعلوماتية في مستويين دولي و وطني ، أما ما يخص الجانب الدولي لعبت المنظمات الدولية وعلى رأسها منظمة الأمم المتحدة دوراً مهماً، في الحفاظ على الأمن و الاستقرار، وخاصة في مجال مواجهة الجريمة المعلوماتية عبر إقرار العديد من الاتفاقيات، وعقد المؤتمرات، كما أنشأت وكالات متخصصة لهذا الغرض كالمنظمة العالمية للملكية الفكرية Wipo، بالإضافة إلى جهود منظمة التجارة العالمية في هذا المجال والتي ترتكز على محاربة كافة أشكال النسخ والتقليد

---

[1] Article 1, loi n°78-17 du 6 janvier 1978 relative à l'informatique, aux fichiers et aux libertés, *JO* du 7 janvier 1978, p.227," L'informatique doit être au service de chaque citoyen. Son développement doit s'opérer dans le cadre de la coopération internationale. Elle ne doit porter atteinte ni à l'identité humaine, ni aux droits de l'homme, ni à la vie privée, ni aux libertés individuelles ou publiques..''.

[2] ناجي الظاظا، الخصوصية الفردية في الشبكات الاجتماعية بين التفويض و الانتهاك ، صحيفة فلسطين اون لاين، نشر في 2015/02/20، تصفح في 2018/03/28 http://felesteen.ps/details/news

التي تتعرض لها البرامج، والتزمت بحماية برامج الحاسب الآلي من القرصنة التي تتعرض لها شأنها في ذلك شأن المنظمة العالمية للملكية الفكرية، بحيث جاءت هذه الحماية ضمن نطاق النصوص والأحكام الخاصة بحق المؤلف على اعتبار أن البرامج والبيانات تتمتع بحقوق التأليف.[1]

بالإضافة إلى هذه الجهود الدولية، هنالك جهود إقليمية تترأسها المنظمات الاتحادية بين بلدان يجمعها قاسم مشترك كالاتحاد الأوروبي الذي كان له دورٌ كبيرٌ في حماية الحق في الخصوصية. ففي العام 1981 تم التوقيع على الاتفاقية الخاصة بحماية الأفراد من إساءة استخدام البيانات المعالجة الكترونياً.ويحاول الإتحاد الأوروبي، تكريس وجوب التعاون بين الدول الأعضاء، لمواجهة هذا النمط المستحدث من الإجرام سواء فيما بينها أو بالتنسيق مع هيئات ومنظمات دولية أخرى، كما انه اصدر العديد من التوصيات المتعلقة بحماية الأفراد من أنشطة تخزين ونقل البيانات والتعليمات المتعلقة بحماية الأفراد من أثر التطور التقني في معالجة البيانات.

أما على المستوى العربي فنجد أن هناك جهوداً مبذولة من خلال الجامعة العربية بواسطة مجلس وزراء العدل العرب، من أجل الحماية من جرائم الحاسب الآلي، ولا سيما من خلال اعتماد مجلس وزراء العدل العرب للقانون الجنائي العربي الموحد كقانون نموذجي بموجب القرار رقم 339 لسنة 1996م، وهو خطوة جد هامة على الصعيد العربي في مجال محاربة القرصنة وجرائم معطيات الحاسوب، والدخول بطريق الغش إلى كامل أو جزء من نظام المعالجة الآلية للمعلومات وعرقلة أو إفساد نظام التشغيل عن أداء وظائفه المعتادة وتغيير المعلومات داخل النظام، و تزوير الوثائق المعالجة آليا وسرقة المعلومات.[2]

أما بخصوص التجربة الجزائرية : مما لا شك فيه أن الجزائر تأثرت على غرار الدول الأخرى بما أفرزته الثورة المعلوماتية ، مما دفع المشرع الجزائري إلى تعديل قانون العقوبات و ذلك لمواجهة الأخطار المستحدثة من الإجرام ، كما مس التغيير القانون المدني ، و الملاحظ أن المشرع الجزائري لم يكتف بالحماية الجزائية للمعطيات بل تعدي ذلك لتوفير حماية إجرائية من خلال استحداث إجراءات التحقيق تتفق و طبيعة الجريمة المعلوماتية ،و من جهة أخرى و بالرغم من التصريح الذي أعلنته وزارة البريد و تكنولوجيا الإعلام و الاتصال بخصوص مشروع قانون يتعلق بحماية البيانات الشخصية على الانترنت و الاتصالات الهاتفية ، اثر افتتاح صالون " تكنولوجيا الإعلام و الاتصال بخدمة امن المواطن" بتاريخ 13 نوفمبر 2014 ، فانه و إلى غاية اليوم لم تكن أية ترسانة قانونية في الموضوع .[3]

---

[1] فؤاد بن صغير، التجارة الدولية، مطبعة فضالة المغرب، الطبعة الأولى، 2000، ص: 52.

[2] http://www.startimes.com/?t=31163480 الجهود الدولية في مواجهة جرائم الإنترنت التصفح في 2018/03/28

[3] ينظر الحق في الخصوصية المعلوماتية بين تحديات التقنية وواقع الحماية القانونية ،بن قارة مصطفى عائشة ، مرجع سابق .

تطبيقات حماية الخصوصية في موقع Facebook:

تعتبر عملية الحفاظ على الخصوصية خاصة في موقع التواصل الاجتماعي الفايسبوك, من اكبر التحديات التي قد تواجه المسؤولين على الخدمات, قد تؤدي إلى تعقيد بيئة عمل الخدمة وتتعارض مع السياسة العامة للشبكة ومصالحها, مما يؤدي إلى حظر محتمل لهذه التطبيقات ومستخدميها.

في هذا السياق تم طرح ثلاثة مشاريع تهدف إلى تعزيز الخصوصية على Facebook FlyByNight، NOYB و FaceCloak. كل من هذه المشاريع يستخدم آليات التشفير المتقدمة لإخفاء المعلومات المخزنة في الشبكات الاجتماعية من العيون غير المرغوب فيها, تتجسد هذه الآليات في معظمها في إضافات المتصفح التي تتفاعل مع صفحة Facebook عندما يتم تحميلها, ويرد في الجدول أدناه خصائص أكثر تفصيلاً لهذه المشاريع:

Application	Characteristics
FlyByNight M.M.Lucas, N. Borisov	Proxy Re-Encryption, el Gamal encryption, AES
NOYB S. Guha, K. Tang, P. Francis	Replace each attributes of user by an attribute of one of the member of his social network
FaceCloak W. Luo, Q. Xue, U. Hengartner	Dictionary, MAC

جدول يوضح التطبيقات التي تحمي الخصوصية في موقع الفايسبوك ومميزاتهم.

تسعى هذه التطبيقات الثلاثة إلى استخدام آليات التشفير المتقدمة إلى حد ما, لكنها ستظل تجريبية بطبيعتها لأنها تعتمد على الوصول إلى سياسة الشبكة الخاصة بمزود الشبكة الاجتماعية.[1]

[1] Antoine Fressancourt, Privacy and social networks, ATOS, 2012,p 8.

خاتمة:

قوة تعلقنا بمواقع التواصل الاجتماعي لما لها من ميزات أترث في المستخدم ظنا منه انه انشأ لنفسه عالما مستقلا وهو حر في نشر وتبادل ما يريد من معلومات في وسط أنترناتي اجتماعي بهوية افتراضية قد تتطابق أو تختلف عن هويته الحقيقية فيظهر للآخر بالشكل الذي يرغب أن يراه فيه متناسيا أو متجاهلا لخطورة المعلومات والبيانات الشخصية التي يزود بها الأخر خاصة وأن موقع الفايسبوك يقوم بتحديثات متسارعة تظهر لنا للوهلة الأولي أنها في خدمتنا لكن و للأسف كلها تعرية لحياتنا الخاصة و تفاصيلنا المخفية التي يجب أن تحجب عن الغير لما لها من انتهاك لخصوصيتنا الفردية لكن في قالب حريتنا المطلقة في التعبير عن همومنا وأحاسيسنا وأرائنا دون رقيب أو حسيب، فعلى المستخدم أن يعي انه أسير المواقع الاجتماعية كونها تفرض عليه شروط الاستخدام و قوانين الولوج إليها بانتهاج سياسة التنميط من خلال اقتراح أصدقاء نضيفهم لقائمة أصدقائنا و أيضا تدفعنا دفعا للتعرف على أصدقائنا وأصدقائهم في شكل علاقات رقمية افتراضية، إذن فهي شبكة جد معمقة لها أهداف و غايات خفية، لذا وجب علينا أن نكون أكثر حذرا في التعامل مع هذه المواقع من حيث نشر الأفكار، وضع التعليقات، و التفاعل من خلال الإعجاب و المشاركة لان كل شيء محسوب علينا في هذه المواقع .

قائمة المراجع:

- بن قارة مصطفى عائشة , الحق في الخصوصية المعلوماتية بين تحديات التقنية وواقع الحماية القانونية، ،موقع المنهل ،تصفح في 2018/03/28https://platform.almanhal.com/Reader/2/84732
- حمزة إسماعيل أبو شنب ، "تقنيات التواصل الاجتماعي "الاستخدامات والمميزات"،شبكة الألوكة .
- سليم جلاد: الحق في الخصوصية بين الضمانات والضوابط, مذكرة لنيل ماجستير , جامعة وهران. 2012-2013, ص13.
- عبد القادر بودربالة, تحديات الخصوصية عبر الفايسبوك المستخدمون، بين حماية الحياة الخاصة وحرية عرض الذات جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر(مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية العدد 27/ ديسمبر 2016.
- فتحي حسين عامر ، وسائل الإتصال الحديثة من الجريدة إلى الفيس بوك ،دار العربي ،دط ، القاهرة،2011، ص2.
- فؤاد بن صغير، التجارة الدولية، مطبعة فضالة المغرب، الطبعة الأولى، 2000، ص: 52.
- محمد بن عبد القحطاني: حماية الشخصية لمستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي, رسالة ماجستير , جامعة نابف العربية للعلوم الامنية, الرياض, 2015, ص 88.
- ناجي الظاظا ,الخصوصية الفردية في الشبكات الاجتماعية بين التفويض و الانتهاك ، ، صحيفة فلسطين اون لاين، نشر في 2015/02/20، تصفح في 2018/03/28 http://felesteen.ps/details/news
- Antoine Fressancourt, Privacy and social networks, ATOS, 2012,p 8.
- Article 1, loi n°78-17 du 6 janvier 1978 relative à l'informatique, aux fichiers et aux libertés, *JO* du 7 janvier 1978, p.227," L'informatique doit être au service de chaque citoyen. Son développement doit s'opérer dans le cadre de la coopération internationale. Elle ne doit porter atteinte ni à l'identité humaine, ni aux droits de l'homme, ni à la vie privée, ni aux libertés individuelles ou publiques..".
- Laurie Dickstein-Fischer, MS: Facebook Use in Relation To Gender, Introversion-Extroversion, and Sense of Belonging Among College Students, Northeastern University, Boston, Massachusetts June 2012, p4.
- Marwick Alice E: online identity in companion to new media dynamics, Fordham university, 2013,p6.
- Michael Beye and others, Literature Overview - Privacy in Online Social Networks, Information Security and Privacy Lab, Faculty of EEMCS, Delft University of Technology, Distributed and Embedded Security, Faculty of EEMCS, University of Twente,p 6.7.8.
- ROCHELANDET. Fabrice, Économie des données personnelles et de la vie privée, Éd, La Découverte, coll. Repères, Paris, 2010.

المؤتمر الدولي العلمي السادس للمركز الأوروبي للبحوث والاستشارات

في العلوم الإنسانية والاجتماعية تحت شعار " المستقبل بعين الحاضر والماضي"

تركيا – اسطنبول

جامعة مرمرة – كلية الإلهيات

3 - 4 / 5 / 2018

مفهوم الأقليّة بين العدد والفاعليّة

إعداد:

أ/ حبيبة معنصر

جامعة الحاج لخضر - الجزائر

Email: meha.1964@hotmail.com

Ref: 6/2018/122

ISBN 978-1-9996437-3-7

الملخّص:

الأقليّة هي مصطلح تعدّدت حول ماهيته الآراء، و تضاربت الأفكار في ضبطه، وانقسمت بذلك إلى ثلاثة معايير، الأوّل وهو معيار العدد، يعرّف الأقلية على أنّها الجماعة الأقلّ عددا، والثاني وهو معيار الفاعلية، يعرّفها بأنّها الجماعة المستضعفة من طرف المجتمع، وأمّا المعيار الثالث فهو الذي يجمع بين العدد و الفاعلية، و يعرّفها على أنّها الجماعة الأقل عددا والمضطهدة في المجتمع.

مقدمة:

لعوامل تاريخية عدة، ظهر ما يعرف بالأقليّات عبر العالم، و هو مصطلح حديث، لم يظهر في كتب الفقه عند القدامى، وقد دعت الضرورة لطرحه و مناقشته عبر المؤتمرات و الهيئات الدولية؛ نظرا لما تعانيه الأقليات من اضطهاد و تمييز و هضم للحقوق.

و الأقلية في عمومها هي مجموعة بشرية تعيش وسط أكثرية، وتخالفها في خاصية أو أكثر كالدين أو اللغة أو العادات... وهي تسعى جاهدة للحفاظ على هويتها و عدم الذوبان في مجتمع الأغلبية.

و قد تعددت الآراء حول معنى الأقلية بتعدد الخلفيات و الأرضيات التي ينطلق منها التعريف، فكلّ يعرّف هذا المصطلح بحسب مجاله ورؤيته.

و هنا تكمن أهمية هذا البحث، حيث يهدف إلى ضبط هذا المصطلح؛ حتى تتحدّد الحقوق والواجبات، ولكي لا يبقى هذا المصطلح فضفاضا، كلّ يوجّهه بحسب ما يخدم سياسته على حساب مصالح هذه المجموعات البشرية.

وبتتبع هذه التعريفات، يمكن إجمالها في ثلاثة اتجاهات: اتجاه العدد، واتجاه الفاعلية، و الاتجاه الجامع بينهما.

تمهيد:

في هذا المقام، سيتم عرض معنى "الأقلية" في اللغة، ثمّ بيان آراء المفكرين في تحديد معنى المصطلح و ذلك بعرض الاتجاهات الثلاثة مع تحليلها، و مناقشتها، و من ثمّ الوصول إلى نتيجة.

المفهوم اللغوي لمصطلح الأقلية:

إنّ لفظة الأقليات، هي جمع لكلمة الأقلية، وهي: من الفعل قلل: بمعنى القلة، وهي خلاف الكثرة. والقُلُّ والقلة مثل الذل والذلة. والقُلُّ من الرجال: الخسيس الدين. ورجل قُلٌّ: قصير الجثة والدقيق. وقوم قليلون وأقلاء وقُلُل وقُلُون: يكون ذلك في قلة العدد ودقة الجثة.[1] قال (تعالى): ":{... وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ...} (سورة: الأعراف، الآية:86).

ويمكن القول هنا، أنّ (الأقلية) في اللسان العربي تأتي بمعنى القلّة في العدد، وتأتي بمعنى الذِلَّة والضعف، وقد تجمع المعنيين معا، فتأتي بمعنى القلّة في العدد مع الذلّة والضّعف.

[1]. انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، 180/12.

المبحث الأول – مفهوم الأقلية وفق اتجاه العدد:

يرى أنصار هذا المعيار أنّ مفهوم الأقلية مرتبط بعدد الأفراد المنتمين إليها، والذين تجمعهم روابط مشتركة وتميزهم عن غيرهم داخل المجتمع المشكل للدولة الواحدة على إقليمها، ويرون أنّ الأقلية هي الجماعة العرقية الأقل عددا في مجتمع ما، وأنصار هذا الاتجاه من المشتغلين بالعلوم الاجتماعية والدراسات القانونية.[1]

والملاحظ على هذا الاتجاه أنّه يصطدم بحقيقة تواجد مجموعات مختلفة داخل دولة ما، مع عدم تمتع أي منها بصفة الأغلبية، حيث تضطر تلك المجموعات إلى التكتل لتشكيل الأغلبية المنشودة في مواجهة أقلية أخرى أو مجموعة أقليات، كما هو الحال في لبنان، وهذا يفقد المعيار العددي صدقيته إلى حدّ ما.

وزيادة على ذلك، صعوبة التحقق من الإحصائيات المعلن عنها؛ إذ يجب التواجد على الجغرافيا نفسها التي تتواجد فيها تلك الأقليات، وإن كان أمر التحقق من عدد أقلية ما في دولة مركزية موحدة، فإنه يصعب – إن لم يكن مستحيلا في الدول اللامركزية– وهذا لظهور الأقليات داخل الأقليات، كما هو الشأن في العراق حيث يعتبر الأكراد[2] أقلية بالنسبة للعرب، في حين يشكل العرب أقلية في إقليم كردستان.[3]

وقد أورد أصحاب هذا الاتجاه عدّة تعريفات للأقليّة، منها:

أ– الأقلية هي: "مجموعة من السكان، لديهم عادة جنسية الدولة، غير أنّهم يعيشون بذاتيّتهم، ويختلفون عن غالبية المواطنين في الجنس واللغة والعقيدة والثقافة والتاريخ والعادات".[4] ومفاد هذا التعريف هو أنّ الأقليّة هي جماعة عرقية تتمايز عن غالبية سكان مجتمعها بمختلف مقومات الذاتية العرقية. وهذا يصعب تحققه على أرض الواقع؛ نظرا لاستحالة أو صعوبة إيجاد أقلية تختلف عن باقي سكان دولة ما في كلّ الخصائص

---

[1]. انظر: وهبان، أحمد، **الصراعات العرقية واستقرار العالم المعاصر**، الإسكندريّة: دار الجامعة الجديدة، (د. ط)، 2001م، ص152. بحر، سميرة، **المدخل لدراسة الأقليات**، مصر: مكتبة الأنجلو مصرية، (د. ط)، 1982م، ص10.

[2]. هم شعوب تعيش في غرب آسيا، شمال الشرق الأوسط، بمحاذاة جبال زاكروس وطرطوس في المنطقة التي يسميها الأكراد كردستان الكبرى، وهي اليوم عبارة عن أجزاء من شمال شرق العراق، وشمال غرب إيران، وشمال شرق سوريا، وجنوب شرق تركيا. كما يتواجد الأكراد بأعداد قليلة في جنوب غرب أرمينيا وبعض مناطق أذربيجان ولبنان. انظر: تاج الدين، أحمد، **الأكراد تاريخ شعب وقضية وطن**، مصر: الدار الثقافية للنشر، ط1، 2001م، ص11-69.

[3]. كردستان العراق: هي منطقة حكم ذاتي في شمال العراق. تحدها إيران من الشرق، وتركيا من الشمال، وسوريا من الغرب، وبقية مناطق العراق من الجنوب العاصمة الإقليمية محافظة أربيل، والمعروفة بهولير بالكردية. إنشاء إقليم كردستان العراق يعود إلى الحكم الذاتي في مارس (1970م). انظر: سمر، عبد الحميد مُحَمَّد، **أكراد العراق تحت حكم عبد الكريم قاسم (1958–1963م)**، رسالة ماجستير، مصر: جامعة الزقازيق، كلية الآداب، قسم التاريخ، ص17- 64.

[4]. العمري، أحمد سويلم، **أصول العلاقات السياسية الدولية**، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط3، 1959م، ص821.

– الدينية والجنسية واللغوية والعقدية والثقافية والتاريخية والعادات والتقاليد – وتوفّر عنصر من العناصر الآنفة الذكر، كاف للوصول إلى وضع الأقليّة.

ب– الأقليّة هي: "طائفة من البشر المنتمين إلى جنسية دولة بعينها، متى تميّزوا عن أغلبية المواطنين المكونين لعنصر السكّان في الدولة المعيّنة، من حيث العنصر أو الدين أو اللّغة".[1] هذا التعريف ركّز على أنّ الأقلية هي الجماعة العرقية ذات الكمّ البشري الأقلّ في مجتمعها. غير أنّه يؤخذ عليه، أنّه حصر خصائص الأقلية في ثلاث: الدين واللغة والعنصر، في حين فإنّها أكثر من ذلك. ومن جهة أخرى، فإنّ التعريف لم يشر إلى عنصر هام، وهو إدراك أفراد الأقليّات للمقوّمات التي تميّزها عن الغالبية، والحفاظ عليها.

وخلاصة القول في هذا الاتجاه، أنّ أصحابه يؤكّدون– في تعريفهم للأقليّة –[2] على معيار العدد، والذي يعني أنّ الأقليّة هي الجماعة العرقية ذات الكمّ البشري الأقلّ في مجتمعها. ويؤخذ عليه عدم الإشارة إلى أوضاع الأقلية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وكذا فإنّ التعريفات فيها التكرار والإطناب، وهي غير جامعة ولا مانعة.

---

[1]. عبد الحميد، مُحَمَّد سامي، **أصول القانون الدولي العام**، مصر: مؤسسة الثقافة الجامعية، (د. ط)، ص115.

[2]. انظر:

Encyclopedia Britannica, William Benton Publisher, (s. Ed), vol 15, London, p452. Nicolas Schmitt, **protection des minorités**, **federalisme et democratie de concordance**, institut federalisme, université de fribourg, conference sur le Burundi, Geneve, (17-19 avril 1996), p5.

المبحث الثاني – مفهوم الأقلية وفق اتجاه الفاعلية:

يرى أنصار هذا المعيار أنّ الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي هو العنصر المحدّد لمفهوم الأقليّة وهي – على حسبهم– كلّ جماعة عرقية مستضعفة، أو مقهورة، أو مغلوب على أمرها، بغض النّظر عن عدد أفرادها، كثرة كانوا أو قلّة. ويستدلّون على ذلك، بوضع الهنود الحمر[1] في أمريكا في بداية الغزو الأوروبي لها، وكذلك الزنوج في جنوب إفريقيا أيّام حكم الميز العنصري.

والملاحظ هنا، أنّ معيار الفاعلية لا يخلو من النقد، ففي بلجيكا مثلا، يوجد الفرانكفونيون[2] الذين يشكّلون حوالي (40%) من عدد السّكان، وهم بذلك في حكم الأقلية بالمعيار العددي، لكن التشريعات البلجيكية منحتهم امتيازات جعلتهم في وضع المهيمن على حساب الفلامون،[3] إلاّ أنّ الفدرالية أعطت أيضا امتيازات لجماعة الفلامون؛ ممّا جعلها أيضا في وضع المهيمن إلى جانب الأقلية الفرانكفونية، ونتج عن هذا الوضع ما يسمّى بالهيمنة المشتركة، وغدت وفقا لهذا الوضع الجماعة الهولندية هي الأقليّة الوحيدة بالمعيار العددي ومعيار الهيمنة.[4]

وأنصار هذا الاتجاه يعرّفون الأقلية بتعريفات مختلفة، يذكر منها:

أ– الأقلية هي: "مجموعة من الأشخاص في الدولة، ليست لها السيطرة أو الهيمنة، تتمتع بجنسية الدولة، إلاّ أنها تختلف من حيث الجنس أو الديانة أو اللّغة عن باقي الشعب، وتصبو إلى حماية ثقافتها، وتقاليدها، ولغتها الخاصّة".[5]

والملاحظ على هذا التعريف، أنّه يربط مفهوم الأقلية بفاعليتها فقط، ممّا يؤدي إلى خلق نوع من الخلط بين مفهوم الأغلبيّة والأقليّة، خاصّة في الأوضاع التي تكون فيها أمام مجموعتين، إحداهما كثيرة العدد وأقلّ سيطرة، والأخرى قليلة العدد ومسيطرة، فكلتاهما أقليّة وأغلبية

---

[1]. اسم يطلق على عرقيات السكان الأصليين الأمريكيين قبل عصر كريستوفر كولمبوس، وتطلق أيضا على السلالات التي انحدرت عنهم. انظر الموقع:
www.eso-garden.com/specials/american_indian_tribes.pdf (2/2/2013.16:00)

[2]. هم المنتسبون إلى الفرانكفونية. وهي تجمع دولي منظم، وهو ثاني أكبر تجمع في العالم بعد الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة. يضم خمسا وأربعين دولة ناطقة كليا أو جزئيا باللغة الفرنسية، حيث تشكل اللغة الفرنسية الرابط المؤسس لهذه المنظمة، وقد تشكلت الفرانكفونية كمنظمة دولية عام (1960م).وهي في أساسها تمثل هدفا ثقافيا لحماية اللغة والثقافة الفرنسية، والترويج لها. انظر الموقع:
www.al.jazirah.com/2002/20021024/cu5/htm (5/2/2013 .11:00)

[3]. هم مجموعة من الناس التي تسكن في النطاق الشمالي من بلجيكا وتتحدث اللغة الهولندية. انظر الموقع:
https:/www.oecd.org/fr/Belgique/32023762.pdf (7/2/2013.14:15)

[4]. انظر:
José Woehrling, **les trois dimensions de la protections des minorités en droit constitutionnel comparé**,rapport generale présenté aux journées mexicaines de l'association Henri capitant à Mexico et Oaxaca du 15 au 18 mai 2002, p104.

[5]. هذا التعريف منسوب إلى (فإن ديك). السيّد، محمّد جبر، **المركز الدولي للأقليّات في القانون الدولي مع المقارنة بالشريعة الإسلامية**، الإسكندريّة: منشأة المعارف، (د. ط)، 1990م، ص86.

حسب معيار الدّارس أو الملاحظ. وأيضا فالتعريف حصر مميّزات الأقليّة في ثلاث، في حين، فإنّها تزيد على ذلك كالعادات والتقاليد، كما سبق بيانه.

ب– الأقليّة هي: "جماعة تشترك في واحد أو أكثر من المقومات الثقافية أو الطبيعية، وفي عدد من المصالح التي تكرّسها تنظيمات وأنماط خاصّة للتفاعل، وينشأ لدى أفرادها وعي بتمايزهم في مواجهة الآخرين نتيجة التمييز السياسي والاجتماعي والاقتصادي ضدّهم؛ ممّا يؤكّد تضامنهم ويدعّمه".[1] والملاحظ هنا، أنّ الاشتراك في عدد من المصالح، ليس من خصائص الأقلية فقط، فهو عام بين الشعوب والدول. ويلاحظ أيضا، أنّه يتميّز بإدراجه للعامل النّفسي،[2] المتمثل في الوعي والإحساس لدى أفراد المجموعة بوضعهم. ولكن من جهة أخرى، يمكن لأفراد الأقلية الشعور بالتمايز العرقي بالرغم من جودة المستوى السياسي والاجتماعي والاقتصادي.[3]

وبالنظر إلى هذا الاتجاه[4] عموما، فإنّه يؤخذ عليه ما يأتي:

1– إهمال أصحابه لمعيار العدد، ممّا يؤدّي إلى الخلط بين مفهومي الأقلية والأغلبية.[5]

2–القول بأنّ الأقليّات هي بالضرورة جماعات عرقية غير مسيطرة، هو رأي غير سليم في جميع الأحوال، إذ الواقع يثبت وجود أقليّات مسيطرة.[6]

---

[1]. مسعد، نفين، **الأقليّات والاستقرار السياسي في الوطن العربي**، القاهرة: مكتبة النهضة المصريّة، (د. ط)، 1988م، ص د.

[2]. يقصد بالعامل النفسي، أن الجماعة المتجانسة لا يصطلح عليها بالأقلية إلا إذا أحسّت بوضعها عن وعي تام بواقعها، وتصرّفت على أساسه في كل تفاعلاتها مع المحيط الداخلي والخارجي على حد سواء. انظر:

Landre-Sosthene Beni, Mogba gestion Zephirin, **des forets et exclusions des minorites pygmees Ba Aka dans la reserve specile de Dzanga-Sangha Republique Centre Africaine**, mémoire de maitrise en sociologie, Bangui: université de Bangui,1996-1997,p10.

[3]. وهذا مثل الأقليّة الفرنسيّة التي تستوطن كندا، فهي تشعر بتمايزها العرقي بالرّغم من عدم معاناتها من أيّ صورة من صور التمييز. انظر، وهبان، أحمد، **الصراعات العرقية واستقرار العالم المعاصر**، ص126.

[4]. انظر:

Wagley, Charles, **minoritiesin the New World**, New York, Colombia university press, 1985, Claude Levis-Straus , rev, Int, sc, soc, n 4, 1971, Vol 23, p 647. p4.

[5]. فعلى سبيل المثال، كانت الأغلبية العددية الهائلة من السود في جنوب إفريقيا – إلى عهد قريب– تمثل جماعة عرقية مستضعفة تعاني شتى صنوف التمييز والاضطهاد من جانب أقلية عددية مسيطرة من البيض في مجتمعها. فهل بمقدور أحد القول بأنّ السود – في ظل تلك الظروف– كانوا يمثلون أقلية، في حين أنّ البيض كانوا لا يعتبرون كذلك؟ انظر: عبد الحميد، محمّد سامي، **أصول القانون الدولي العامّ**، ص115.

[6]. واللّتين كانتا – إلى عهد قريب – تمثلان جماعتين مسيطرتين كلّ في دولته. وذلك حال أقليّتي البيض في كلّ من (زيمبابوي وروديسيا). انظر: وهبان، أحمد، **الصراعات العرقية واستقرار العالم المعاصر**، ص167.

3-القول بأنّ الأقليات هي بالضرورة تعاني من التمييز أو الاضطهاد، هو رأي بعيد عن الصواب؛ لأنّ الواقع يثبت وجود أقليّات غير مسيطرة إلا أنّها تعامل على قدم المساواة مع الأغلبيّة.[1]

4- التعريفات المتقدّمة يسودها التكرار والإطناب، وهي غير جامعة ولا مانعة.

[1]. وهذا مثل الأقليّة الفرنسية في كندا، والأقلية اليهودية في الولايات المتّحدة الأمريكيّة. انظر: المرجع السابق نفسه.

المبحث الثالث – مفهوم الأقلية وفق اتّجاه العدد والفاعليّة معا:

لقد تعرّض أصحاب معيار العدد، كما أصحاب معيار الفاعلية إلى كثير من النقد ممّا حذا بمجموعة من الدارسين إلى اعتماد المعيارين معا، في اتجاه جديد وتتمحور تعريفاتهم لمصطلح الأقلية بين الجمع المتزامن بين قلّة العدد ودونية الوضع السياسي، أو الاجتماعي، أو الاقتصادي. ومن تعريفاتهم الواردة وفقا لهذا المعيار، ما يأتي:

أ– الأقليّة هي: "مجموعة من مواطني الدولة، تختلف عن أغلبية الرعايا من حيث الجنس، أو الدين، أو اللغة، أو الثقافة، وغير مسيطرة أو مهيمنة، وتشعر بالاضطهاد، مستهدفة حماية القانون الدولي لها".[1]

واللاّفت في هذا التعريف، هو ظهور عنصر الجنسيّة واشتراطه في تعريف الأقليّة. والجنسية هنا يستنبط منها عنصر الولاء للدولة التي تتمتع أي مجموعة بجنسيتها، كما أنّها تتيح للدارسين التفريق بين مجموعات المهاجرين، أو اللاّجئين، على إقليم أي دولة. وكذلك القول بعدم سيطرة الأقليّة وشعورها بالاضطهاد هو غير ثابت في جميع الأحوال كما سبق بيانه.

ب– الأقليّة هي: "جماعة من المواطنين في دولة ما، يشكّلون أقلية عددية، ويكونون في وضع غير مسيطر في هذه الدولة، ولهم خصائص عرقية أو دينية أو لغوية، تختلف عن خصائص أغلبية السكان، ويكون لديهم شعور بالتضامن فيما بينهم يشجّعه وجود– ولو ضمنيّا– إرادة جماعية في البقاء كجماعة متميّزة، وهدفهم هو تحقيق المساواة مع الأغلبيّة في الواقع وفي القانون".[2]

والملاحظ على هذا التعريف – إضافة للملاحظات السابقة– هو حصره لأهداف الأقليات في المساواة، في حين فإنّ الأقليات قد تكون لها أهداف أخرى عديدة أبرزها هدف الانفصال عن الدولة وتكوين دولة مستقلّة، أو الانضمام إلى دولة مجاورة يشترك شعبها مع أفراد الأقلية في ذات المقومات العرقية.[3] ومن جهة أخرى، فإنّ التعبير بلفظة (عرقيّة) غير دقيق؛ ذلك أنّ الخصائص العرقية تتضمّن الخصائص الدينية واللغوية والثقافية التي ذكرت في التعريف.

---

[1]. السيّد، محمّد جبر، **المركز الدّولي للأقلّيات في القانون الدولي مع المقارنة بالشريعة الإسلاميّة**، ص96.

[2]. السيّد، محمّد جبر، **المركز الدّولي للأقلّيات في القانون الدولي مع المقارنة بالشريعة الإسلاميّة**، ص82. وائل، علام أحمد، **حماية حقوق الأقليّات في القانون الدولي العام**، القاهرة: دار النهضة العربيّة، (د. ط)، 1994م، ص18.

[3]. من ذلك: الأقلية المسلمة التي تقطن إقليم كشمير بالهند، والأقلية المسلمة المتمركزة في جمهورية الشيشان التابعة لروسيا الاتحادية، والأقلية الزنجية في جنوب السودان، والأقلية الكردية في كل من العراق وتركيا وإيران، والأقلية الكتالانية، وأقلية الباسك في إسبانيا. انظر: وهبان, أحمد، **الصراعات العرقية واستقرار العالم المعاصر**، ص172-173. المداح، محمّد علي، **"مشكلة الباسك بين الاستقلال والحكم الذاتي"**، مجلة السياسة الدولية، عدد 59، 1980م، القاهرة: مؤسسة الأهرام، ص154-160. وانظر:

, revista de Libros, n2, 2014, "**los costes de la separacion de Cataluña**"Gabriel,Tortella, España, colegio libre de IXIXITOS, p 1-18.

وخلاصة القول حول هذا الاتجاه، أنّه أكثر إحاطة بمفهوم الأقلية؛ وذلك بجمعه المعيارين معا: العدد، والفاعلية – الوضعية السياسية والاجتماعية والاقتصادية– ولكن يؤخذ عليه أنّه دائما يجعل الأقلية في وضع المضطهد وغير المسيطر، وهذا مناف للواقع.

وبعد الوقوف عند معنى الأقليّات بحسب المعايير الثلاثة، فإنّه تبيّن أنّه لا يوجد تعريف محدّد ومجمع عليه للأقليّة، وهذا حتى داخل المعيار الواحد؛ والسبب في ذلك – بعد استقراء الآراء – راجع لأمرين اثنين، هما: تباين أوضاع الأقليّات من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ هذه التعريفات وضعت بحسب بؤرة الاهتمام التي ينطلق منها التعريف، والسّياق الذي يندرج فيه، والوظيفة التي يراد له أن يقوم بها. والواقع أكبر شاهد على هذا، فالاختلاف حول ماهيّة (الأقليّة) ثابت حتى في أكبر الموسوعات والقوانين الدوليّة.[1]

وفي الختام، وبعد هذا العرض لمختلف الاتّجاهات والآراء في تحديد ماهيّة مصطلح الأقليّة، يتبيّن أنّها ترتكز على عناصر أساسيّة، بحيث تشكّل في مجموعها معنى (الأقليّة)، وهي:

1- وجود جماعة بشريّة تعيش وسط أخرى.

2- يشترك أفرادها في خاصيّة أو أكثر، تميّزها عن الأغلبيّة.

3- تتميّز هذه الجماعة بقلّة عددها، فيكون المجتمع الذي تعيش فيه أكثريّة.

4- تكون هذه الجماعة غير مسيطرة ومضطهدة، في الغالب.

واشتراط عنصري: قلّة العدد، والاضطهاد وعدم السيطرة في الغالب؛ وذلك لأنّ الواقع والتاريخ يثبتان أنّ ظهور مصطلح (حقوق الأقليّات في العالم)،لم يأت إلا لحماية الجماعات الصغيرة والمضطهدة، وأمّا الأكثريّة النّافذة فلا حاجة لها لمن يدافع عنها، فهي مهيمنة. وإذا حدث وأن وجدت أغلبيّة مضطهدة، وفي المقابل أقليّة مسيطرة، فهذا نادر، وعكس الواقع، وهذا مثل الأقليّة اليهوديّة في الولايات المتّحدة الأمريكيّة.

5- يكون عدد هذه الجماعة كافيا للحفاظ على خصائصها وتميّزها؛ وإلاّ انصهرت في غالبيّة المجتمع.

6- أن يكون لها كامل الاستعداد للمحافظة على صفاتها وهويّتها؛ وإلاّ مصيرها الذوبان في الغالبيّة.

---

[1]. انظر: ف، بوريكوا، ود، بودون، **المعجم النقدي لعلم الاجتماع**، ترجمة: حداد، سليم، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، (د. ط)، 1986م، ص50-51. الكيالي، عبد الوهاب، وآخرون، **الموسوعة السياسية**، بيروت: دار النعمة، ط3، 1990م، 244/1. المادة الأولى من قانون حماية حقوق الأقليات الصادر عن المبادرة الأوروبية المركزية بتورينتو في (1994م)، عن الموقع:
www.law-zag.com/vb/t13336.htm (10/01/2013م.15:10)
نص إعلان الأمم المتحدة بشأن حقوق الأشخاص المنتمين إلى أقليات قومية أو إثنية وإلى أقليات دينية ولغوية، والذي اعتمدته الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة عام (1992م)، عن الموقع:
http://www.ohchr.org/documents/publications/guide minorities ar.pdf (10/01/2013م.18:00)
hem.bredband.net/b153948/stu14.htm (10/01/2013.16:15)

7- أن تكون لها صفة المواطنة، وتتمتّع بالولاء للدّولة التي تعيش فيها، وإلاّ فمن الضّامن لحقوقها.

وعليه - وبناء على هذه الخصائص- يمكن الخلوص إلى أنّ الأقليّة هي: "جماعة من مواطني دولة ما، يشترك أفرادها في رابطة أو أكثر، تميّزهم عن أكثرية السكان، تسعى للحفاظ عليها بتمكين عددها، غالبا ما تكون مضطهدة وغير مسيطرة ".

ومحترزات التعريف هي كالآتي:

أ- "جماعة": إشارة إلى الجزء، وليس الكل.

ب- "مواطني": لإخراج من لا يتمتع بصفة المواطنة، وما يلحق بها من ولاء للدولة.

ت- "دولة ما": لإخراج من لا ينتمي إلى دولة معينة، وحياته قائمة على التجوال، كالغجر[1] مثلا.

ث- "تميّزهم": احترازا من الخصائص التي يشتركون فيها مع غالبية السكان.

ج- "أكثرية": إشارة إلى أنّ هذه الجماعة هي قليلة العدد بالمقارنة مع باقي سكان الدولة.

ح- "تسعى للحفاظ عليها": لإخراج الجماعات غير المدركة لروابطها، ولا تعمل لإثباتها، ولديها قابلية الانصهار مع الأغلبية.

خ- "بتمكين عددها": احترازا من الجماعات التي ضعفها في عددها؛ بحيث لا يمكّنها من البقاء، بل مصيرها الزوال.

د- "غالبا": احترازا من القول القائل بأنّ الأقلية دائما غير مسيطرة ومضطهدة.

[1]. توجد آراء مختلفة بشأن تاريخ الغجر وأصولهم، منها أن هؤلاء الأقوام أصلا من شعوب الهند وإيران ومناطق وسط وجنوب آسيا، هاجروا من أراضيهم في حوالي القرن الرابع الميلادي، وأوضح بعض المؤرخين أنهم في أواسط القرن الخامس عشر (1440م تقريبا) وصلوا إلى مناطق المجر وصربيا وباقي بلاد البلقان الأخرى، ثم بعد ذلك انتشروا في بولندا وروسيا، واستمر انتشارهم إلى أن بلغوا السويد وإنجلترا في القرن السادس عشر الميلادي، كما استوطنوا في إسبانيا بأعداد كبيرة. انظر الموقع:
http://knowledge0world.blogspot.com/2012/09/blog-post_27.html (5/1/2013.15:30)

الخاتـمة:

في ختام هذا البحث، يمكن استخلاص ما يأتي:

– الأقلية هي الجماعة الأقل عددا في المجتمع. و هذا ما ذهب إليه أنصار المعيار العددي.

– الأقلية هي الجماعة المضطهدة والمستضعفة في المجتمع. وهذا ما ذهب إليه أصحاب معيار الفاعلية.

– الأقلية هي الجماعة الأقل عددا و المضطهدة في المجتمع. و هذا ما ذهب إليه الاتجاه الجامع بين العدد والفاعلية معا.

– الأقلية كمصطلح شامل جامع مانع، هي: "مجموعة بشريّة ، قليلة العدد، تعيش وسط أكثريّة مسيطرة، تميّزها عنها خاصيّة أو أكثر، وهي حريصة على المحافظة على مميّزاتها، و عددها يمكنها من ذلك، وتتمتّع بصفة المواطنة والولاء للدّولة التي تعيش فيها، و تعمل على تحقيق المساواة مع الأغلبيّة".

المؤتمر الدولي العلمي السادس للمركز الأوروبي للبحوث والاستشارات

في العلوم الإنسانية والاجتماعية تحت شعار " المستقبل بعين الحاضر والماضي"

تركيا – اسطنبول

جامعة مرمرة – كلية الإلهيات

3 - 4 / 5 / 2018

الحماية الجزائية للرابطة الزوجية في القانون الجزائري

إعداد:

د/ ساوس خيرة

جامعة طاهري محمد- الجزائر

Email: k_saous@yahoo.fr

Ref: 6/2018/109

ISBN 978-1-9996437-3-7

مقدمة:

يعتبر الزواج العلاقة الشرعية الوحيدة لبناء أسرة سوية يفترض لها النجاح والاستمرار في تحقيق الغرض الذي أنشئت من أجله، ولهذا اهتمت التشريعات الوطنية بتنظيم هذه العلاقة الإنسانية في جميع جوانبها متأثرة في ذلك بالتعاليم الدينية والقيم الأخلاقية والأعراف السائدة في مجتمعاتها الوطنية، ونظرا لاختلاف هذه المفاهيم من دولة لأخرى فقد اختلفت تبعا لذلك التنظيمات الخاصة بالرابطة الزوجية من دولة إلى أخرى.

وقد أولى المشرع الجزائري كغيره من المشرعين اهتماما واضحا بهذا الموضوع، من خلال عدة نصوص قانونية هدفت إلى حماية الرابطة الزوجية باعتبارها الأساس الذي تبنى عليه الأسرة، وفي هذا الصدد تعتبر الحماية الجزائية لهذه الرابطة الوسيلة الأكثر فعالية التي تعمل على ضمان حقوق كلا الزوجين، وسنحاول من خلال هذه المداخلة التعرض لمختلف الأفعال التي جرمها المشرع لاعتدائها على الرابطة الزوجية وذلك عن طريق دراسة الجرائم التالية:

- جريمة الخيانة الزوجية
- جرائم الإخلال بالالتزامات الزوجية.

أولا: جريمة الخيانة الزوجية

تعتبر جريمة الخيانة الزوجية من الجرائم ضد الأخلاق، وكذا الآداب العامة ولكنها تمس بالدرجة الأولى الرابطة الزوجية. إن نظرة القانون للزنا تختلف عن نظرة الدين، فالزنا وفقا لأحكام الشريعة الإسلامية هو كل وطء بين رجل وامرأة لا يوجد بينهما زواج شرعي سواء كان أحدهما أو كلاهما متزوج أو غير متزوج، في حين أنه في نظر القانون الوضعي لا يتصور إلا إذا كانا طرفا الفعل كلاهما أو أحدهما متزوجا.[1]

وسوف نتطرق إلى أركان الجريمة والجزاء المترتب على مرتكبيها وكذا الإجراءات الخاصة بمتابعتها فيما يلي:

1.أركان جريمة الخيانة الزوجية

طبقا لنص المادة 339 من قانون العقوبات[2] الجزائري تتكون هذه الجريمة من ثلاث أركان الركن المادي، الركن المفترض والركن المعنوي.

1.1.الركن المادي: لا تقوم الجريمة إلا باللقاء الجنسي بين الذكر والأنثى، وبذلك تشترك جريمة الزنا مع جريمة الاغتصاب، غير أن الاتصال الجنسي في الاغتصاب بغير رضا المرأة في حين تكون برضاها في الخيانة الزوجية.[3]

2.1. الركن المفترض: المقصود بذلك هو ارتباط الزوج الزاني أو الزوجة الزانية بعقد زواج صحيح[4] حتى تتحقق جريمة الخيانة الزوجية، لأن القانون لا ينظر إلى مجرد الوطء وإنما ينظر إلى العلاقة الزوجية التي يجب أن تكون قائمة حال ارتكاب الجريمة، يعني أن الزوجة ما زالت على ذمة الزوج ولم يحدث طلاق بينهما.[5]

3.1.الركن المعنوي: يتوفر القصد الجنائي لدى الفاعل الأصلي متى ارتكب الفعل عن إرادة وعن علم بأنه متزوج وأنه يواصل شخصا غير زوجته.

أما بالنسبة للشريك فيشترط فيه العلم بأن خليله أو خليلته متزوجا أو متزوجة، فإن كان يجهل الرابطة الزوجية وقت إتيان الفعل فإن القصد الجنائي يكون منتفيا.[6]

---

[1] أحسن بوسقيعة: الوجيز في القانون الجنائي الخاص، الجزء الأول، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2003، ص 130.

[2] الأمر رقم 66-156 مؤرخ 8 يونيو 1966 يتضمن قانون العقوبات المعدل والمتمم.

[3] نفس المرجع.

[4] المحكمة العليا، الغرفة الجنائية، بتاريخ 01-06-2003، ملف رقم 297745، المجلة القضائية عد 02، السنة 2003، ص354.

[5] المحكمة العليا، الغرفة الجنائية، بتاريخ 08-01-2003، ملف رقم 249349، المجلة القضائية عد 02، السنة 2003، ص354.

[6] عبد الحميد الشواربي: جريمة الزنا في ضوء القضاء والفقه، دار المطبوعات الجديدة، الاسكندرية، مصر،1985، ص34،33.

2.الإجراءات الخاصة بمتابعة جريمة الخيانة الزوجية:

تخضع المتابعة لقيدين هما: إثبات الجريمة وشكوى الزوج المضرور.[1]

1.2.إثبات الجريمة: لا يجوز إثبات الجريمة إلا بإحدى الوسائل الثلاث وردت على سبيل الحصر في المادة 341 من قانون العقوبات وهي:

- محضر إثبات التلبس بالجنحة يحرره ضابط الشرطة القضائية طبقا لما هو منصوص عليه في المادة 15 من قانون الإجراءات الجزائية.
- إقرار صريح وارد في رسائل أو مسندات صادرة من المتهم.
- الإقرار القضائي ويقصد به الاعتراف أمام القضاء.

2.2.شكوى الزوج المضرور: لا تتم المتابعة إلا بناء على شكوى من الزوج المضرور، وإن سحب هذه الشكوى يضع حدا للمتابعة ضد الفاعل الأصلي وشريكه طبق المادة 339 من قانون العقوبات.

2. الجزاء: طبقا لنص المادة 339 من قانون العقوبات تكون العقوبة على جريمة الخيانة الزوجية بالحبس من سنة إلى سنتين دون التمييز بين الزوج والزوجة مرتكب الجريمة وتطبق نفس العقوبة على الشريك، غير أنه لا يعاقب على الشروع في هذه الجريمة.

[1] أحسن بوسقيعة: مرجع سابق، ص133-136.

ثانيا: جرائم الإخلال بالالتزامات الزوجية

تتمثل هذه الجرائم في:

- جرائم الإهمال المعنوي والمادي.
- جريمة الامتناع عن دفع النفقة.

1. جرائم الإهمال المعنوي والمادي

تندرج ضمن جرائم الإهمال المعنوي والمادي جريمتي ترك مقر الأسرة وجريمة التخلي عن الزوجة الحامل.

1.1.جريمة ترك مقر الأسرة: تنص المادة 330/1 على:"يعاقب بالحبس من شهرين إلى سنة وبغرامة من 25.000 إلى 100.000 دج:

–أحد الوالدين الذي يترك مقر أسرته لمدة تتجاوز شهرين ويتخلى عن كافة التزاماته الأدبية أ, المادية المترتبة على السلطة الأبوية أو الوصاية القانونية، وذلك بغير سبب جدي. ولا تنقطع مدة الشهرين إلا بالعودة إلى مقر الأسرة على وضع ينبئ عن الرغبة في استئناف الحياة العائلية بصفة نهائية."

فطبقا لنص المادة تتكون جريمة ترك مقر الأسرة من ركنيين هما: الركن المادي والركن المعنوي.

1.1.1. الركن المادي: ويتحقق بتوفر عنصرين:

أ.الابتعاد جسديا عن مقر الأسرة لمدة أكثر من شهرين: ويقصد بمقر الأسرة مكان إقامة الزوجين وأولادهما، وهذا يقتضي بالضرورة وجود مقر الأسرة، يتركه الجاني، أما إذا كان كل من الزوجين يعيش منفصلا عن الآخر في بيت أهله فهنا لا تقوم الجريمة.

نلاحظ أن المادة 330/1 من قانون العقوبات تذكر أحد الوالدين بدلا من أحد الزوجين، وهذا يعني أن الجريمة لا تقوم إلا في حق الأب أو الأم الشرعيين، كما أن الجريمة تقتضي وجود ولد أو عدة أولاد، فلا تقوم الجريمة في حق الزوجين الذين لا ولد لهما، وفي هذا الصدد نرى بأنه كان الأولى بالمشرع الجزائري أن يوسع من نص المادة ليشمل الزوجين الذين لا أولاد لهما.

ولقيام الجريمة يشترط في الترك استمراره لأكثر من شهرين، وإن العودة إلى مقر الأسرة يقطع هذه المهلة، ولكن يشترط أن تكون هذه العودة تعبيرا عن الرغبة في استئناف الحياة العائلية.[1]

ب.عدم الوفاء بالالتزامات العائلية: تقوم جريمة الإهمال بالتخلي عن بعض أو كل الالتزامات المفروضة عليه قانونا نحو زوجته وأولاده، تلك الالتزامات نوعان،[2] نوع مادي كالنفقة وهي مفروضة على الأب بالنسبة للذكور إلى سن الرشد، وبالنسبة

---

[1] دردوس مكي: القانون الجنائي الخاص في التشريع الجزائري، الجزء الثاني، ديوان المطبوعات الجامعية، المطبعة الجهوية قسنطينة، الجزائر، 2005، ص125،126.

[2] أحسن بوسقيعة: مرجع سابق، ص147.

للإناث إلى الدخول طبق المادة 75 من قانون الأسرة. ونوع أدبي يتمثل في رعاية الأولاد وحسن تربيتهم حسب نص المادة 36 من قانون الأسرة.

2.1.1. الركن المعنوي: تتطلب جريمة ترك مقر الأسرة قصدا جنائيا يتمثل في مغادرة الوسط العائلي، وإرادة قطع الصلة بالعائلة. ولا عقوبة على الزوج الذي يغادر مقر الزوجية لسبب جدي مثل البحث عن العمل، إلا أن سوء النية مفترض في هذه الحالة وعلى الزوج الذي ترك مقر الأسرة إثبات قيام السبب الجدي.

ولا تتخذ إجراءات المتابعة إلا بناء على شكوى الزوج المتروك.[1]

2.1.جريمة التخلي عن الزوجة الحامل: تنص المادة 330/2 من قانون العقوبات على: "يعاقب...

– الزوج الذي يتخلى عمدا ولمدة تجاوز شهرين عن زوجته مع علمه بأنها حامل وذلك لغير سبب جدي"

لقيام هذه الجريمة يشترط توافر ثلاث أركان هي:

1.2.1. الركن المفترض: قيام الرابطة الزوجية بين الزوج المهمل والزوجة الحامل، فلا يعتد بالعلاقة غير الشرعية.

2.2.1. الركن المادي: يتحقق بتخلي الزوج عن زوجته الحامل لمدة أكثر من شهرين، دون مراعاة التخلي عن الالتزامات العائلية الأخرى.

3.2.1. الركن المعنوي: علم الزوج بحالة الحمل لزوجته المتروكة، فهذه الجريمة هي جريمة عمدية، وعليه يشترط لقيامها ثبوت علم الزوج بحمل زوجته عند تخليه عنها. ويمكن للزوج أن يتملص من العقوبة إذا أثبت أن غيابه كان لسبب جدي.[2]

أما فيما يتعلق بالجزاء فإنه يعاقب مرتكب هذه الجريمة بنفس العقوبة المقررة لمرتكب جريمة ترك مقر الأسرة المذكورة أعلاه.

2. جريمة الامتناع عن دفع النفقة

تشمل النفقة ما يصرفه الزوج على زوجته من طعام وكسوة ومسكن أو أجرته ونفقة العلاج وما يعتبر من الضروريات في العرف والعادة.[3] ويمكن القول في ضوء ماسبق أن الزوج ملزم شرعا وقانونا بالإنفاق على زوجته متى استوفت النفقة شروطها، وإن من حق الزوجة اللجوء إلى القضاء للحكم لها بنفقة وهذا الحكم شأنه شأن أي حكم قضائي قد ينفذه المحكوم علي طواعية واختيارا. وقد يمتنع عن تنفيذه وفي هذه الحالة يتعين إكراهه على التنفيذ.

وقد أوجد المشرع حماية للحق المقرر للزوجة في النفقة بموجب المواد 74 وما بعدها من قانون الأسرة وتبعه بحماية جزائية عندما خصص المادة 331 من قانون العقوبات لمعاقبة الزوج في حالة امتناعه عن قيامه بواجب الإنفاق على زوجته عندما يقرره

[1] المادة 330 الفقرة الأخيرة من قانون العقوبات الجزائري.

[2] دردوس مكي: مرجع سابق، ص129.

[3] المادة 78 من قانون الأسرة الجزائري.

القانون ويحكم به القضاء، مشكلا بذلك جريمة الامتناع عن تسديد نفقة مقررة قضاء،[1] حيث نصت على: " يعاقب بالحبس من ستة أشهر إلى ثلاث سنوات وبغرامة من 50 ألف دج إلى 300 ألف دج كل من امتنع عمدا ولمدة تتجاوز الشهرين عن تقديم المبالغ المقررة قضاء لإعالة أسرته، وعن أداء كامل قيمة النفقة المقررة عليه إلى زوجه أو أصوله أو فروعه، وذلك رغم صدور حكم ضده بإلزامه بدفع نفقة إليهم".

نستخلص من نص المادة أن جريمة الامتناع عن دفع النفقة تتكون من الأركان التالية:

- **صدور حكم قضائي بالنفقة ممهورا بالصيغة التنفيذية:** ومعنى ذلك أنه لا اعتبار إذا كانت تلك النفقة قد تحددت اتفاقا بين الجاني وزوجته التي يلزم بإعالتها.[2]

- **امتناع المحكوم عليه من أداء كامل النفقة لمدة تجاوز الشهرين:** طبقا لنص المادة 331 من قانون العقوبات فإن سلوك الجاني هو سلوك سلبي بامتناعه عن دفع المبلغ المحكوم به عليه، وأن يكون ذلك الامتناع لمدة تجاوز الشهرين من تاريخ صدور الحكم النهائي الملزم بالدفع، ويعني أنه اليوم التالي لانقضاء الشهرين.

كما أن الوفاء الجزئي خلال المدة القانونية لا يعفي من تطبيق النص، بمعنى أن الوفاء يجب أن يكون كليا، كما لا يعتبر الوفاء اللاحق معفيا من العقوبة.

ويبدأ حساب تلك المدة بمضي 20 يوما من تاريخ تبليغ الحكم النهائي القاضي بالنفقة الغذائية على يد المحضر القضائي.

- **الركن المعنوي:** جريمة الامتناع عن دفع النفقة هي جريمة عمدية لقول المشرع:" كل من امتنع عمدا"، أي أن الجاني لا بد أن يكون عالما بوجوب أدائه المبلغ المحكوم به عليه وبأن ذلك المبلغ نفقة مستحقة عليه بموجب حكم قضائي نهائي ويمنع عن الدفع أي اتجاه إرادته إلى عدم السداد باختياره.

كما وسع المشرع الجزائري مجال الحماية للزوجة الدائنة بمبلغ النفقة، واعتبر أن عدم دفعها جريمة عمدية ما لم يثبت العكس وقرر أنعدم الإعسار الناتج عن سوء السلوك أو الكسل أو السكر عذرا غير مقبول، وهذا ما نصت عليه الفقرة الثانية من المادة 331 من قانون العقوبات، فمجرد عدم الدفع يعتبر قرينة قانونية على توافر ركن العمد، إلا أنها قرينة بسيطة يمكن إثبات عكسها،[3] أي عبء إثبات حسن النية يقع على الجاني لا على سلطة الاتهام.

أما فيما يتعلق بالاختصاص المحلي فإنه يؤول إلى المحكمة التي يقع بدائرة اختصاصها موطن الدائن بالنفقة (الزوجة) أو محل إقامته، وذلك قصد تخفيف العبء على مستحق النفقة.

ويضع صفح الضحية بعد دفع المبالغ المستحقة حدا للمتابعة الجزائية.

---

[1] بوزيان عبد الباقي: الحماية الجنائية للراطة الأسرية في التشريع الجزائري، مذكرة ماجستير في العلوم الجنائية وعلم الإجرام، كلية الحقوق، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، 2009، 2010، ص 25.

[2] أحسن بوسقيعة: مرجع سابق، ص 157،158.

[3] اسحاق ابراهيم منصور: شرح قانون العقوبات الجزائري، جنائي خاص، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص136.

الخاتمة:

خلاصة البحث مما تقدم، فقد وفق المشرع الجزائري في تناوله للحماية الجزائية للرابطة الزوجية من خلال الجانب الموضوعي والإجرائي، يتضح لنا أنه قد راعى طبيعة وخصوصية هذه الرابطة بما يحفظ دوامها لأجل أداء وظيفتها.

غير أنه يجب أن يتعامل مع الجرائم الواقعة على الرابطة الزوجية من منطلق الوقاية أولا، وإعادة التأهيل باعتبارها ظاهرة اجتماعية إلى جانب كونها أعمال مجرمة تستوجب العقاب، وأن ينص المشرع على أحكام احترازية وإصلاحية تهدف إلى الحد من الوقوع في الجريمة من الأساس.